

صَلَاةُ الْكَائِنَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ
فِي مَسْجِدِ

ترجمة: حسن بيومي



المشروع القومي للترجمة

ل . ا . سيمينوفا

صلاح الدين
والمماليك في مصر

ترجمة
حسن بيومي



١٩٩٨

العنوان الأصلي للكتاب المترجم عن الروسية

АКАДЕМИЯ НАУК СССР
ИНСТИТУТ НАРОДОВ АЗИИ

Л. А. СЕМЕНОВА

САЛАХ АД-ДИН
И МАМЛЮКИ
В ЕГИПТЕ



ИЗДАТЕЛЬСТВО «НАУКА»
Главная редакция восточной литературы
Москва 1966

مؤلفة هذا الكتاب هي الأستاذة ليديا أندريفنا سيميتوفا عضو المعهد السوفيتي
لشعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، والمؤلفة كتاب آخر عن مصر يسمى .

دراسات تاريخية في مصر الفاطمية

وهو لم يترجم بعد إلى العربية

أما هذا الكتاب فهو من إصدار هيئة تحرير الآداب الشرقية التابعة لأكاديمية
العلوم السوفيتية - موسكو « ١٩٦٦ .

تقديم المترجم

لا يسعنا ونحن نقدم هذا الكتاب للقارئ المصرى والعربى ، إلا أن نشيد بالجهد الخارق الذى بذلته المؤلفه وهى تتصفح مجلدات التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، وهى وافرة وعديدة وضخمة . وقد أشارت إليها المؤلفه فى مقدمتها بالتفصيل مما يعفينا من التكرار . إن هذه المجلدات تصل إلى عشرات الآلاف من الصفحات ، وقد استطاعت المؤلفه أن تسبح بل وأن تغوص داخل هذا المحيط من الصفحات ، وأن تقتطف المقاطع والاستشهادات ، وأن تقرأ أيضا إلى جوار ذلك الكتب المعاصرة ، حول هذه الفترة التاريخية ، الصادرة فى مصر وسوريا ولبنان للمؤرخين المصريين والعرب ، وأن تناقش كل هذه المعطيات مع الكثير من المؤرخين والمستشرقين الغربيين والروس الذين اهتموا بتاريخ هذه الفترة فى مصر من أمثال المستشرق الفرنسى الشهير : سلفستردى ساسى ، والباحث الألمانى : بيكر ، والمستشرق الفرنسى : كلود كهن ، وغيرهم من المؤرخين والمستشرقين ، راسمة لنا فى نهاية الأمر بانوراما اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية ، بل وأخلاقية عن مصر أيام السلاطين الأيوبيين وخلفائهم من المماليك التركية أو الشراكسة .

وهذه الفترة محل الدراسة غنية بتغييراتها وصراعاتها ؛ إذ هى أعقبت الفترة الفاطمية ، وألحقت البلاد بالمذهب السنى بعد أن كانت فى عهد الفاطميين تدين بمذهب الشيعة - وهى تبدأ بالصراع مع الصليبيين ابتداء من حملات صلاح الدين ومن حذا حذوه من الأيوبيين أو المماليك . ثم الغزو المغولى ، وما ألحقه ببغداد وسوريا من خراب ودمار ، والصراع المملوكى ضد هؤلاء المغول الذى امتد فترة غير قصيرة ، ثم أخيرا صراع السلاطين الأيوبيين أو المماليك ضد بعضهم البعض والذى أدى إلى تدهور كافة الأوضاع تدريجيا ، حتى كانت الضربة القاضية فى تحول طرق التجارة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وما أدى إليه من خراب وتدهور ، مهدا السبيل أمام الغزو العثمانى لمصر ١٥١٧ م . أى أن فترة الدراسة تبدأ بزوال عهد الفاطميين فى مصر ١١٧١ م ويتحقق النجاحات البارزة للحكومة المصرية فى صراعها ضد الصليبيين ، وتنتهى بدخول العثمانيين إلى مصر .

وعلى هذه الأرضية التاريخية جرى كثير من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية على يد صلاح الدين الأيوبي ، كانت نتيجتها القضاء على الملكية الحكومية للأرض التي كانت سائدة في العصر الفاطمي ، وإقرار شكل أكثر تقدما - كما تقول المؤلفة - للملكية الإقطاعية للأرض ، وهو (الإقطاع) - وهذا هو المحتوى الأساسي لتاريخ مصر الداخلى فى عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل (انظر الفصل التاسع) .

هذا الإقطاع الذى يتميز بطبقة غير محددة فى مصر الأيوبية والمملوكية ، شأنها فى ذلك شأن بلدان الشرق الأوسط فى كل العصور الوسطى ، وهو فى مصر يتميز بأنه إقطاع حربى يعتمد على نظام هرمى (هراكى) ، تقوم فئاته العليا والوسطى بدور هام فى السلطة المركزية بفرض المشاركة فى فائض إنتاج المنتجين المباشرين (الفلاحين) . وهذا النوع من الإقطاع قابل لإحداث تغيرات عديدة داخله ، فهو لم يعرف الثبات ، والجداول التى تقدمها المؤلفة فى هذا الكتاب لبيان ما يلحق بهذا الإقطاع من تغيرات فى العهود المختلفة لدليل على تدخل الحكومة المركزية التى أقامت هذا الإقطاع أساسا بسبب التدهور الاقتصادى الذى ورثته عن الخلفاء الفاطميين ، ثم الضرورة الملحة لتأمين حياة الجيش الذى يُعد للمعارك الفاصلة ، مما أدى إلى أن تفقد الحكومة فى عهد الأيوبيين حق الاستغلال المباشر للفلاحين ، ونتج عن ذلك ازدهار الأوضاع الزراعية .

وبالرغم من أن الإقطاع الأيوبي كان شبيها بالإقطاع الفئوى الهرمى فى أوروبا الغربية فى العصور الوسطى ، إلا أن الفئات المالكة كانت تتكون فى أغلبها من الأعيان المحاربين الذين ينحدرون من الأصل الكردي والتركى ، وهو يتميز أساسا بالغياب الكامل لحيازة الملكية الخاصة للإقطاعى (يراجع الفصل الثانى) وبالتغيرات المستمرة فى أنواع الأراضى (الوقف - الرزقة - الخلق - أملاك السلاطين ، على امتداد الفترة محل الدراسة بتغيير ظروف السلاطين الحكام .

ونحن قد نتفق أو نختلف مع المؤلفة فى هذه النقطة أو تلك ، وفى هذا الاستنتاج أو ذاك ، غير أن هذا لا يمكن أن يقلل من قيمة هذا الكتاب أو أن يبخسه حقه ، فهو جهد رائع لباحثة جادة استطاعت أن تضى لنا مساحات مظلمة من تاريخ هذه الفترة

وأن تضع أيدينا على مواضع كانت تائهة عنا ، رغم أنها بين أيدينا .. فيكفيها شرفاً أنها قد فتحت عيوننا على الكثير مما تزخر به كتب المؤرخين المصريين والعرب في العصور الوسطى - محل الدراسة - الذي يجب علينا أن نعيد قراءتها لا للمتعة والترفيه ولكن للاستكشاف والمقارنة والمتابعة والرصد والمناقشة والفهم والاستنتاج ، مما يثرى وعينا التاريخي ، ويدفعنا إلى فهم أكثر علمية لمراحل تاريخنا المختلفة .

بقيت كلمة ضرورية عن هذا الكتاب الذي يعتمد أساساً على المراجع العربية وعلى الاقتباس منها والاستشهاد بها ، وقد قمنا بترجمة كل ذلك ترجمة أمينة من الروسية إلى العربية وأثبتناه في مكانه من المتن . لكننا رأينا أنه لا بد من الرجوع إلى هذه النصوص في لغتها الأصلية .. في المصادر العربية ، حيث إن ترجمة نص مرتين (أى من العربية إلى الروسية - المؤلفة - ثم من الروسية إلى العربية - المترجم - من الجائز أن يفقده الكثير أو أن يشوه بعض معانيه مهما كانت دقة الترجمة .. لذا كانت الرحلة الشاقة من أجل تحقيق هذا الكتاب ، إذ إن معظم المراجع العربية التي رجعنا إليها تختلف طبعاتها عن الطبعات ، التي رجعت إليها المؤلفة - حيث لم يتيسر لنا الحصول على هذه الطبعات ولكن أعاننا إلى تجاوز هذه المشكلة أن معظم مؤرخي هذه الفترة يؤرخون سنة بسنة ويثبتون على رأس الأحداث السنة التي حدثت فيها ، مما سهل لنا عملية البحث قليلاً .

لقد قمنا بتحقيق المقاطع والنصوص التي اقتبسها المؤلفة وأثبتناها في هوامش كل صفحة بعلامة مميزة لها كما وردت في مراجعنا ، وأشرنا إليها بإيجاز طبقاً للقائمة الخاصة بمراجع المترجم والموضوعة في نهاية الكتاب ؛ لأنها تسهل للقارئ كثيراً البحث عن هذه الاستشهادات في المراجع المصرية التي رجعنا إليها ، ولا بد من الإشارة إلى أننا لم نجد فروقا جوهرية بين ما أثبتته المؤلفة وبين ما وجدناه في مراجعنا من حيث الفحوى والمضمون ، سوى بعض الاختلافات التي أشرنا إليها في مكانها من الصفحات وبينها للقارئ ، إلا أن هناك فروقاً من حيث لغة العصور الوسطى للمؤرخين المصريين والعرب واللغة المعاصرة - كما أن الترجمة مرتين أوجدت فروقا ، ولكنها ليست كبيرة .

وبكل سرور نود أن نقدم وافر الشكر للصديق الباحث صلاح العمروسي الذي أعان بالجهد وبالكتاب من أجل تحقيق هذه النصوص .

هذا وقد قمنا بتحقيق أسماء التقويم التاريخي للسلطين الأيوبيين والمماليك في مصر وفي سوريا ، ثم الخلفاء العباسيين في هذه الفترة وقد أثبتنا أسماعهم بالكامل رغم أن المؤلفة اكتفت بكتابة أسمائهم بإيجاز . هذا وقد أثرنا أن ننقل الصفحات التي اختارتها المؤلفة من كتاب المقرئى « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » لنعطى القارئ المزيد من التأمل في تاريخ الفترة محل الدراسة وفهم ملامحها وأثبتناها في مكانها من الكتاب كما أرادت المؤلفة .

أما الهوامش الأصلية للكتاب فقد أثرنا أن تكون هوامش كل فصل في نهايته ، وأن نترجم لها كل ما هو ذو أصل عربى ، وأن نكتب المراجع والوثائق الأجنبية بلغتها سواء كانت فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية أو روسية أو عربية مترجمين كل ملاحظات المؤلفة أو شروحها التي ترد تحت هذه الوثائق .

وكان علينا أن نضع قائمة المراجع الأصلية لهذا الكتاب في مكانها كما قدمتها المؤلفة وكذلك قائمة الكتب التي استفادت منها ، مما يتيح للقارئ العربى الفرصة فى الاستزادة والتوثيق ، وللمهتمين والباحثين الفرصة للبحث والدراسة .

المترجم

المقدمة

فى هذا الكتاب ، تتكشف العلاقات الاجتماعية فى مصر منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وحتى القرن السادس عشر ؛ أى فترة حكم السلاطين الأيوبيين والمماليك . وهذه الفترة تتميز بالتغيرات العميقة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كما تتميز بهذه التغيرات أيضا فى الأيدولوجية ، وفى بدايتها ، تحققت النجاحات البارزة للحكومة المصرية فى صراعها ضد الصليبيين والمغول ، وفى نهايتها وقع الغزو التركى .

ومؤرخو أوربا الغربية ، كرسوا العديد من الأبحاث عن مصر فى هذه الفترة وقد احتل مركز الصدارة فى هذه الأعمال ، شخصيات السلاطين ، وفى مقدمتهم السلطان الشهير : صلاح الدين ، بحروبه وسياساته ، وعلاقاته التجارية وقضاياه الثقافية والدينية : أعمال : ج . فيل ، هـ . جب ، جتسالك ، ل . ديفيك ، س لين بول ، ف موير . لكن القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، احتلت فى هذه الأعمال مكانا قليل الأهمية بشكل غير عادى .

وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه ، على يد المستشرق الفرنسى الشهير : سيلفستر دى ساسى ١٧٥٨ - ١٨٢٨ م فى كتابة الشهير ، الذى قام هو نفسه بترجمة العديد من المصادر التى زودها بالتعليقات التى تعطى الكثير من التعريفات عن نظام الزراعة فى مصر فى العصور الوسطى^(١) وبعض ملاحظات سيلفستر دى ساسى ، وعلى رأسها رأيه فى تناوب الأشكال المختلفة للملكية الأراضى الزراعية - والتى تدحض التصور السائد فى عصره عن ثبات نظام الزراعة فى مصر منذ عهد الفراعنة - لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا .

واهتم أيضا بدراسة العلاقات الاجتماعية فى مصر ، فى العهدين الأيوبي والمملوكى : الباحث الألمانى : ك . بيكر ١٨٧٦ - ١٩٣٣ م فى دراسة له عن مصر فى العصور الوسطى منشورة فى دائرة المعارف الإسلامية ، وأيضا بحثه المخصص .. عن نشوء نظام .. المنح الإقطاعية العسكرية ، ويقدم أيضا وصفا لبعض الكتابات السورية المتعلقة فى أغلبها بملكية الوقف^(٢) غير أن تاريخ مصر سيستضى بهم فى ضوء

المنهج العلمى . فبيكر كممثل نموذجى لعلم التاريخ البرجوازى الغربى ، من طبيعته أن يقابل طرق التطور التاريخى فى الشرق بالغرب ، التى تستوجب ، من وجهة نظره ، الفروق العنصرية^(٣) . ومفهومه عن الإقطاع - كنظام اقتصادى ، محدد - غريب للغاية . وحقيقة فإن بيكر فى أعماله لم يطرح منشأ وتطور الإقطاع متمسكا بوجهة النظر الشرعية الشكلية ، وغافلا عن الفروق الجوهرية فى العلاقات الاجتماعية قديمة العهد بمصر فى العصور الوسطى ، معتقدا أن نظام الزراعة حتى العصر الأيوبي (نظام الالتزام) لم يكن إلا انبعاثا بسيطا لنظام الإيجار الرومانى المشدد^(٤) وبدرجة ما فإن بيكر يتميز بكيفية تسجيل تاريخ عصر الإمبريالية وتحديث عملية كتابة التاريخ . وكذلك فإن العديد من من أعمال المؤرخ الإسرائيلى المعاصر أ. بولياك^(٥) المكرسة لهذه القضايا والمتمسكة بالتحليل البرجوازى الشائع عن تصور الإقطاع كضم للملكيات الكبيرة تحت سلطة سياسية فى وجود تبعية هرمية موالية ، توجه اهتمامها بالدرجة الأولى لقضايا الانتماء السلالى ، وتنظيم الفئات الحاكمة ، معتبرة قضاء محمد على على الهرمية الإقطاعية فى بداية القرن التاسع عشر كنهاية للإقطاع المصرى ، غير رابطة بين معالجة تطور الملكية الإقطاعية ، وبين تطور العلاقات الإيجارية ، بين مالكي الأرض والمنتجين المباشرين ، وبولياك لم ير بأى درجة كانت ، التغيرات فى وضع الفلاحين المصريين على امتداد العهد المملوكى حتى القرن التاسع عشر^(٦) . والاهتمام المحدود بدور العامل الاقتصادى فى التاريخ نجد أصدا له عند بولياك فى مقاله عن « الهبات الشعبية فى مصر فى عهد المماليك وأسبابها الاقتصادية » ولكن تفسيره للإقطاع لم يعط له أية أى إمكانية عن كشف البواعث الجذرية لهذه الهبات ، وبولياك شبيه ببيكر فى كونه يطبق تجاه مصر فى العصور الوسطى ، مقولات ذات طبيعة رأسمالية (برجوازية - بروليتاريا - رأس المال) - والعصر المملوكى فى مصر ليس له أسباب كافية من وجهة نظره ، ولذلك فهو يظن أن استعمار قبيلة القرن الذهبى لمصر قد حدث تحت التأثير الكبير المتزايد للمغول ، ولكنه أحيانا يعطى أهمية محدودة للتطور الاجتماعى فى مصر ، وفي نفس الوقت فإن أعمال « بولياك » مشبعة بوقائع حقيقية وافرة تتضمنها استنتاجاته الخاصة المهمة :

وبدون أدنى شك فإن له الفضل في إعداد الكثير من المصطلحات الاجتماعية والإدارية عن العصر المملوكي .

وأبحاث المستشرق الفرنسي التقدمي « كلود كهن » في دراسة التاريخ الداخلي للأيوبيين في مصر تعتبر ذخيرة جوهريّة ؛ فهي مخصصة لتحليل العديد من المصادر التي تتعرض لأنشطة الإدارة الماليّة ^(٧) وفي كتاباته العامة ؛ مقالات ذات أهمية بالغة لأبعد الحدود عن تطور الإقطاع في العالم الإسلامي من القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر الميلادي ^(٨) ، خاصة تلك المواد القيّمة ، عن النظام الاجتماعي الاقتصادي ، التي تقدمها تعقيباته في كتاباته المختلفة ، وفي عرضه لما قدمه ابن تفردي ^(٩) في كتابه « الحوادث » . والأعمال المعروفة لنا لبعض المؤرخين المصريين عن الفترة المشار إليها ، تتصفح على الأغلب ، التاريخ السياسي فقط ، فكتابات على بيومي ^(١٠) تروى الحوادث المرتبطة باستقرار صلاح الدين في مصر ، ثم مجموعة معلومات عن سياسته الداخلية في مصر حتى ١١٨٢ م . وأعمال حسن على إبراهيم ، محمد سرور ^(١١) تهتم في جوهرها بتاريخ السلالة المملوكية التركية الحاكمة ، وعلى الأخص صراعاتهم الخارجية مع أعدائهم في أواخر عهدهم ؛ وعلاوة على هذا ، فإن حسن على إبراهيم يقدم معلومات وافرة متعلقة بالتنظيمات الإدارية في مصر المملوكية ، ولكن كتاب محمد سرور يستعرض بعض المعلومات عن الحرف والزراعة .

ونجد عند المؤرخ السوري المعاصر : أحمد دراج في مؤلفه « مصر تحت حكم
بارسبياي » حقائق هامة عن التاريخ الخاص لمصر في منتصف القرن الخامس عشر ،
وكذلك العديد من الملاحظات القيمة ، غير أن وضع الفلاحين وأشكال الملكية الزراعية
الإقطاعية لم يعطها المؤلف حقها من الاهتمام الوافر (١٢) .

وعند علماء التاريخ في روسيا - فيما قبل الثورة - نجد مقالين مكرسين لمصر في العهد المملوكي المبكر للرحالة الشهير ، ف . ا . أوسبنسكي ، والمستشرق ف . ف . تزنجاويزن يضيئان بعض القضايا في سياسة مصر الخارجية (١٣) . وتزنجاويزن أصدر أيضا نصوصا وترجمات لعدد من المصادر العربية عن الفترة المملوكية (١٤) .

أما مسألة منشأ الإقطاع في مصر من القرن الثالث وحتى الخامس الميلادي ؛ فقد تم الكلام عنها لأول مرة على يد الباحثين السوفييت ، م . ليفتشنكو ، ن . بيجوليفسكى ، أ . ب . رانوفيتش ، الذين استطاعوا أن يكتشفوا تشكل الملكية الزراعية الواسعة ، وتكون أشكال مبكرة للارتباط الشخصي بالزراعة (مستوطنات) ^(١٥) . وتطور التنظيمات الإقطاعية في مصر من القرن السادس وحتى القرن الثاني عشر الميلادي لم يخضع للدراسة التفصيلية في كتابات المؤرخين السوفييت ولكننا نجد أصداً له تترد فقط في بعض أعمالهم ، كما في مقدمات أ . كراتشكوفسكى ، أ . بيليف في كتاب « مذكرات أسامة بن منقذ » ^(١٦) .

ونجد أيضاً هذه الأصداً عن العلاقات الزراعية على امتداد القرنين الثالث والرابع عشر في مقاله س . ب بفرزير ، الباحث في تنظيمات الإقطاع ^(١٧) . وهي مقالة هامة وغنية بمضمونها إلا أنها تعتمد على عدد محدود من المصادر ، مما جعلها تتضمن العديد من الأخطاء الجوهرية . ولا يستثنى من ذلك أيضاً طريقة إعداد هذا المؤلف لقضاياها ، ولبفرزير أيضاً عدد من المقالات عن فن حرفة النسيج في مصر المملوكية ^(١٨) .

ويقوم هذا العمل أساساً على المفهوم المادي للتاريخ في دراسته ، للتشكلات الاقتصادية الاجتماعية كمراحل طبيعية في تطور الإنسانية ، والتي تتصف بأسلوب إنتاج محدد للخيرات المادية . وأساس العلاقات الإنتاجية للتشكلات الإقطاعية - طبقاً للنظرية المادية التاريخية - يقوم على الملكية الخاصة لطبقة الإقطاع ، وعلى رأسها وسائل الإنتاج التي تكون في هذا العصر هي الأرض ، والإنتاج الفائض المتكون بواسطة المنتجين المباشرين ، يتم الاستحواذ عليه عن طريقة الإكراه الاقتصادي ، في شكل الربح الإقطاعي .

وما دامت الزراعة في مصر - في الفترة المشار إليها - كانت هي العمل الأساسي للسكان ، فإن هذا يستتبع وجود نموذج رئيسي للعلاقات الاجتماعية مرتبط بدوره بالزراعة ، وبهذا القدر فإن القضية الرئيسية لهذا الكتاب ستكون - بمقدار توافر المادة العلمية - بحث العلاقات الزراعية ، بما يعنى توافق أشكال استغلال المنتجين المباشرين مع تطورات الملكية الشخصية الزراعية الإقطاعية .

وفيما يتعلق بالطبيعة الخاصة للركيزة الاقتصادية لطبقة الإقطاع - الغير المحددة - في مصر الأيوبية والملوكية ؛ شأنها في ذلك شأن بلدان الشرق الأوسط في كل العصور الوسطى ، فإن تحليل البنية الاجتماعية للمدينة بشكل ملموس يكون من الضروري أيضا ؛ وذلك لبيان جوانب الملكية الخاصة الزراعية ، ولهذا سوف نخصص له فصلا غير كبير في هذا الكتاب ؛ غير أننا لا نزعم أنه سيضيء كافة القضايا العديدة الناشئة عن دراسة المدينة المصرية في الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر وحتى الخامس عشر .

ومن الضروري هنا ، أن نلمس التاريخ السياسي والديني بدرجة ما ؛ وذلك لإيضاح القضايا العديدة المشار إليها سابقا .

ويمقدار ما كان تاريخ مصر الأيوبية والملوكية مرتبطاً بشكل غير منقطع بتاريخ سوريا ، فإننا سنجد بعض انعكاسات هذا الارتباط في كتابنا ، إذ إن الهدف هنا ليس هو دراسة بعض قضايا التاريخ الداخلي للدولة المصرية بل هو دراسة مصر فقط .

والعصر الذي امتد من القرن الثاني عشر وحتى بداية السادس عشر ، قدم العديد من المصادر القيمة المدونة والتي تنتسب إلى الفنون المتنوعة في الأدب العربي ؛ ابتداء من دلائل الإدارة الجغرافية ، والأسفار التاريخية وانتهاء بالموسوعات . وأحد هذه المصادر هو كتاب : « تاريخ الفيوم وبلاده » لمؤلفه عثمان بن إبراهيم النابلسي الصفدي السوري الأصل ، الذي خدم في الإدارة المصرية ابتداء من ١٢٤٢ م ثم عمل حاكما للفيوم في ١٢٤٥ ، وقام بتأليف هذا الكتاب بناء على طلب من السلطان ، معتمدا على الوثائق التي تتضمنها الكتابات التفصيلية عن هذا الإقليم ، ثم بعض المعلومات التاريخية ، وإحصاء كافة الدوائر والضرائب المعاصرة له ^(١٩) . والنابلسي في كتابه هذا يقوم أيضا بتسجيل بعض الانتقادات لنظام الهيئات المركزية في حكم الأيوبيين لمصر ، ثم الكتاب الذي يليه أهمية وهو « كتاب قوانين الدواوين » لابن مماته المتوفى ١٢٠٩ ، وكان قبليا اعتنق الإسلام وشغل مركز مساعد رئيس الديوان الحربي في عهد صلاح الدين وخلفائه . وقد أظهر الأكاديمي كراتشكوفسكي مزايا هذا الكتاب بقوله : « فإلى جانب عدد من التعليمات الإدارية ، فإن ما يقرب من نصف الكتاب

مخصص للسياسة الزراعية في مصر ، وتفصيل بيان النوعيات المختلفة للأرض ومساحاتها وتسجيل مقادير الضرائب (المجباة عنها) ، ومعلومات أخرى ترتبط بهذا الموضوع إن أهمية هذه الموضوعات لبالغة الوضوح » (٢٠) .

وكتاب « سيرة صلاح الدين » يحتل أهمية من الدرجة الأولى ، ومؤلفه هو : بهاء الدين أبو الحسن يوسف بن شداد « ١١٤٥ - ١٢٣٤م) الذي قدم من الموصل وقضى قسما كبيرا من حياته يعمل في إدارة القضاء الحربي في عهد صلاح الدين .

أما كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » للمؤرخ والعالم اللغوي الدمشقي : عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة (١٢٠٣ - ١٢٦٧م) ، الذي عاش كل حياته في وطنه دمشق ، حيث اشتغل معلما في مدارسها ، فيحتل مكانة هامة أيضا لأنه يحتوي على تاريخ الزنكيين والأيوبيين ، ويتضمن العديد من المعلومات الهامة عن اقتصاد مصر ، خاصة أنواع الملكيات الإقطاعية .

وأبو شامة يستفيد في عمله هذا من كتابين لأحد مساعدي صلاح الدين وهو عماد الدين الأصفهاني (١١٢٥ - ١٢٠٠م) « فتح القدس » ، « ويرق الشام » والأول موجود بكامله حتى الآن ، أما الثاني فقد فقدت منه أجزاء كثيرة ، وعلاوة على ذلك : فإن أبو شامة يستفيد أيضا من كتاب ابن شداد المنوه عنه سابقا . وكذلك يعتمد على مؤلف تاريخ الخلافة لابن أبيتاي (١١٦٠ - ١٢٢٥م) وهو الشيعي الوحيد بين المؤرخين ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل ابن شداد يخفي نصوصه الأصلية في كتابه . وهناك أهمية محدودة للجزء الأخير من كتاب « الكامل في التاريخ » للمؤلف الشهير : عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير ، الذي ولد في ١١٦٠م في جزيرة ابن عمر على نهر دجلة ، وتلقى تعليمه في الموصل وبغداد وبعد ذلك أكمل كتابه أثناء رحيله إلى الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين ، وفي ١١٨٨ ساهم في معارك صلاح الدين مع الصليبيين .

والقسم الأكبر من حياة ابن الأثير قضاه في الموصل مكرسا نفسه لخدمة العلم حيث مات هناك في ١٢٣٤م وكتابه يؤرخ حتى ١٢٣١م ، ويستعرض فيه التاريخ المعاصر له ، وهو أيضا يستفيد من ملاحظاته الذاتية معطيا انتباها خاصا لوطنه الموصل .

والأهمية الأساسية لكتب : ابن شداد ، وأبو شامة ، وابن الأثير ؛ ترجع إلى أنها تهتم بتسجيل حملات صلاح الدين ، علاوة على أن مؤلفات أبو شامة وابن شداد تنطوي على طبيعة دفاعية بينما ابن الأثير يعكس الأحوال النفسية للمضطهدين تجاه الإقطاعيين المسيطرين في المقاطعات الشمالية ، ويحمل العداء لشخصية صلاح الدين . والمعلومات الخاصة باقتصاد مصر في هذه الكتب متواضعة ولكنها عظيمة القيمة .

والمصادر الأصلية لا تمتلك أية مقارنات في أصولها العربية ، بل إن هذه المقارنات لغائبة تماما ، باستثناء المذكرات المعاصرة للحملة الصليبية الأولى والتي كتبها الأمير السوري : أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨ م) وسماها كتاب « الاعتبار » وعن أهمية هذا الكتاب كتب البروفيسور : ف . بوزين : « إنها تعطي صورة خاطفة عن حقيقة ظروف الحياة وروح ذلك العصر » (٢١) .

والعالم الطبيب : عبد اللطيف البغدادي في كتابه « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة وفي الحوادث المعينة بدار مصر » يقدم معلومات قيمة عن الحياة المدنية في وصفه لمصر ، وقد ولد البغدادي في ١١٦٢م في بغداد حيث درس العلوم الطبيعية والأدبية ، وواصل دراسته فيما بعد في سوريا ومصر ، وكان قريبا من علماء ذلك العصر المعروفين ومن بينهم ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين ، وكتابه هذا قد تم تدوينه بين (١٢٠٣ - ١٢٠٦ م) وقدمه هدية للسلطان العادل ، وهو أخ لصلاح الدين (وذلك كي لا يختفى من العلوم الجليلة شيء من الحوادث في البلاد ، مهما كانت واهية أو متخفية ، ولا أية حالة من أحوال رعاياه مهما كانوا * بعيدين عنه) (٢٢) .

وكتاب « رحلة الكنانة » للجغرافي الأندلسي محمد بن أحمد بن جبير (١١٤٥-١٢١٧م) وهو من أصل عربي معروف بثرائه ، يعتبر مصدرا قيما ، وقد كتبه أثناء قيامه برحلة الحج إلى مكة وذلك خلال رحلته من مصر إلى سوريا فيما بين (١١٨٣-١١٨٥م) (٢٣) .

* للامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين (السلطان العادل) ... لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شيء من أخبار بلاده وإن تراخت أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تنامت .
البغدادي : الإفادة والاعتبار ص ٤ طبعة وادي النيل ١٢٧٦ هـ .

وهناك أهمية محدودة لكتاب « تاريخ الكنيسة والأديرة القبطية » لمؤلفه الأرمنى المصرى « أبو صالح » الذى عاش فى نهاية القرن الثانى عشر ، وقصة حياته غير معروفة ، وكتابه يقوم بإحصاء المؤسسات الدينية المسيحية ، وهو إلى جانب المعلومات التاريخية يقدم بعض المعطيات عن النظام الاقتصادى الاجتماعى .

أما عن مصادر الفترة المبكرة من حكم المماليك ، فإن الأهمية العظمى يتضمنها الجزء الباقى من سيرة حياة بيبرس « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » الذى قام بكتابتها محى الدين بن عبد الظاهر (١٢٢٣ - ١٢٩٢م) وكان يعمل مساعدا خاصا للسلطان الظاهر ، وهو يغطى الخمس سنوات الأولى من حكم بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٦٥م) بشكل نموذجى كامل لروح مداح يعمل كمؤرخ فى البلاط السلطانى ، والكتاب مع هذا يعطى بعض التصورات الدقيقة إلى حد كبير عن الحياة السياسية والاجتماعية فى فترة الخمس سنوات المشار إليها .

ومن مؤلفى عهد المماليك الأوائل الذين يحتلون أهمية فائقة الحدود : إسماعيل بن على أبو الفدا وهو من أحد الفروع الثانوية للحكام الأيوبيين المصريين فى حماه ، وقد ولد أبو الفدا فى دمشق ١٢٧٣م واشترك فى سنوات عمره الأخيرة فى الصراع ضد الصليبيين ، وبعد خضوع حماه للمماليك فى (١٢٩٩م) بقى كموظف عند حاكمها المملوكى ، لكن فى ١٣١٠م ، تم تعيينه حاكما لها . وظل يشغل هذا المنصب حتى آخر حياته فى ١٣٣١م ، ومن كتابيه الباقيين لنا ، وخاصة الأجزاء الأخيرة الهامة من كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » الذى يستعرض فيه الحوادث منذ وجود العالم حتى (١٣٢٩م) ، ويسبب الرحلات الخاصة للمؤلف إلى مصر ، وبسبب قربه من القصر السلطانى ؛ فإن كتابه يحتوى على معلومات قيمة عن البنية الاجتماعية المعاصرة له ، كما أنه يقدم تاريخ العصر الأيوبرى ، وهو يستعرض أساسا مؤلفات السابقين له ومن بينهم الكتاب السابق التنويه عنه لابن الأثير ، والأجزاء الكاملة لهذا الكتاب غير منشورة ولم يتح لنا منها سوى المقاطع المترجمة من « تزناوزن » تحت اسم تاريخ الأيوبيين لابن واصل ١٢٠٧ - ١٢٩٨م .

والمعلومات الهامة عن الحياة الداخلية لمصر فى الثلث الأخير من القرن الرابع عشر تتضمنها الأجزاء الصادرة من كتاب فى التاريخ العام ، وضعه الموظف المملوكى المعروف : ابن بويدار ، وهو قد ساهم بفاعلية فى صراع الكتل المملوكية من أجل السلطة ، هذا الصراع الذى انتهى بالانتصار التام للسلطان الناصر محمد ، وابن بويدار يصف الحوادث الجارية فى حكمه للمرة الثانية ، وقسم هام من فترة حكمه الثالثة (١٢٩٩ - ١٣٣٣ م) . والجزء التاسع المطبوع من هذا الكتاب يحمل اسم « الدر الفخيم فى سيرة الملك الناصر » .

وبعض المعلومات الهامة عن اقتصاد مصر فى عهد المماليك الأوائل - تتضمنها موسوعة شهاب الدين أحمد النويرى (١٢٧٩ - ١٣٣٢ م) المسماة « نهاية الإرب فى فنون العرب » والنويرى هذا ولد فى صعيد مصر فى أسرة من الكتبة وورث مهنة أبيه ، وفى كتابه هذا يطرح مجمل قضايا المعرفة الإنسانية الضرورية لكتاب مدرسى (٢٤) . وما يلزم عملنا من هذا الكتاب ، هو الجزء الهام الخاص بالتعليمات المتعلقة بوثائق منح الأرض ، وبجمع الضرائب ، وهو موجود فى المجلد الثامن من طبعة القاهرة .

أما الموسوعة الأخرى الكبيرة فى العصر المملوكى ، والتى تحمل اسم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » لشهاب الدين أحمد بن على القلقشندى ، وهى تمتلك أهمية غير قليلة (وخاصة بعض المعلومات عن التقسيمات الإدارية ، وعن نظام الضرائب والجيش) وهذا المؤلف العربى الشهير قد ولد أيضا فى مصر سنة ١٣٥٥ م فى إقطاع قلقشند القريبة من قليوب ، ودرس فى الإسكندرية حيث تعلم الفقه ثم انتقل فيما بعد إلى دائرة حكومية ، وهناك بدأ عمله فى كتابه الموسوعى هذا ، وهو لم ينته منه حتى نهاية حياته سنة ١٤١٨ م . وأهمية كتاب القلقشندى لا ترجع إلى كونه يتضمن فقط معلومات أصيلة من أخباره عن النظام الاجتماعى المعاصر له ، وإنما فى احتوائه على الكثير من معطيات المصادر الأخرى ، وخاصة ما جاء فيه عن القسم الهام من الموسوعة الكبيرة الثالثة فى العهد المملوكى ، وهى غير مطبوعة ، وتسمى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » والتى أعدها شهاب الدين أحمد العمرى (١٣٠١ - ١٣٤٩ م) .

وضرورى أيضا لبحثنا معلومات وردت عند المؤرخ العربى الشهير : أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) فى كتابه « العير » وابن خلدون ينحدر من أسرة غنية من عرب الشمال ، استوطنت تونس ، وكان طوال حياته يعمل فى الوظائف الإدارية العليا فى قصور حكام الشمال الأفريقى المختلفين ، ولكنه ابتداء من (١٢٨٢م) حتى وفاته شغل فى القاهرة وظيفة رئيس قضاة المذهب المالكى وقام بالتدريس فى مدارسها .

والفصول المكرسة لمصر الأيوبية والمطروحة أساسا فى أعمال عماد الدين الأصفهاني ، وابن الأثير تحتل أهمية عظمى ؛ لأنها تقوم بترتيب أقسامها طبقا لتاريخها المعاصر ، وعلى الأخص تلك المعلومات التى يمكن أن تلقى الضوء على العلاقات المتبادلة بين سلاطين المماليك والقاطنين من القبائل الرحل . ومن الأعمال المتأخرة التى تستحق التنويه ، مخطوط للموظف القاهري : ناصر الدين محمد بن الفرات (١٢٣٤-١٤٠٥م) ويسمى « تاريخ » والمنشور منه قسم يغطى الفترة من (١٢٧٣-١٣٩٧) وهو يعتمد أساسا على الملاحظات الشخصية للمؤلف ، والكثير من هذه المخطوطات لم ينشر ، « باستثناء ما قدمه » تزنجاوزن من مقاطع ، والقسم التاريخى من موسوعة النويرى يتضمن أيضا معلومات هامة عن الحياة الاقتصادية فى مصر .

وهناك معلومات هامة أيضا عن الملكية الإقطاعية للأرض يتضمنها المؤلف الجغرافى لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق الذى شغل منصب حاكم دمياط لفترة قصيرة واشتغل بعد ذلك هو أيضا بالتدريس حتى وفاته فى ١٤٠٧م تقريبا . وعمله هذا مستكمل حتى بداية (١٢٩١م) وهو يحمل اسم « كتاب الانتصار لوسيلة عقد الأمصار » وهو مخصص لوصف القاهرة والإسكندرية وبعض الأقاليم القريبة منها ، وينبغى ملاحظة ما تم التنويه عنه سابقا من جمع « تزنجاوزن » لبعض المقاطع المتبقية من هذا العمل التاريخى لابن دقماق ، وأحد هذه المقاطع يتجول حتى (١٢٧٧م) والآخر حتى (١٤٠٢م) . ولكن الأهمية الاستثنائية فى كل مخلفات العصر الأيوبى والمملوكى ، ترجع إلى اثنين من مؤلفات المؤرخ المصرى الشهير : تقى الدين أحمد بن على المقرئى .

الذى ولد بالقاهرة ودرس بها علم الفقه (وكان بن دقماق أحد أساتذته) وفيما بعد ، قام بتدريس التراث وشغل وظيفة القاضى ، ثم محتسبا لبعض الوقت ، وفى ١٤٠٨م انتقل المقرئى لوظيفة فى دمشق ، لكنه عاد إلى القاهرة خلال عشر سنوات ، ووهب حياته للعمل العلمى .

والعمل الأول من المؤلفين اللذين نوهنا عنهما للمقرئى هو : الدليل الجغرافى التاريخى الشهير « كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » وقد عمل المقرئى فى هذا الكتاب طوال العشرين عاما الأخيرة من حياته (٢٥) ، وهذا الكتاب يتضمن بشكل خاص مقاطع من إنتاج كثير من مؤلفى العهدين الأيوبي والملوكى المبكر ، السابقين له والمعاصرين ، تلك التى تلقى الضوء على الكثير من جوانب حياة الشعب المصرى ، علاوة على أن المقرئى يقوم كقاعدة عامة - بتحديد أسماء هؤلاء المؤلفين (٢٦) ، ويقدم الكثير من المعلومات ذات الأهمية القصوى عن مصر المعاصرة له .

أما عمله الثانى ، وهو سفر تاريخى يسمى كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » وهو يحيط بتاريخ مصر من (١١٨١ حتى ١٤٤٠م) ويتضمن هو أيضا معلومات هامة عن النظام الاجتماعى والاقتصادى (٢٧) ، والمقرئى هنا يستخدم من المصادر القيمة القليل بالنسبة لعمله السابق ، ومن بينها الأجزاء المفقودة من سيرة بيبس المنوه عنها سابقا لابن عبد الظاهر ، وأيضا أعمال المؤرخين المعاصرين للناصر محمد (٢٨) ، وبدرجة ما بعض الأبواب غير المنشورة من « تاريخ » ابن دويدار المخصص للأيوبيين .

ومن الضرورى التنويه بواحد من الأعمال العديدة للمقرئى وهو بحثه المسمى (كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة .) « أو تاريخ المجاعات فى مصر » وهذا الكتاب مخصص لوصف سنوات الجوع فى مصر ابتداء من العهود القديمة حتى بدايات القرن الخامس عشر ،

أما الأوضاع الداخلية لمصر فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ولمدة مائة عام فنجد أصداها منعكسة فى كتابى : أبى المحاسن يوسف بن تغربردى (١٤٠٩-١٤٧٠م) وهو نجل مملوك بارز ، وكان يعمل فى القصر السلطانى ، وهذان

الكتابان عبارة عن رسائل كاملة ومستمرة متبادلة بين صديق وصديق ، يحمل الأول منهما اسم كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» أما الثانى فيسمى «حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور» والكتاب الأول : يحيط بالفترة منذ الغزو العربى حتى ١٤٦٤م ، أما الكتاب الثانى فيغطى الفترة من ١٤٤١ إلى ١٤٦٩م ، والأهمية الخاصة لهذين العاملين تكمن فى أنهما يتضمنان أخبارا عن الصراع الداخلى للإقطاع ، والحركات الشعبية ، وعلاوة على ذلك : فإن كتاب النجوم الزاهرة يمتلك أهمية محدودة فى دراسة العهد الأيوبي والعهد المملوكى المبكر ، وإلى جانب هذا فإن قيمة الفصول الملائمة لعملنا تتحدد بمدى قيمة استخدام ابن تغريد للمصادر ، وهو فى كثير من الحالات يستخدم كتاب معلمه المقرئى «السلوك» ، وفى أسلوب سهل المنال يتناول جزءا غير كبير من كتاب سبت بن الجوزى (١١٨٦ - ١٢٥٧م) المنوه عنه من ابن دقماق .

كذلك يتضمن كتاب المؤرخ : عبد الرحمن السخاوى (١٤٢٧ - ١٤٩٧م) بعض المعلومات عن النظام الاجتماعى الاقتصادى . وهذا المؤلف قضى كل حياته تقريبا فى القاهرة ، مشغلا بالتعليم ، وكتابه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » يحيط بالفترة من (١٤٤١-١٤٥٣م) . وهناك بعض المعطيات الملحوظة التى تهم عملنا نجدها فى مؤلف الموظف المملوكى ، ذى الشخصية المعروفة : خليل بن شاهين الظاهرى ، والذى شغل فى حياته العديد من المناصب الكبرى ، كان من بينها وظيفة حاكم الإسكندرية وكراك ، وصفد ، وكتابه « زبدة كشف المالك فى بيان الطرق والمسالك » عبارة عن دليل مختصر يلبي حاجة الموظفين إليه ، (وفى حقيقة الأمر ، فإن معلومات هذا الكتاب ليست وفيرة ، علاوة على أنها لا تتمتع بالدقة (٢٩) .

وفى تأمل القضايا المرتبطة بالملكية الإقطاعية ، فإن الأهمية الأولى لوصف مساحات الأراضى الزراعية ، نجدها فى الكتاب المسمى «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» والمدونة بقلم موظف الإدارة الحكومية : شرف الدين يحيى بن المقار بن الجعيان . هذا السجل الوصفى لابن الجعيان ، تم إنجازه فى عهد السلطان : قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦م) وهو يعتمد أساسا على الوثائق المتعلقة بفترة حكم السلطان الأشرف

ناصر الدين شعبان (١٣٦٣-١٣٧٧م) . والتسجيل التاريخي الدقيق لهذه الوثائق هو الذى أوصل الباحث الألماني « ب مورتس » إلى أن يدحض بصورة مقنعة - بتصحيحاته المستمدة من سجلات السلطان شعبان - ما قدمه سيلفستر دى ساسى من مصادقات كانت مقتبسة من سجلات الناصر محمد ، المدونة فى بداية القرن الرابع عشر (٢٠) .

ونصوص مراسيم السلاطين وقراراتهم هم ونوابهم فى العهد المملوكى هامة جدا ، فى دراسة أوضاع السكان المسيحيين ، وهى منشورة فى م . فان . برخيم . ، أما عن تاريخ مصر فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، فإن الكتاب الوحيد المعروف لنا فى المصادر العربية ، هو كتاب محمد بن أحمد بن إياس (١٤٤٨-١٥٢٤م) وهو سليل أحد الأسر المملوكية الشهيرة وكتابه معروف باسم : «تاريخ مصر المشهور ببداية الزهور فى وقائع الأمور » . وهو يتضمن عرض تاريخ مصر منذ « وجود العالم » حتى (١٥٢٢م) وفيه يستعرض الحوادث حتى منتصف القرن الخامس عشر بأسلوب سلس معتمدا على أعمال سابقه ، بما فيهم عماد الدين الأصفهاني والمقريزى ، ويعد هذا يقوم بتقديم وصف تفصيلي واسع حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية الغزو التركى ، وفى السنوات الأخيرة ، قدم بشكل أساس « كثيرا من الملاحظات القيمة عن الحياة اليومية بصفته شاهد عيان .

هوامش المقدمة

- 1 - Silvestre de Sacy, Sur la nature et les révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte, depuis la conquête de ce pays par les musulmans jusqu'à l'expédition des Français .
(Bibliothèque des arabisants français) , premiere,t. II, le Caire, 1923 .
(عن الطبعة الباريسية الأولى ١٨١٥) .
- 2 - C. Becker, islamstudien, Bd I, Leipzig ,1924 .
- 3 - Ibid..s. 247 .
- 4 - Ibid.,s 236 - 238 .
- 5 - (Les révoltes populaires en Egypte à l'époque des mamelouks et leurs causes économiques) REI, VIII. 1934; (Le caractère colonial de l' État mamlouk dans ses rapports avec la Horde d'or) REI, IX, 1935; (La Feodalité islamique) , REI X ,1936; (Some notes on the Feudal system of the Memluks),- JRAS, 1937 , (Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250 - 1900), London, 1939; (The Ayyubid Feudalism), JRAS . 1939. pt III; (The influenec of Chingiz- Khan's Yasa upon the general organisation of the Mamluk state). BSOAS, vol . X, 1942, pt 4 .
- 6 - A. Poliak. La féodalité islamique - REI, X, 1936. , P. 12 .
- 7 - Cl . Cahen. Le regime des impôts dans le Fayyum Ayyubide (Arabica), 1956, t. III. fasc. I. Cl. Cahen. Un traité Financier inédit d'époque Fatimide - Ayyubide. - JESHO , Vol.V, 1962, pt2, Cl. Cahen Contribution à l'étude des impôts dans l' Égypte médiévale, - JESHO , vol. V, 1962, pt 3 .
أما عن الملاحظات الخاصة : ك - كهن ، فينبغي الانتباه - للنقص الواضح في منطقاته ، ففي واحد من مقالاته الأخيرة ، المخصصة لتحديد مفهوم للإقطاع ، يمضى معترفاً بالملاح الجهورية لوجود الملكية للأرض ، مقترنا بتبعية الفلاحين الشخصية للإقطاعي ، وتبعية الإقطاعي الأقل رتبة لمن هو أعلى منه رتبة .
وفي نفس الوقت ، يكتب كهن قاصداً مصر في عهد الأيوبيين والماليك « أن نظام الحكومات الإسلامية يمكن أن يسمى فقط وبصعوبة - في الظروف الاستثنائية - بالنظام الإقطاعي » .
(Cl. Cahen. Au seuil de la troisième année. Réflexion sur l'usage du mot (Féodalité), - JESHO. Vol. III. 1960, pt I, P. 19)
- 8 - Cl. Cahen. L'évolution de l'iqa du IXe au XIIIe Siècle : Contribution à une

histoire comparée des sociétés médiévales - (Annales Économies . Sociétés . Civilisations) , 8e année, Paris, 1953, No 1 .

- 9 - W. Popper, Egypt and Syria under the Circassian sultans , 1382 - 1468 a.d. Systematic notes to Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt, - (University of California publications in semitic philology) Vol. 15, Berkeley - Los Angeles, 1955 .

١٠ - بيومى على . قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

١١ - حسن على إبراهيم - دراسات فى تاريخ الممالك البحرية - القاهرة ، ١٩٤٨ ، سرور محمد - دولة بنى قلاوون فى مصر - القاهرة ، ١٩٤٧ .

- 12 - A. Darrag , L' Egypte sous le règne de Barsbay (825 - 841) / (1422 - 1438) , Damas, 1961 .

См. нашу заметку об этой книге в журнале «На и нийѣчлор.

Африки», 1964, № 2, стр. 205—206.

١٣ - المؤرخون البيزنطيون للمغول والممالك المصرية : - Ф. И. Успенский,

(بالروسية) *Византийские историки о монголах и египет-*

ских мамлюках, — «Византийский временник», т. XXIV, Л., 1926;

نبدء عن علاقات مصر بالغربيين والبلغاريين فى القرن الرابع عشر (بالروسية) فى :

«Записки Восточного отделения Русского археологического общества»,

т. IV, СПб., 1889, вып. 1—2.

١٤ - مجموعة المواد المتعلقة بتاريخ قبيلة القرن الذهبى - В. Ф. Тизенгаузен,

بالروسية ١٨٨٤

وينبغى الإشارة إلى أنه فى ١٨٦٥ وفى المجلد الثالث للمختارات لاستاسيوليشتش كان قد تم طبع بعض المقاطع من المصادر المخصصة لهذه الفترة ، غير أنه كما يبدو فإن الجامع لهذه المجلدات لم يجد نسخة أصلية باللغة العربية فوضعها باللغة الروسية .

انظر استاسيوليشتش : « تاريخ العصور الوسطى من خلال كتابها وأبحاث علمائها المحدثين » مجلد ٢ ١٨٨٥ بالروسية .

١٥ - تاريخ بيزنطة - М. В. Левченко, *История Византии*, М., 1940;

قضايا نشأة وتطور الإقطاع فى الشرق الأدنى

وذلك فى مجلة : «Вопросы истории», 1962, № 6

- ١٦ - تاريخ العصور الوسطى فى الشرق (الخلفاء والشرق الأدنى) ١٩٤٤, Б. Н. Заходер
 وأيضا : تاريخ بلدان الشرق الأوسط فى العصور الوسطى لنفس المؤلف ١٩٥٧ .
 وأيضا : التاريخ العالمى مجلد ٢ - ١٩٥٧ .
 وانظرا أيضا لأسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار .
- ١٧ - الإقطاع فى مصر من نهاية القرن الثالث وحتى نهاية القرن الرابع عشر, С. Б. Певзнер
- ١٨ - انظر أعمال С. Б. Певзнера
 بعض القضايا عن دراسة النسيج فى مصر فى العصور الوسطى فى :
 وانظر أيضا « التأثيرات الصينية فى أشكال الحرف الفنية فى العصور الوسطى فى مصر » فى :
 وانظر أيضا : نحو إنتاجية العمل فى إنتاج النسيج فى مصر من نهاية القرن الثانى عشر
 وحتى الخامس عشر فى .
 محاضرة فى المؤتمر العالمى الخامس والعشرين للاستشراق (١٩٦٠)
- ١٩ - وهناك عرض تفصيلى لمحتويات هذا الكتاب انظر И. Ю. Крачков-
 ский, *Арабская географическая литература*, — Избранные сочинения,
 т. IV, М. — Л., 1957, стр. 347—348.
- ٢٠ - نفس المصدر ص ٢٠٩ .
- 21- «Записки Восточного отделения Русского археологического общества», т. II, 1887, стр. 175.
- 22-И.Ю.Крачковский, *Арабская географическая литература*, стр. 343.
- ٢٣ - نفس المصدر ص ٢٠٤ - ٢٠٧ .
- ٢٤ - نفس المصدر ص ٤٠٣ .
- ٢٥ - تعتمد على معطيات الطبعة القاهرية الثانية المتاحة لنا فى أجزاء من إصدار (Г. Вьета)
 فى ثلاثة أجزاء فى مجلدين .
- 26 - A. R. Guest. A list of writers, books and other authorities, mentioned by el .
 Maqrizi in his khitat - JRAS , 1902 .
- ٢٧ - تحت يدينا كل الأجزاء الثلاثة الأولى فى مجلد واحد وجزئين فى مجلدين - إصدار
 القاهرة محمد زيادة حيث يصل التأريخ حتى سنة ١٣٤١ .
- ٢٨ - ابن عبد الظاهر ص ١٨ .
- 29- И. Ю. Крачковский, *Арабская географическая литература*,
 стр. 462.
- ٣٠ - انظر ابن الجعيان - المقدمة ص ٢ , ٢ , عبد اللطيف ص ٥٨٥ .

الفصل الأول

الحدود والتنظيم الإداري

الفصل الأول

الحدود والتنظيم الإداري

داهم منتصف القرن الثاني عشر الخلفاء الفاطميين الضعاف في مصر (خليفة القاهرة) بالأزمة الاقتصادية العميقة ، الطاحنة ، وبالمصاعب الناجمة عن السياسات الخارجية التي أحاقت بمصر وحدها في ذلك الوقت .

فالسواحل السورية والفلسطينية كان قد تم الاستيلاء عليها منذ القرن الحادي عشر ، بواسطة الصليبيين الذين أقاموا بها منذ الحملة الصليبية الأولى ، وتأسست فيها ولايات : الرها وطرابلس ، وإمارة أنطاكية ، ومملكة القدس ، أما بقية الأقاليم السورية فقد ظلت تحت حكم الإقطاعيين العرب والسلاجقة المستقلين . وكان أكثرهم قوة في أواخر ذلك العهد هم الزنكيون ، فمنذ منتصف القرن الحادي عشر وعلى امتداد هذا القرن ، أتيح للأمير عماد الدين زنكي ، بعد أن وحد تحت سلطته العراق وشمال سوريا ، أن يوجه ضربة شديدة للصليبيين ، واستولى جيشه على جزء كبير من ولاية الرها ، وحرر بشكل ما وادي الفرات من الفرنجة .

وكان هذا هو الباعث الأساسي للحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ م) التي كان عملها الرئيسي هو حصار دمشق ، الذي انتهى بالفشل الذريع .

وواصل سياسة عماد الدين ابنه نور الدين محمود بن زنكي (١١٤٦ - ١١٧٤ م) . واستطاع نور الدين أن يخضع دمشق وقلعا سورية أخرى ، وسعيا وراء المزيد من القوة التي تتيح له إمكانية الهجوم على الصليبيين من الجنوب ، بدأ حربا عنيدة ونضالا سياسيا من أجل إخضاع مصر ، تحت حجة حماية حق الوزير الفاطمي المطرود شاور ، وظل نور الدين متابعا هدفه ، مرسلا إلى مصر ثلاث مرات فرقا عسكرية منتقاة ، كان على رأسها قائده : أسد الدين شيركوه وهو عم صلاح الدين ، الذي استطاع أن يصد بقواته تهديد الصليبيين الراغبين في الاستيلاء على مصر ، وكانت سياسته الحازقة ذات تأثير كبير في القصر القاهري .

وبعد موت شاور في (١١٦٨ م) قام العاضد لدين الله وهو آخر الخلفاء الفاطميين ، بتعيين أسد الدين وزيرا له ، وفي السنة التالية ، أي بعد الموت المفاجئ لشيركوه بسبب

الإسراف فى الطعام ، انتقلت الوزارة إلى صلاح الدين الذى كان موجودا فى حاشية شيركوه منذ الحملة الأخيرة . والفترة المبكرة من حياة صلاح الدين حتى وجوده فى مصر غير معروف عنها الكثير ، فجدّه شادى ينحدر من الكرد ، من قبيلة تسمى روادى ، كانت تقطن إقليم بون فى أرمينيا^(١) . وكان قد توجه مع ابنه شيركوه وأيوب إلى بغداد ، فى قصر السلطان السلجوقى مسعود ، حيث تم تعيينه حاكما لقلعة تكريت على نهر دجلة ، وبعد موت شادى انتقلت وظيفته إلى أيوب . ولكن بعد عدة سنوات ، أى فى (١١٢٨م) عندما قتل شيركوه أحد المحاربين السلجوقيين المعروفين فى اشتباك بينهما ، اضطر الأخوان أن يهجرا تكريت . وفى أثناء رحيلهما ليلا تمت ولادة الابن صلاح الدين يوسف .

وتوجه أيوب وشيركوه إلى قصر عماد الدين زنكى ، وفيه تيسر لأيوب أن ينقذ حياة عماد الدين من الخطر فى تلك الليلة ، ولذا فإنه قبل بحفاوة وترحاب أن يقيم عنده منقذه هذا هو وأخوه ، وسرعان ما تم تعيين أيوب نائبا على بعلبك ، وبذلك سهل له الانتقال إلى دمشق تحت سلطة نور الدين ، وعاش صلاح الدين فى قصر الزنكيين غير مظهر ميوله الخاصة نحو الأعمال الحربية ، وامتنازه بالفروسية ، وعندما تم تعيينه فى وظيفة بحاشية شيركوه ، رفض هذه الوظيفة ، ولكنه قبل وظيفة الوزير فى مصر ، وسرعان ما تجلت مواهبه الفذة فى القيادة وشئون الحكم ، مما جعل الخليفة الفاطمى يرفض أن يكون مجرد منفذ مذعن لإرادته ، وسعى للقضاء عليه عن طريق الدسائس . ولكن صلاح الدين استطاع أن يهزم أعداءه ويعين نفسه حاكما على مصر ، بعد أن خلع الخليفة المتوفى فى (١١٧١م) . ومنذ ذلك الوقت بدأت السلالة الأيوبية تحكم مصر رسميا . وبعد ذلك سرعان ما هاجم الموت نور الدين الذى رأى منافسه المتوجس منه خيفة : صلاح الدين وهو يقوم بتأسيس دولته ، التى تزداد رسوخا كل يوم .

وواصل صلاح الدين سياسة نور الدين ، وتعهد بالحرب المقدسة ضد الصليبيين ، وأخضع كل إمكانياته لهذا الهدف . وبدأ صلاح الدين بتقوية القاعدة المادية للجيش المصرى ، عن طريق التوزيع الواسع للملكية الزراعية ، وقمع المعارضة الفاطمية . وبدأت بذلك مرحلة تعزيز قوى المسلمين للصراع القادم .

وفى السنوات الأولى من حكم صلاح الدين المستقل ، تحققت غزواته الأولى فى ١١٧٢-١٧٧٣م بقيادة بهاء الدين قراقوش التقوى الذى أخضع برقة وطرابلس على الشاطئ الأفريقى ، ثم قام الجيش المصرى أيضا فى ١١٧٤م بقيادة توران شاه (أخو صلاح الدين) بغزو اليمن ، وكان الهدف الرئيسى لكلا هاتين العمليتين ، هو إعداد ملجأ لصلاح الدين فى حالة هزيمته فى صراعه مع نور الدين ، غير أن نور الدين قد مات فى نفس هذا العام .

صارت الممتلكات السورية لنور الدين موضع صراع بين أتباعه المختلفين ، وتحت دعوى حماية حق الصغير « صالح » وريث نور الدين ، توجه صلاح الدين بفرقة صغيرة إلى سوريا ، ولم تواجهه أية مقاومة عنيفة . وفى تلك السنة (١١٧٤م) تم له فتح دمشق وحماة وكافة الأقاليم السورية ما عدا حلب ، وعين أخاه توران شاه نائبا أول له فى سوريا ، أما حكام الجزيرة (٢) الزنكيون والأرتوكيون والبختينيون فقد وقعوا مع صلاح الدين فى (١١٨٠م) م اتفاق سلام لمدة عامين ، ولكن بعد فترة قليلة من الزمن خضع الواحد منهم تلو الآخر . وفى ١١٨٢م تمكن الجيش المصرى من الاستيلاء على حلب التى كان يحكمها عماد الدين زنكى الثانى بن عم صالح بن نور الدين ، واعترف حاكم الموصل : عز الدين مسعود الأول - وهو من أسرة تركية - بتبعيته لصلاح الدين فى خلال أربع سنوات بعد أن رأى تفوق قواته . وبهذه الصورة تم خضوع الجزيرة فى (١١٨٦م) - وصار صلاح الدين هو الحاكم الجبار فى العالم الإسلامى (٣) فباخضاع الجزيرة تم له تقوية الحدود الشمالية الشرقية ، وصارت تحت تصرفه الآن كل موارد مصر المادية ، وكل جيوش الأقاليم السورية . وتواصلت حركة القوات المصرية على امتداد شواطئ أفريقيا الشمالية وتكلت بالنجاح بفتح القيروان فى (١١٨٧م) . وتقلص خطر الهجوم من الغرب ، مما أعطى له إمكانية البدء فى الهجوم الحاسم على الصليبيين ، وكان صراعه معهم حتى ذلك التاريخ عرضيا . وفى (١١٧٠م) استولى على أيلة وهى ميناء على خليج العقبة ، مما سهل له التحكم فى البحر الأحمر ، ثم نجحت حملته على غزة الواقعة على حدود مملكة القدس ، وفى (١١٨١م) تم له تحطيم القوات الصليبية الساعية للهجوم على الحجاز خلال البحر الأحمر ، بواسطة الأسطول المصرى .

وكان الباعث وراء هذا الصراع هو خيانة ريجنالد شاتيلوننسك حاكم كراك ؛
وهي قلعة تقع في اتجاه الشرق من البحر الميت وتتحكم في العابرين من سوريا -
خلال الطريق الصحراوي - إلى مصر أو الحجاز حيث نكث حاكمها بوعده لصالح
الدين وحطم قافلة التجار المسلمين المتجهة إلى أخ لصالح الدين .

وطبقا لأوامر صلاح الدين ، تجمعت قوات المسلمين في دمشق في مايو ١١٨٧م
وبدأ حملة مقدسة في ٣ - ٤ يولية من هذه السنة في حطين ، انهزم فيها الصليبيون
شر هزيمة ، ووقع جويدي لوزيان ملك القدس في الأسر هو وقواده الآخرين ، وبعد ثلاثة
شهور من معركة حطين ، كان علم صلاح الدين الأصفر يرفرف في سماء القدس ،
والحملة الشهيرة الأخرى في ١١٨٨م كانت تتمثل في الاستيلاء على جزء كبير من ولاية
طرابلس وإدارة أنطاكية في ١١٨٨ - ١١٨٩م واسترجع فيها صلاح الدين عددا آخر
من القلاع من بينها كراك التي تقع في اتجاه الجنوب من الشوبك . وأدت نجاحات
صلاح الدين هذه إلى مجئ الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد الأول الانجليزي
وفيليب الثاني أوجست الفرنسي ؛ وبعد سنتين تقريبا من حصار عكا ، تم لهما
الاستيلاء عليها ولكن هدف حملتهما لم يتحقق .

وبانتصار جيوش المسلمين ، تم توقيع معاهدة سلام في الرمل في عام ١١٩٢م ،
وصارت كل فلسطين وفقا لشروطها تحت يد صلاح الدين ؛ علاوة على مستطيل ضيق
على الشاطئ يمتد من صور حتى يافا ، وبقيت تحت سلطة الصليبيين بعض القلاع
الحربية في سوريا من بينها طرابلس وأنطاكية وصور وقيسارية .

وفي ١١٩٣م مات صلاح الدين من أثر الحمى في دمشق .

وطبقا لوصيته ، توزعت مقاليد أمور دولته بين أبنائه وأخيه العادل ؛ فالأفضل ابنه
الأكبر تسلم دمشق ، والعزیز تسلم مصر ، والظاهر تسلم حلب ، وكانت أملاك الجزيرة
من نصيب العادل .

وبدأ الصراع بين الإخوة على السلطة ؛ فقام العزيز بهجوم ضد الأفضل وتم له
في نهاية الأمر طرده من دمشق ، وأعطاه ما بقي من سوريا تحت إشراف العادل ،
وبعد موت العزيز في ١١٩٨م وطد العادل سلطته في القاهرة معيدا وحدة الدولة بشكل

ما ، واستمر في حكمه حتى (١٢١٨م) ، وكانت علاقته مع الحكام الصليبيين مسالمة في مجملها ، غير أن الصليبيين لم ينسوا هدفهم في الاستيلاء على مصر ، مركز كل قوى المسلمين ؛ ولذا فإن حملتهم الصليبية الرابعة كانت مدبرة لهذا الهدف ، وكما هو معروف فإن هذا الهدف بقي مجرد توجه لا غير .

وورث أبناء العادل حكمه ؛ فالكمال (١٢١٨ - ١٢٣٨م) كان حاكما في دمشق ، والمعظم عيسى كان حاكما للجزيرة ، أما الأشرف موسى فكانت له حلب فقط ، وصار الباقي تحت حكم أحفاد صلاح الدين .

كان هدف الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧-١٢١٩م) هو تعزيز سلطتهم على القدس ، وإعادة بنائها ؛ ما دام الاستيلاء على مصر أصبح غير ممكن ؛ فحملتهم الوحيدة الواسعة على مصر لم يأخذوا فيها إلا دمياط في (١٢١٩م) حيث أن القوى المتحدة للأيوبيين عطلت تقدمهم لأبعد الحدود من دمياط التي صارت مخربة . تماما .

وفي (١٢٢٨م) قامت الحملة الصليبية السادسة بزعامة الإمبراطور الألماني ملك معارك صقلية : فردريك الثاني جوجنشتاوفن ، وبالرغم من كونه قام بعدة عمليات حربية شهيرة على أقاليم الدولة الأيوبية في ذلك الوقت ، إلا أنه لم يحقق النجاح بوجه عام . ووقع الكامل مع فردريك معاهدة في (١٢٢٩م) ، تم بمقتضاها عودة الصليبيين إلى القدس ، والاستيلاء على مستطيل ضيق من الأرض يربطها بالبحر ، وتعهد الإمبراطور فردريك بمساعدة الكامل ضد أعدائه من المسلمين والمسيحيين ، وإلى جانب هذا فإن هذه المعاهدة قد تضمنت عدم تزويد القلاع السورية الواقعة تحت حكم الصليبيين بأية مساعدة من الخارج .

وفي (١٢٣٨م) ؛ ورث الكامل ابنه الأصغر : العادل الثاني ، الذي حكم في كل من مصر وسوريا ؛ غير أنه سرعان ما تم عزله بواسطة أخيه الأكبر : صالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩م) وفي عهده تم له استعادة القدس نهائيا من الصليبيين (١٢٤٤م) بمساعدة قبائل الخوارزم .

وحالما صار صالح أيوب في عداد الموتى ، نزلت فرق الصليبيين في دمياط ، بقيادة الملك الفرنسي : لويس التاسع (١٢٤٩م) ، وكانت دمياط قد سقطت منذ ثلاثين عاما

مضت ، ولكن فى فبراير ١٢٥٠ تم إبادة كل قوات الجيش الفرنسى فى معركة بالمنصورة ، بعد أن فشلت كل محاولاته فى إحراز أى تقدم ووقع الملك الفرنسى فى عداد الأسرى . وهذه المعارك قد حدثت فى عهد ابن صالح ، وهو السلطان الأيوبي الأخير الملقب : بالمعظم توران شاه ، وبهذه الصورة يتضح أن كافة محاولات الصليبيين لسيطرتهم على مصر ، وإرجاع ممتلكاتهم التى فقدوها فى سوريا على يد صلاح الدين صارت عديمة الجدوى .

والمعظم توران شاه كان قد قرب إليه الماليك (وهى حرفيا نوع ما من العبيد - المؤلفة) ومات أبوه مقتولا بأيديهم فى مايو ١٢٥٠ ، وبعد ثلاثة شهور من حكم زوجة أبيه المعروفة : بشجرة الدر ، صار القائم على عرش مصر ، هو السلطان المملوكى الأول : المعز أيبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧م) وصارت غالبية الجيش المصرى ، منذ عهد صالح أيوب ، تتكون من الماليك وهم - على الأغلب - ينحدرون من أرض القبائل الرحل حول سهوب البحر الأسود ، وكان يتم أسرهم على يد المغول ثم بيعهم كعبيد للتجار الإيطاليين ، الذين كانوا يقومون بنقلهم عبر البحر الأسود ليبييعوهم للسلطين المصريين ، وقد اقترب هؤلاء الماليك الترك (البحرية) (٤) من الأرستقراطية الإقطاعية للفئة الحاكمة ، مبعدين ومنافسين الأكراد .

وتابع الماليك تراث الأيوبيين فى سياستهم الداخلية والخارجية (٥) .

والظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (١٢٦٠-١٢٧٧م) اعتبر نفسه صلاح الدين الثانى . والمعروف عنه أنه من أكثر سلاطين الماليك الأوائل شهرة ، وكان بيبرس هذا أحد العبيد الجسورين المباعين للسلطان صالح على الأغلب ، وصار مقاتلا معه فى قواته بعد ذلك ، وأثناء الصراع مع الصليبيين فى حملة لويس التاسع ، صار قائدا للجيش المصرى ، وبعد ذلك ساهم بدور فعال فى التآمر ضد المعظم توران شاه ، وبرز بيبرس فى معاركه ضد المغول الساعين إلى الاستيلاء على سوريا ومصر بعد سقوط بغداد فى ١٢٥٨م ، وتقدمت القوات المغولية فى أعماق سوريا ، ولكن تم هزيمتها شر هزيمة على يد الجيش المملوكى بقيادة السلطان : قطز (فى معركة عين جالوت : سبتمبر ١٢٦٠م ، ولم توفق كل محاولات المغول الأخيرة لاستئناف الهجوم . ومعروف

أيضا أن بيبرس قد اشترك فيما بعد مع أمراء آخرين في قتل قطز ، وبعد ذلك تم انتخابه سلطانا ، وبعد اعتلائه السلطة ، انطلق بكل قواه لإعداد الهجوم الحاسم على بقايا أملاك الصليبيين ، وذلك بإعادة بناء تحصيناته ومخازن أسلحته ، وإنشاء مراكز اتصال منظمة ، وبناء السفن ، ثم بدأ هجومه الكبير في ١٢٦٥م وتم له استسلام قلاع الفرنج واحدة تلو الأخرى : قيسارية في ١٢٦٥م ، وأرسوف في ١٢٦٦م ، وصفد في ١٢٦٨م ، ويافا وأنطاكية وحصن الأكراد في ١٢٧١م .

وفي ١٢٦٧م كان بيبرس قد أنجز حملة ناجحة ضد الإمبراطورية المتحدة للمغول في أرمينيا الصغرى وحطم عاصمتها سيس ، وأعلن قيصر أرمينيا تبعيته لمصر ، وتعهد بدفع إتاوة سنوية . وتمت بنجاح أيضا حملة الجيش المصري ضد سلاجقه آسيا الصغرى برغم المساعدات التي كانت تأتيهم من قبل المغول .

ويهدف الاستعداد للصراع ضد الهولاكين ، استطاع بيبرس أن يستخدم اتفاقا بينه وبين قبيلة القرن الذهبي ، مطورا إياه في النهاية إلى اتحاد ، ظل قائما حتى نهاية تدهور هذه القبيلة .

وتم تأكيد علاقات التبعية على النوبة التي كانت خاضعة لمصر منذ الغزو العربي ؛ نتيجة لحملة الجيش المملوكي عليها في ١٢٧٥م . وهناك أيضا حملتان مشابھتان قام بهما السلطان : المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) ، وكان الصليبيون في أواخر عهده قد تم لهم الاستيلاء على طرابلس في ١٢٨٩م ، ولكن في ١٢٩٢م تحقق له طردهم من عكا وصور وصيدا وبيروت ، على يد السلطان : الأشرف صلاح الدين خليل .

وبصدد نجاحات السلاح المملوكي ، ينبغي التنوية أيضا ببعض الحملات الحربية الجديدة في أرمينيا الصغرى التي اتحدت من جديد مع المغول خلافا لو عهدا ، وكانت هذه الحملات في السنة الثالثة من حكم الناصر محمد بن قلاوون (١٢١٠-١٢٤١م) ونتيجة لهذه الحملات عادت أرمينيا الصغرى مرة أخرى إلى التبعية للمماليك ، بل وظلت خاضعة لهم حتى ١٣٧٥م .

وبفضل هذه الانتصارات الباهرة على الأعداء المغول ، صارت مكانة مصر الدولية خلال ذلك العهد كله عالية جدا .

غير أن التطور المضطرب للعلاقات الإقطاعية ، والمتمثل فى تكثيف استغلال الشعب الكادح ، ووجود ظروف خارجية غير مواتمة (تغير طرق التجارة الدولية) أدى إلى إضعاف السيطرة المصرية .

وفى نهاية القرن الرابع عشر ، تغيرت سلالة المماليك الترك الحاكمة ، بما يسمى بسلالة المماليك الشراكسة ، وهم قد بدأوا تدريجيا فى الإحلال محل الإقطاعيين المنحدرين من القوقاز (٦) ، وكان أول سلطان من هذه السلالة الجديدة هو : الظاهر سيف الدين برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٩ م) . (٧) .

وفى عهد خليفته الناصر فرج أى فى ١٤٠٢م سقطت سوريا الشمالية أمام غزوة تيمور الكاسحة ، وأدى ضعف الجيش المصرى إلى عدم القدرة على القيام بالحملة الحربية الكبيرة ، ماعدا تلك العملية الفائقة الأهمية ، طوال حكم سلالة المماليك الشراكسة كله ، فى محاولتهم الاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت ملجأ للقراصنة الأوروبيين . والتى تحقق لهم فيها النجاح فى ١٤٢٦م فى عهد الأشرف سيف الدين بارسيبى (١٤٢٢-١٤٣٨م) وكان معروفا بسياسته القاسية فى مجال التجارة الخارجية والداخلية ، ثم كانت الحروب البحرية مع البرتغاليين فى عهد السلطان قنصوه الغورى (١٥٠١-١٥١٦م) التى كانت تهدف إلى محاولة الإبقاء على الوضع المسيطر لمصر فى التجارة عبر البحر الأحمر ، ولكن لم يتحقق لها أى نجاح ، ففى ١٥٠٩م تكبد الأسطول المصرى الهزيمة فى موقعة « ديو » وعلاوة على ذلك فإن الجيش المصرى ، ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر ، قام بصراعات دائمة على الحدود السورية الشمالية مع السلالة التركمانية المحلية التى أقامت الموانئ وواصلت بنجاح سياسة الاستيلاء على الأقاليم فى ذلك الوقت (٨) ، وقام السلطان : قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦م) بتوقيع معاهدة سلام معهم فى ١٤٩١م بهدف صد الصدام الحتمى مع الترك ، ومنذ ذلك الوقت وحتى ١٥١٦م كان الجيش التركى بقيادة سليم الأول يهاجم سوريا ، وكانت المعركة الفاصلة هى معركة « مرج دابق » فى ١٥١٦م وانتهت بهزيمة القوات المملوكية

وقتل السلطان قنصوه الغورى ، وبعد الاستيلاء على سوريا ، تقدمت القوات التركية إلى الحدود المصرية ، ولم يستطع نضال القاهرة العنيد بقيادة طومان باى - آخر السلاطين الشراكسة - أن ينقذ الوضع ، وصارت مصر ابتداء من ربيع ١٥١٧م إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية .

وبالرغم من حروب الصراعات الداخلية ، فإن الدولة المصرية فى عهد الأيوبيين والمماليك ظلت وحدة كاملة ، تحدها من الشمال الإمارات الأرمينية ، وأملاك السلاجقة العراقيين والروم ، وبعد الغزو المغولى على يد الهولاكيين ثم التيموريين ، فإن حدود الدولة المملوكية فى شمال العراق دخلت فى مصاف تشكيلات دول الأكيونيين والصفويين على حدود آسيا الصغرى ، وكان من بينها أيضا قليقله ، التى سقطت تماما تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية على امتداد النصف الثانى من القرن الخامس عشر وحتى بدايات القرن السادس عشر .

وأما حدود الدولة المصرية فى اتجاه الجنوب فكانت تمتد حتى الصحراء العربية وحتى الجنادل النيلية عند أسوان ، أما حدودها الغربية فكانت تمتد عبر الصحراء الليبية والواحات : الفرافرة والبحرية والخارجة ، وكان كل من الحجاز واليمن والنوبة وبرقة وقبرص ^(٩) (منذ ١٤٢٦م) تحت السيطرة المصرية - كما نوهنا سابقا .

بعد سقوط سلالة الأيوبيين فإن السلاطين كان يتم اختيارهم من الطبقة الحربية المملوكية ، مع ملاحظة أن المبدأ السلالى كان معمولا به بشكل جوهري طوال عهد السلالة البحرية ، إذ إن جميع السلاطين تقريبا ، كانوا من أولاد قلاوون ^(١٠) ، غير أن وراثة الحكم فى عهد السلاطين الشراكسة لم تكن موجودة .

ظلت الدولة المصرية فى العهد الأيوبي فى شكلها الفيدرالى الخاص ، ولكن مصر فى ذلك العهد - كانت إقليما مركزيا طبقا للملاحظة المنصفة لجوتشالك ؛ فلا السلالات المحلية ، ولا الإقليمية استطاعت أن تمتلك أهمية استقلالية قائمة بذاتها ^(١١) . أما سوريا والجزيرة فإن كل إقليم كبير منهما كان له حاكمه الخاص من أعضاء السلالة الحاكمة أو من الأمراء المحليين المعيّنين من قبل السلطة العليا للسلطان المصرى .

وكان من شروط انضمامهم إلى الفيدرالية الأيوبية ، سك النقود باسم السلطان المصري ، وإمداد القوات ، وعلاوة على دفع مبلغ محدود إلى الخزانة السلطانية عند الضرورة « أنفق السلطان * ثروات مصر لإخضاع سوريا وأنفق ثروات سوريا لإخضاع أراضي الجزيرة ، وأنفق كل الثروات لغزو السواحل » هكذا كتب الفاضل (١٢) وزير صلاح الدين عنه .

وفي العهد المملوكي ، كانت المركزية الملحوظة في سوريا قد وصلت إلى الحد الذي جعلها وحدة إدارية أساسية ، بل وإقليما كمصر ، يتكون من ست وحدات (ممالك) لكل واحدة منها عاصمته وهي : دمشق ، حلب ، حماة ، طرابلس ، وصفد ، وكرك وكل منها حاكم يعينه السلطان ، كان تحت تصرفه مجموعة من الموظفين المشابهين لأقرانهم في القاهرة (١٣) .

أما عدد أقاليم مصر فقد ظل دون تغيير ، ففي نهاية حكم صلاح الدين كان عدد هذه الأقاليم أقل من ٢٠ إقليما ، وفي بداية القرن الرابع عشر أي في عهد الناصر محمد كان ١٥ إقليما ، يوجد منها في الدلتا : القليوبية والشرقية وأشموم - طناح (الدقهلية) والغربية والمنوفية والبحيرة ، أما الصعيد فكان يشمل : قوص وأخميم وأسبوط ومنفلوط وأشمونين وبنى سويف والفيوم وأطفيح والجيظة ، ولكن عدد هذه الأقاليم في القرن الخامس عشر كان يتراوح ما بين ١٤ ، ١٧ ، وكان كل إقليم يتكون من عدة نواثر (نواحي) أي وحدات إدارية أدنى تتضمن كل منها قرية أو عددا من القرى .

✽ قد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة ، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل، وينفق إن شاء الله تعالى مال القسطنطينية في فتح رومية . أبو شامة ج٢ ص ١٧٧ .

هوامش الفصل الأول

- ١ - لمعرفة شجرة النسب الكاملة لصلاح الدين ، انظر كتاب : V . Minorsky, Studies in Caucasian history III. prehistory of Saladin, London 1953 pp . 107 - 139 .
- ٢ - تحت هذا الاسم ، (وهو يعنى حرفيا جزيرة أو شبة جزيرة) كان المؤلفون العرب في العصور الوسطى يقصدون الجزء الشمالى ما بين نهري دجلة والفرات ، وأبو الفدا ، طبقا لهذا ، يجعل حدودها الشمالية عبر ما لاتقا وأמיד وحدودها الجنوبية عبر تكريت والأنبار . (انظر) (EI , I , S . 1075) .
- ٣ - لمزيد من الدراسة الكاملة لهذه القضية ، انظر V. Minorsky, Studies in Caucasian history III . Annex B The eastern expansion of the Ayyubids , London, 1953, pp 146 - 156 .
- ٤ - غالبا ما يكون الاسم المستخدم للسلالة التركية للمماليك هو السلالة البحرية ، وهى مشتقة من الكلمة العربية (بحر) التى تعنى بحراً أو نهراً كبيراً ، ويؤكد بعض الباحثين أن هذا يوضح أن هؤلاء المماليك كانوا ينقلون من وراء البحر ، والآخرين يعتقدون أن هذا الاسم مرتبط بقلعة مبنية على جزيرة الروضة فى النيل حيث كان أغلب المماليك يتمركزون هناك . (لتحديد الرأى فى هذه القضية انظر « أمين على الخولى » « العلاقات بين النيل والقوقاز فى القرن الثالث عشر والرابع عشر » (موسكو ١٩٦٢ ص ٣٥) ، بالروسية .
- ٥ - احتفظ الأيوبيون بالسلطة على عدد من المدن السورية الكبيرة ، وبعد قيام سلطة المماليك فى مصر ظل الناصر يوسف حاكما لحلب ودمشق حتى الغزو المغولى (١٢٦٠) ، والأشرف موسى بقى فى حمص حاكما لها حتى وفاته (١٢٦٢) ، أما حماة - كما أوضحنا - فلم يستول عليها المماليك إلا فى (١٢٩٩) .
- ٦ - تسمى هذه السلالة أحيانا بالمماليك البرجية (من الكلمة العربية « برج ») ، وهذا مرتبط بإحضار الفوج الأول أثناء حكم السلطان قلاوون الذى أنزلهم فى أبراج قلعة القاهرة . انظر ابن إياس المجلد الأول ص ١٣٠ .
- ٧ - حدث انقطاع فى حكم السلطان برقوق ، عندما انتقلت السلطة من جديد للسلطان الأخير من المماليك التركية : الصالح صلاح الدين حاجى (١٣٨٩ - ١٣٩٠) .
- ٨ - ما يستحق الذكر من هذه الأقاليم هو كارمان ورمضان فى شمال غرب سوريا (فى بداية القرن الثالث عشر) ودولجدير فى شمال سوريا فى منتصف القرن الرابع عشر .
- ٩ - تحددت سيطرة محصر على الحجاز ، بتعيين السلاطين المصريين لحكامه (أمراءه) ، وكانوا يسمون أمراء المدن المقدسة ، من « الأشراف المنتسبين إلى محمد . سلالة بنى قتادة فى مكة ، وسلالة بنى شمس فى المدينة ، أما فقد حكمه الأيوبيون حتى ١٢٢٨ ، ثم بعد ذلك انتقلت السلطة إلى

سلالة الرسولين (حتى ١٤٥٤) التي استبدلت بسلطة الطاهريين ، وسقطت سلطة الطاهريين في ١٥١٥ على يد القوات المصرية الموجهة من السلطان قنصوه الغوري لطرد الأسطول البرتغالي من البحر الأحمر ، وصارت اليمن مرة ثانية تحت سلطة مصر حتى الغزو التركي . أما مملكة أرمينيا القليقية فكانت منذ ١٣٧٥ حتى بداية القرن السادس عشر تحت الحكم الجزئي للمماليك ، حيث كان نواب السلاطين يديرون أمور المدن الرئيسية .

١٠ - باستثناء ثلاثة سلاطين كانوا من مماليك السلاطين الخاصة ، وهم : كنيفا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ، لاجين (١٢٩٦-١٢٩٩) ، بيبرس الثاني جاشجير (١٣٠٩ - ١٣١٠) .

11- H.L. Gottschalk, Al Malik al Kamil von Egypten und seine Zeit; eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Egyptens in der ersten Hälfte des 7/13 .

Jahrhunderts, Wiesbaden, 1958 S. 21 - 22 .

١٢ - أبو شامة - ٢ - ص ١٧٧ .

١٣ - والوصف الأكثر تفصيلا نجده عند النابلسي : الإدارات الأيوبية في القاهرة في كتابه (انظر :

Cl. Cahen, Quelques aspects de l' administration égyptienne médiévale vus par un de ses fonctionnaires - (Bulletin de La Faculté des lettres de Strasbourg), Strasbourg, 1948, N. 4 ,pp 100 - 103 .

والإحصاء التفصيلي لوظائف الجهاز الحكومي المركزي وواجبات كل موظف يقدمها ابن معاتى ص ٧ - ١١ أما عن تنظيم إدارة الأقاليم السورية فانظر N . A. Ziadeh, Urban Life in Syria under early mamluks Beirut, 1953, pp 11 - 39 .

وتنوه بالوصف الدقيق الوافي للأقسام الإدارية في سوريا المملوكية الذي يتضمنه مؤلف وترويتس سيرجيفكسي راهب دير (Зосимы) الذي كتبه أثناء رحلته إلى القدس من ١٤١٩ إلى ١٤٢٢ .

«Православный палестинский сборник», т. VHI, СПб., 1889, вып. 3 (стр. 22),

И. Ю. Крачковский: وفي نفس الوقت نلفت الانتباه إلى :

(Избранные сочинения, т. V, М.—Л., 1958, стр 16---17).

١٤ - انظر أسماء الأقاليم في جدول ١ في هذا الكتاب .

الفصل الثانى

الملكية الاقطاعية المدينية فى العصر الايوبى

الفصل الثانى

الملكية الإقطاعية المدينية فى العصر الايوبى

كان الشكل السائد للملكية الإقطاعية للأرض فى مصر فى منتصف القرن الثانى عشر يتميز - بدرجة ما عن الشرق فى العصور الوسطى - بالملكية الحكومية ، فالحكومة لم تقم بدورها العادى كمالك أعلى للأرض فقط بل إنها قامت أيضا بدور المستغل المباشر للمنتجين المباشرين .

وكما يتضح من كتابات المقرئى ، فإن الوسيلة الأساسية للاستفادة من أرض الدولة ، كانت منذ الغزو العربى ، هى التأجير نظير الالتزام ^(١) واحد* من أخبار أراضى مصر بعد الغزو العربى ... إن القائم على خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى القسطنطينية فى الوقت الذى تتم فيه عقود تسلم الأرض (القبالة) .. وكان الناس يجتمعون من القرى والمدن وينهض أحد الموظفين ويعين الأماكن ويعطى شروط مسفقات الأرض ، وبين يديه كتاب الخراج ، وفيه يكتب المبلغ النهائى للدوائر ، وكذلك أسماء من يتقبل هذه الدوائر ، وكانت هذه الدوائر يتم تسليمها لمدة أربعة أعوام مراعىين أن ذلك إمكانية الجفاف والفيضانات الكاسحة وغير ذلك من الكوارث .

وعندما ينتهى هذا الأمر يلحق كل واحد من المتعاقدين بأرضه كى يتسلمها فى إقليمه المحدد، وأن يخلص فى زراعتها وفى إقامة السدود اللازمة سواء بمفرده أو مع

* وكان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الأرض معاشا وكسبا ... أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى القسطنطينية ، فى الوقت الذى تنهى فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج ، يكتبون فيه ما تنتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظم والاستبحار وغير ذلك .

فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبل أرضا وضمناها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانته على أقساط ويحسب له من مبلغ إقامته وضمائنه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج (المقرئى خطط ١ ص ١٥٠) .

أى من أقربائه أو أى شخص يستأجره ، وعليه أن يؤدى الخراج مقسطا عن كل فترة محددة ، وهناك قسبط من المبلغ الإجمالى يخصم بمعرفة ديوان الخراج نظير القيام بإصلاح السدود ، وتطهير القنوات وشق قنوات جديدة .

وبعد ذلك يقول المقرئى « وكما * مر ثلاثون عاما تم إعادة حساب السنة وإعادة توزيع خراج كل الأرض ، علاوة على تحديد المبلغ المطلوب الذى يزيد أو ينقص وفقاً للظروف (٢) » .

وهنا يوضح سيلفستر دى ساسى (٣) أن ثلاثين هذه يجب أن تكون ثلاثة وثلاثين سنة وفحوى كلامه أن جمع الخراج كان يتم وفقا للتقويم القمري الإسلامى ، وليس وفقا للسنة الشمسية القبطية ، وعلى هذا ، فإن كل ثلاثة وثلاثين عاما قمريا تساوى اثنتين وثلاثين عاما شمسيا ، وكل دورة من هذه الدورات تتطلب إغفال عام قمري كي لا يتم جمع مبالغ زائدة من الضرائب (٤) .

وفى العهد الفاطمى ، فإن صفقات الالتزام (٥) ، كانت تعقد فى القصر ** ويكتب المقرئى عن الفترات المبكرة من حكم الفاطميين عن مثل هذا الموضوع (٦) . مرة ثانية فيقول : « من *** المعروف عندئذ أن صفقات الأرض ذات الأسعار المتهاودة كانت تعطى للراغبين من الأمراء والمحاربين والأعيان الساكنين فى الإقليم من الأعراب والقبط وغيرهم » .

وكانت ملكية الأرض عندئذ لا تكتسب - كما يبدو - طابعا طبقييا ، فإعاشة القوات المصرية تتطلب وجود وسائل إنتاج متركزة تماما « وعندئذ **** كان الخراج يلحق

* فإذا مضى ثلاثون سنة ، حولوا السنة وراكو البلاد كلها ومدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها » المقرئى خطط ١ ص ١٥٠ .

** عند المقرئى : كانت فى دار الإمارة بجامع ابن طولون ص ١٥١ - خطط - ح ١ .

*** كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم . (المقرئى ح ١ خطط ص ١٥٧) .

**** فإذا صار مال الخراج بالديوان ، أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن (المقرئى خطط ١ ص ١٥٢)

بالديوان ومن الخزانة يتم توزيع رواتب الفرق المحاربة «^(٧) وتتأكد معطيات المقرئى بأخبار الرحالة الفارسي : ناصر خسرو الذي ارتاد مصر في ١٠٦٤م ، وهو بعد أن يقوم بتعداد أقسام القوات في مؤلفه يقول : وكان هؤلاء المحاربون يتسلمون منحا من السلطان ، وكل واحد منهم يتسلم حسب رتبته جراية ومكافأة شهرية كل الدخول ينقلها من الإقليم عامل الإقليم إلى الخزانة من عام لعام ، ومن الخزانة يسلمون في الوقت المحدد الإعاشة لهؤلاء المحاربين ، وليس هكذا الموظفون ولا الرعية ، الذين ليسوا بحاجة إلى البرهان على مدى معاناتهم من مطالب الجنود^(٨) .

وكان تسليم الضريبة عن الالتزام في العالم الاسلامي وفي عهد تدهور الخلافة ظاهرة ذائعة الانتشار^(٩) .

وتحدد ما يسمى بالالتزام الأرض في مصر الأيوبية بمصطلح الإقطاع^(١٠) ، ففي بداية حكم الأيوبيين تحول « إقطاع الالتزام » إلى الإقطاع الذي يعنى بشكل أساسى المنح الاقطاعية الحربية ، وصيرورة هذه العملية نجد صدى لها عند المقرئى حيث يحتفظ لنا بعدة مقاطع هامة من كتاب ابن المأمون البطائحي مؤرخ النصف الأول من القرن الثانى عشر ، والمسمى « تاريخ » أو مختصر التاريخ ، فنجد لديه أخبارا عن ١١٠٧-١١٠٨م تتعلق بإعادة تقسيم الإقطاعات المصرية حيث يقول ابن البطائحي عن عشية إعادة التوزيع ما يلى^(١١) « كانت * حالة الناس المحاربين والقايضين على الإقطاعات سيئة ، وكانوا يشكون من أن دخولهم من إقطاعاتهم تتناقص ، وأن أحوالهم تزداد سوءاً بسبب دخولهم القليلة ، وأن الأمراء يضاعفون دخولهم من إقطاعاتهم ومن البنود الأخرى ، والضرائب تتجمع في الديوان من كل الأقاليم باستخدام العنف ، ويتوجه موظفو الديوان الرئيسى مرات عديدة إلى الأقاليم لهذا السبب » ثم بعد ذلك ينتقل إلى أن الأفضل وهو الوزير القدير قد أمر أن تنتقل حدود

* وكان اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضررهم من كون إقطاعاتهم قد خس ارتفاعها (خراجها) وساعت أحوالهم لقلة المتحصل منها وأن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها وأن في كل ناحية من القواضل للديوان جملة تجى بالعسف ويتردد الرسل من الديوان الشريف (المقرئى خطط ١ ص ١٥٢) .

هذه الإقطاعات وذلك بهدف إصلاح الأوضاع ، وكان مكتوباً في السجلات المطابقة أن الإقطاع يبقى عند المالكين الجدد لمدة ثلاثين عاماً وبكلمات المقرريين « فإنه * كانت نتيجة لإعادة هذا التوزيع أن أظهر كل مالكي الإقطاعات بما فيهم المحاربون الفقراء رضاهم وتسلمت الإدارات الحكومية ٥٠ ألف دينار » (١٢) .

وبهذه الصورة يتضح أن الملتزمين ابتداءً من بداية القرن الثاني عشر صاروا يتعاملون كالمحاربين ، وسرعان ما تزايد الالتزام من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة .

وانتشار عملية توزيع الإقطاعات بمعنى منح الأرض للقائمين بوظائف المحاربين قد جرى في عهد حكم صلاح الدين ، ويرى سيلفستر دي ساسي ، أن سبب إدخال منح الإقطاعات كان نابعاً من نظام الترك والکرد « ولكن بىكر يستبعد الترك . أما بولياك فيرى أن ذلك كان بسبب عوامل تفاعل المسلمين مع الصليبيين والمغول (١٣) مركزاً بشكل عام على أن تنظيم الإقطاع في مصر استطاع أن ينمو بشكل مستقل (١٤) ، ويشدد « كهن » على أن النظام الأيوبي لم يكن أبداً استمراراً بسيطاً للتراث السلجوقي والزنكي ، معرباً عن فرضية الارتباط الممكن بين ظهور نظام الإقطاع وبين التحولات التي تمت في استخدام المحاصيل وجمع الضرائب ، مما يعنى الانتقال إلى الخراج الطبيعي (المقاسمة) إذ إن المقطع يسعى لكي يضمن لنفسه أعلى معدل من الراحة وتوفر الإمداد بالحبوب ، وهذا كان ضرورياً لتطوير سلاح الفرسان (١٥) . غير أن هذه الفرضية كانت نتيجة لتفحص البحوث الخاصة بتاريخ العراق في عهد البويهيين (٩٣٢ - ١١٠٥م) غير واضحة في اعتبارها ما تؤكد المصادر الأيوبية (١٦) . أما بفرزير فيقتصر على نفى السير الطبيعي لتطورات الإقطاع ، ذلك دون أن يصل إلى أى فهم ملموس بصدد أسباب انتشار الإقطاعات (١٧) .

ودون إنكار لإمكانية التأثير الأجنبي بأشكاله الخارجية المختلفة في التنظيمات المتشكلة ، فإننا نعتبر أن السبب الرئيسى في إقرار نظام الإقطاع في مصر وخاصة في بداية حكم الأيوبيين يكمن في الوضع الاقتصادي المرهق للبلاد .

* فعند ذلك طابت نفوسهم وتزايدوا فيها إلى أن بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه فأقطعوا به وحصل للديوان ما يبلغه خمسون ألف دينار (خطط ١ ص ١٥٣)

فقد كان النزاع الداخلى المتواصل والعمليات الحربية فى عهود أواخر الخلفاء الفاطميين ، تلك التى استفحل أمرها بالتدخل المباشر للصليبيين وفى مقدمتهم ملك القدس : أمالريه ، الذى أجبر مصر على دفع «مجعل» محدد ؛ كانت هى الأسباب الجوهرية التى أدت إلى إفلاس البلاد وتقويض قدرتها الاقتصادية^(١٨) . هذا الإفلاس الذى تعمق بالصراع الحاد بين الجيش والفئات الدنيا من البيروقراطية التى تتكون فى أغلبها من الأقباط .

والمصادر العربية تعتبر أن هؤلاء البيروقراطيين ممثلون لقليل من الأهالى المحليين الذين ظلوا على الإيمان بدينهم المسيحى فى شكل متعصب ، وفى هذه المصادر يهدأ العداء لهم تارة ويهيج أخرى وهى صفة خاصة فى كل تاريخ مصر فى العصور الوسطى^(١٩) .

وكما يبدو فإن استهتار الأقباط - سواء كانوا ملتزمين أو قائمين على بيت المال فى العصر الفاطمى الأخير الذى امتاز بضعفه الشديد - أدى إلى التدهور المتواصل فى الخزانة المصرية^(٢٠) فلم تستطع الحكومة أن ترتب كميات النقود اللازمة ولا السلع الضرورية الكافية لإعاشة الجيش المصرى فى تلك الأيام ، التى كانت تهديدات الاقتحام الجديد فيها للصليبيين تتطلب مزيدا من تعزيزه وتقويته .

فقد سبق لشيركوه ، عندما صار وزيرا ، أن وزع الأرض على الوظائف الحربية ، وكان تحت تصرفه ألفان من فرسان نور الدين ، وستة آلاف من الخيالة التركمانيين المأجورين ، وخمسمائة من المماليك الأتراك والكرد^(٢١) . « ووزع * هو بعض الأقاليم على هيئة إقطاعات وخاصة على محاربيه ، وكان صلاح الدين يعلم بهذه الأعمال^(٢٢) هذا ما يقوله أبو شامة عن ١١٦٨ - ١١٦٩ م .

وطبقا لما طلبه منه نور الدين فإن صلاح الدين قد قدم له فى ١١٧٣ - ١١٧٤ سجل المحاربين مشيرا إلى قيمة إقطاعاتهم^(٢٣) .

* وولى شيركوه الأعمال من يثق إليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد العساكر التى قدمت معه وصلاح الدين مباشر للأمور مقرر لها وزمام الأمر والنهى مفوض إليه . (أبو شامة ح ١ ص ١٥٨)

عندما صار صلاح الدين وزيرا ثم بعد ذلك سلطانا لا منازع له ، نقل تحت رعايته كل فرق شيركوه تقريبا ^(٢٤) وظل عدد القوات يتزايد لحساب الفرق الكردية . وكان القضاء التام على نظام الالتزام ، والقيام بالتوزيع الواسع للملكية الأراضي الزراعية ، هما الأسلوب الوحيد لتأمين حياة الجيش .

وفى خلال إعادة التوزيع الجديد الذى ابتدأ فى ١١٦٩م وامتد لعدة سنوات ، انتقلت كل إقطاعات الفاطميين إلى جنود صلاح الدين وإلى أمرائه وأفراد سلالته الحاكمة « وألغى * صلاح الدين إقطاعات المصريين وانتزع منهم ضياعهم وأعطاها لجنوده » ^(٢٥) .

وتحت سنة ١١٧١-١١٧٢م يواصل المؤلف حديثه عن نفس الموضوع فيقول « إن * * صلاح الدين قد نزع كل إقطاعات العاضد ووضع كل أملاكه السابقة تحت يده » ^(٢٦) .

وقام الحرس السودانى بمقاومة عمليات صلاح الدين ، وتاريخ هذه المقاومة موضع بالتفصيل فى المصادر . فعندما كان صلاح الدين ما يزال وزيرا (وكان ذلك على ما يبدو بمعرفة الخليفة) قامت مؤامرة ضده كان على رأسها الطواشى وناضورجى القصر المسمى نجاح ، وكان للمتآمرين ارتباط بالصليبيين الذين كانوا يهدفون إلى القضاء على صلاح الدين والمقربين منه ، وعندما سمع صلاح الدين بهذا قام بقطع رأس نجاح .

* وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعياتهم وتعيين جامكياتهم (رواتب الجند - المترجم) ورواتب نفقاتهم (أبو شامة ج ٢ ص ٥٤٤ . ويقول المقرئى (سلوك) ١ ح ١ ص ٧٣ . وصل القاهرة موفق الدين أبو البقاء من عند السلطان نور الدين مطالبا لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أخذ .. وحصل من الارتفاع (ما يتحصل من الدواوين - المترجم) فشق ذلك عليه وقال : إلى هذا الحد وصلنا وأوقفه على ما تحصل له وعرض عليه الأجناد وعرفه بمبالغ إقطاعياتهم وجامكياتهم (الرواتب عامة - المترجم) .

* * ثم إن صلاح الدين قطع إقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد ، واستولى على القصور وكل ما بها وبمن فيها قراقوش . أبو شامة ح ١ قسم ٢ ، ص ٤٩٨ وفى ص ٤٥٠ يقول : قال العماد : وشرع صلاح الدين فى نقص إقطاع المصريين فقطع منهم الدابر من أجل من معه من العساكر .

وهذه الحادثة كانت باعثا لهبة حرس الخليفة السود الزنوج ، وحدثت عدة صدامات دموية فى شوارع القاهرة ، انهزم فيها المتمردون وولوا هاربين إلى الصعيد عن طريق النيل ^(٢٧) وأرسل صلاح الدين فى إثرهم أخاه توران شاه فى ١١٧٢م ، وأجبر صلاح الدين كل المتمردين على الخضوع له ، ولكنه اضطر فى السنة التالية إلى الصراع ضدهم مرة ثانية . وفى ١١٧٤م قامت الفرق السوداء فى أسوان بانتفاضة واسعة ، كان على رأسها الحاكم الفاطمى لأسوان : كنز الدولة . وفى نفس الوقت هب أنصار الفاطميين فى القاهرة بقيادة الشاعر عمر ، ولكن الصليبيين المتحالفين معهم قد تأخروا فى إنزال قواتهم بالإسكندرية .

إلا أن كل عمليات الحرس السودانى والموالين الآخرين لإسقاط السلالة الأيوبية قد تم إخمادها بفرق صلاح الدين ، وبهزيمة المتمردين فى أسوان على يد أخيه العادل ^(٢٨) تفسخت بقايا القوات الفاطمية .

وواصل صلاح الدين فى تلك الأيام تشكيل جيشه الجديد ، جاعلا نواة فرقته الرئيسية من الأمراء الأكراد الذين كان من أشهرهم : سيف الدين غازى بن مشتاب ، وأبو منصور جهار كاس ، وصار العنصر التركى منذ ذلك الوقت مهيمن على الجيش فقط ، بل على الإدارة الحكومية أيضا ^(٢٩) وكل هذه الأعمال المرتبطة بتنظيمات الجيش وطرق إمداده ، أضيفت إلى الديوان الحربى ؛ مما أدى إلى ضرورة إنشاء ديوان الإقطاع ^(٣٠) .

والمقرضى يحتفظ بنبذة قيمة من كتاب القاضى الفاضل وزير صلاح الدين تحت اسم متجددات الحوادث ؛ حيث يوضح إعادة تكوين الجيش المصرى (دون اعتبار لوضع المحليين السوريين والفرق المساعدة من البدو والتركمان ...) فيقول : « فى * شهر رجب ٥٧٧ هـ أكتوبر ١١٨١م واصل صلاح الدين تعيين الأشخاص للإشراف على كافة أعماله المتعلقة بالإقطاعات والنظر فى دخولها ، وإنقاصها وزيادتها ، وإعادة

* وكان من متجددات شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة للنظر فى أمور الإقطاعات ومعرفة غيرها ، والنقص منها والزيادة فيها وإثبات المحروم وزيادة المشكور إلى أن استقرت العدة .. (والأرقام طبق الأصل فى النص المترجم) المقرضى خطط ١ ص ١٥٩ .

توزيعها على أتباعه وإعطاء المحروم وزيادة الغنى ، إلى أن استقرت العدة على ثمانية آلاف وستمئة وأربعين فارسا ، أمراء : مائه وأحد عشر أميرا ، وطواشييه : ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون ، وقراغلامية : ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسون » ^(٣١) غير أن هذه الأعداد لا يمكن أن تكون نهائية ، فقد استمر توزيع الإقطاعات بعد عام ١١٨١م ، وواصل عدد القوات ازدياده ، إلى جانب إقطاعات القوات ، فإن الهبات النقدية كانت تدفع لهم أيضا - كما أوضحنا سابقا - هذه النقود التي تشير إلى أن المحافظة على العلاقات النقدية السلعية المتطورة في مصر الأيوبية كانت كافية إلى حد كبير . (واعتمدوا لهم - للمحاربين - المؤلفة) من النقود ٣٦٧.٦٠٠ * ديناراً « ويرى المقرئ أن هذا الرقم - بكل الإحتمالات - كان هو جملة الرواتب السنوية ^(٣٢) .

وهذا الرواتب في بداية حكم الأيوبيين لم تكن تدفع بانتظام ولا بشكل كامل وهذا ما يوضح إفلاس البلاد ^(٣٣) . غير أن الإسراع في إعادة الإصلاح الإقتصادي والزيادة الحادة في إنتاجية الزراعة ضمنا كفاية حاجات الجيش .

وكما في كل مكان في الشرق الأدنى ، في ذلك العهد ، فإن الإقطاعات الأيوبية كانت ذات : مظهرين : فأمراء السلالة الحاكمة والأمراء الكبار في جانب ، والمحاربون البسطاء في الجانب الآخر ^(٣٤) وكان قد سبق لصلاح الدين أثناء عمله وزيرا في مصر ، أن توجه . إلى خليفة نور الدين في ١١٦٩ برجا أن يبعث له أبوه أيوب ، وكل أعضاء أسرته « أرسلهم له نور الدين وأعطاه صلاح الدين إقطاعات في مصر ، وقد تم انتزاع هذه الإقطاعات من أمراء مصريين وأعطى المقربين من أبيه إقطاعات أيضا ثم بعد ذلك زادها لهم ** ^(٣٥) وتسلم نجم الدين أيوب إقطاعات في الإسكندرية ودمياط والبحيرة ظلت معه حتى وفاته في ١١٧٣م بسبب سقوطه من على حصانه ^(٣٦) .

* عند المقرئ خط ١ ص ١٥٩ : والمستقر لهم من المال ٣.٦٧٠.٥٠٠ (لاحظ تصحيح الرقم المترجم)
 ** ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم إليه نور الدين فأعطاهم صلاح الدين الإقطاعات بمصر . ابن شداد : سيرة صلاح الدين - مكتبة صبيح بالقاهرة ص ٢٦١ ويقول ابن الأثير ج ١ ص ١٣٢ وصلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكريا واجتمع معه من التجار خلق كثير وانضاف له من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة ، وفي ص ١٢٩ ثم أرسل صلاح الدين يطلب أن يرسل إليه أخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاهم أهلهم والأمراء الذين معه وزادهم فأزادوا له حيا وطاعة .

وأعطى صلاح الدين لأخيه شمس الدولة : توران شاه فى ١١٦٩ - ١١٧٧٠ م .
إقطاعات فى قوص وأسوان وعيزاب ، لكن توران شاه على ما يبدو قد رفضها ، ففى
بعد (١١٧٨ - ١١٧٩ م) تسلم إقطاع بعلبك^(٣٧) غير أن توران شاه رفض هذا
الإقطاع أيضا فى السنة التالية ، وطالب بأن يكون له إقطاع فى الاسكندرية بدلا منه ،
ووافق صلاح الدين على هذا ، وأعطى إقطاع بعلبك لعز الدين فخر شاه وهو ابن أخيه
وظل توران شاه فى الاسكندرية حتى نهاية حياته^(٣٨) .

وفى ١١٨٠ م وهب صلاح الدين كل إقطاعات الفيوم لأخيه الأصغر : بورى ،
ولكن سرعان ما تم قتل بورى فى إحدى الاشتباكات مع الصليبيين فى ١١٨٣ م -
١١٨٤ م . وعاد الفيوم مره ثانية لإقطاع ابن عم صلاح الدين : المظفر تقي الدين عمر^(٣٩) ،
وأعطى صلاح الدين لابنه الكامل إقطاعات الشرقية^(٤٠) وأعطى ابنه الآخر :
الأفضل الذى كان يقيم فى القاهرة برغم أنه كان متسلما لإقطاع دمشق ، حيث أن
المظفر تقي الدين ، والذى كان فى القاهرة عندئذ ، قد اشتكى للسلطان من أن الأفضل
لا يمتلك الصفات الضرورية كحاكم للبلاد فى جمع الخراج . وفى نفس الوقت فإن تقي
الدين قد خشى إعادة ترتيب الأوضاع فأذعن له ؛ ولكن صلاح الدين استدعاه من
مصر معطيا إياه إقطاعات : حماه ومنبج والمعة وكفرتاب ، وميافارقين ، وجبيل ،
وجور ، علاوة على ضواحيها ، وفى السنة التالية توجه تقي الدين إلى إقطاعاته^(٤١) .

فى ١١٨٥-١١٨٦ م . تسلم الأفضل إقطاعات أيضا عند قلعة عكا^(٤٢) التى
كان قد تم تحريرها من الصليبيين وبعد موت تقي الدين فى ١١٩١ م . قام ابنه
منصور بضم ممتلكات أبيه إليه بشكل مستقل ، معتمدا على قرابته للسلطان مما
أغضب صلاح الدين ، ويفضل شفاعاة العادل فقط ، أعطاه صلاح الدين قسما من
أراضى تقي الدين (حماة - معة - منبج) إلى جانب السلامية ، ونجم^(٤٣) . وكانت
حلب بمثابة إقطاع يخص فى البداية العادل (أخ لصلاح الدين) ثم سحبه منه صلاح
الدين بعد ذلك وأعطاه بدلا منه حران وسومايسات والرها وميا فارقين^(٤٤) ، واستبقى
الحكام الخاضعون لصلاح الدين فى سوريا وشمال العراق أجزاء من ممتلكاتهم
القريبة بمثابة إقطاعات لهم ، أو تسلموا إقطاعات من فى أماكن أخرى ، وكذلك عندما

انهزم الزنكى : فخر الدين زعفران فى (١١٧٤ - ١١٧٥م) قام صلاح الدين بتفتيت ممتلكاته وتوزيعها ، فأعطى حماه إقطاعا لخاله شهاب الدين ، وحمص لناصر الدين بن شيركوه ، أما بارن وهى الإقطاع الوحيد الذىبقى من إقطاعات فخر الدين فقد أقره صلاح الدين لابن عم فخر الدين^(٤٥) . وعندما استولى صلاح الدين على مدينة وقلعة نصيبين منحها إقطاعا للأمير أبو الحجا إسماعيل^(٤٦) وأحد هذه الإقطاعات كان قريبا من سيدون أعطاه صلاح الدين لنصيره ميمون القصرى^(٤٧) أما حاكم « خلاط » الذى استسلم لصلاح الدين ، فقد تسلم « صالة » ، بمثابة إقطاع .

وعندما توجه صلاح الدين^(٤٨) فى ١١٨٩م لإخضاع قلعة شقيف أرنون ، سلمها له الحاكم دون قتال متقبلا اقتراح صلاح الدين باستبدالها بإقطاع^(٤٩) وسرعان ما صار لشقيف إقطاع شمس الدين سنقر الكبير وسيف الدين سنقر المشطوب^(٥٠) . وبعد استيلاء صلاح الدين على بيروت من الأمير حاجى ، من سلالة البختريين ، اعتمد له رئاسة غرب (منطقة جبيل جنوب شرق بيروت) وسلمه سبع قرى كإقطاع يورث^(٥١) .

فى ١١٩٠م وبعد موت حاكم إربيل : زين الدين يوسف ، قام صلاح الدين بإعطائها بمثابة إقطاع لأخيه : مظفر الدين كوكبورى ، وأعطاه أيضا «شهرزوز» بقلاعها ثم بعض الأقاليم الأخرى ؛ على أن يتنازل مظفر الدين عن إقطاعه فى حاران والرها وسومايسات ، وأعطى صلاح الدين كل المدن المتنازل عنها من مظفر الدين بقلاعها إلى تقى الدين علاوة على أملاكه^(٥٢) .

والإقطاع من هذا النوع ، كان يتميز بالوراثة بشكل كامل ، وفى حالة الضرورة يكون لصاحبه مدى الحياة .

وكانت الإقطاعات الكبيرة أحيانا تقسم إلى إقطاعات صغيرة ؛ تخصص للمحاربين البسطاء . وعلى ما يبدو فإن هذا هو فحوى ما ينبغى فهمه من أخبار المقرين عن ملكيات مظفر تقى الدين السابق التنوية عنها ؛ فهو يقول « إن صلاح * الدين أحال إليه إقطاع (حماة والمعة ومنبج) وزاده عليها ميافارقين وضمنه له

* « فأقر صلاح الدين لعلامه بهاء الدين قراقوش التقوى حماه والمعة ومنبج وأضاف إليه ميافارقين فلاحق به أصحابه ما خلا مملوكه زين الدين بوزيا » (المقرينى خطط ٢ ص ٢١٧ .)

ولأنصاره^(٥٣) . وعن هذه الحقيقة نجد أيضا ، ما هو أكثر تحديدا عند ابن الأثير « وكان * مقرررا له (تقى الدين - المؤلفة) أنه سيقوم بتوزيع هذه الأقاليم بمثابة إقطاعات على قواته وأن يرجع عنها ، وذلك لتقوية النضال ضد الفرنجة^(٥٤) » .

وهذا الكلام يبرهن على أن هذه الهبات لم تكن تمنح فقط من السلطان نفسه ، بل كانت أيضا تمنح من أمرائه ، ونحن نلاحظ أن إقطاع جنود صلاح الدين كان موزعا حول ضواحي الإسكندرية وكان يدخل ضمن إقطاع أبيه أيوب بشكل ما^(٥٥) وعماد الدين يقول : إن صلاح الدين أعطى لابن أخيه : حسام الدين عمر إقطاع : نابلس وضواحيها وقرى وحقول قلعتها ، ثم توجه هناك مع قواته^(٥٦) .

والحقيقة الملاحظة عن مثل هذه الأعمال ؛ هي أن السلطان صلاح الدين - بعد هزيمة المسلمين في الرملة ١١٧٧م. قام بنزع الكثير من إقطاعات الكرد كعقاب لهم على هزيمتهم^(٥٧) .

كانت بعض أراضي الشرقية والبحيرة موهوبة بمثابة إقطاعات للبدو من قبيلتي جزام وصابلي اللتين كانت فرقهما تدخل أيضا في عداد الجيش النظامي ، غير أنه قد تم نزع هذه الإقطاعات منهم عقابا لهم على عقد صفقة سرية من الحبوب مع الصليبيين^(٥٨) .

وكما يلاحظ «كهن» بحق ، فإن هذا النوع من الإقطاع لم يكن وراثيا ، بل كان في حالات نادرة إقطاعا مدى الحياة فقط^(٥٩) .

وكان الأمر في سوريا على خلاف ذلك ، متفقا مع ظروفها القديمة الراجعة إلى الزنكيين حيث كان الإقطاع بها لم يكن للوجهاء والأعيان فقط ؛ بل كان أيضا للناس العاديين في عهد صلاح الدين ، الذي واصل توزيع الإقطاعات بشكل وراثي ، وأبو

* سار تقى الدين من الشام إلى البلاد الجزرية (الجزيرة - المترجم) وكان قد أقطعها إليه عمه صلاح الدين ... مضافا إلى ما كان له بالشام وقرر معه أن يقطع البلاد للجند ويعود وهم معه ليتقوى بهم على الفرنج . ابن الأثير ج ١٢ ص ٦٢ .

شامة يقول عن نور الدين زنكى : « وكان * من أحسن الاتفاقيات المنعقدة بينه وبين جنوده ، تلك التى تنص على أنه إذا مات أحد منهم فإن ابنه يأخذ نصيب أبيه فى الإقطاع ، فإذا كان الابن بالغاً فعليه أن يدير نصيبه بنفسه ، أما إذا كان صغيراً فيتم تعيين أحد الأوصياء الأمناء عليه ليديره له حتى يبلغ ، والمحاربون يقولون : هذا الإقطاع لنا ولأطفالنا يرثوه عن آبائهم إذا مامتنا ؛ وكان هذا هو السبب الرئيسى فى جلدتهم ومثابرتهم أثناء المعارك » (١٠) ويعبر أبو شامة أيضاً عن مثل هذا المعنى فى كلامه عن صراع قوات نور الدين مع الفرنجة فيقول : « فإذا : شخص ما قتل ، فإن إقطاعه ينتقل إلى أبنائه من بعده ، فإذا لم يكن له أبناء فينقل إلى أى شخص آخر من أفراد عائلته ، كما لو أن الجيش فى هذه الحالة لم يفقد إلا شخصاً واحداً » (١١) .

ويطبق «بفرنير» كلمات أبو شامة على مصر وفق هواه ، غير منتبه إلى الخلاف بين نوعى الإقطاع : واصلاً إلى استنتاج مؤداه : أن الإقطاع المصرى كله كان يقوم على الميراث ، حتى فى عهد صلاح الدين ، الذى يتضح مما أوردناه سابقاً أنه لا يتفق مع هذا الاستنتاج (١٢) .

والمصادر لا تحتفظ تقريباً بمعطيات عن الحياة الاقتصادية للإقطاعات المصرية فى ذلك العهد ، ما عدا بعض الأخبار ذات القيمة الكبيرة التى تتضمنها مذكرات الفارس الإسلامى : أسامة بن منقذ ، وهى تتعلق بالأوضاع فى سوريا ، كان رأس عائلة أسامة يختص بقلعة شيزار وقراها المجاورة الواقعة على نهر ساروط شمال حماة وكانت ممنوحة بمثابة إقطاع لجده الأكبر فى عشرينات القرن الحادى عشر وهو يسمى أبو المتوج ، من سلالة حكام حلب المرداسية .

كانت رفاهية الإقطاعيين تتم على حساب استغلال الفلاحين ، فعائلة المنقذ كانت تمتلك الكثير من الخدم ، وكان والد أسامة نفسه عاشقاً للصيد ، ولديه الكثير من الصقور والكلاب والصائدين المحترفين ولديه أيضاً سلحدار واصطبيل ، وكذلك عدد من

* ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلف ولداً أقر الإقطاع عليه فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق فيه فيتولى أمره إلى أن يكبر فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب . أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين : ج ١ قسم أول ص ٢٠ .

العبيد^(٦٣) . « كان * مع أبي أربعون إنسانا من الأرقاء المقربين له ، ممن يمتلكون الخبرة فى الصيد »^(٦٤) ويحكى أسامة عن إحدى الرحلات من شيزار^(٦٥) فيقول كانت معه قينة خاصة مسند إليها الأعمال المنزلية ، وكان الحرفيون يصحبونه سواء كان فى المدينة أو فى الريف .. « عندما ** خرجنا من بوابة المدينة للصيد ، كان معنا - كما يقال فى كتب الإرشادات - كل المعدات اللازمة للصيد ، حتى الشبكات والأقواس والجواريف والخطاطيف للطرائد »^(٦٦) وفى موضع آخر ينوه أسامة بن منقذ بالناس *** « الذين يصنعون الطوب لإقامة البيوت فى إحدى القرى لواحد من أعمامه »^(٦٧) ويحكى أسامة أن الفلاحين من القرى الواقعة فى ضواحي شيزار ، قد سلموا لأبيه الصقور والبواشق ليصطاد بها وهو يقدم عبارات الفلاحين الموجهة لأبيه : « يا سيدنا **** - قالوا له نحن تركنا أجرا وحقولنا وشغلنا من أجلك ، لأننا كم نود ونشتهي أن تأخذ منا كل الذى نسطاده »^(٦٨) . وعندما أعلن مرشد منقذ عن السعر الغالى لطيور الصيد ، « أعداد ***** الصيادين تزايدت ، وصار لدينا أعداد هائلة من الطيور لم تتطلق بعد وكأنها الدجاج »^(٦٩) . وهنا توجد كلمات مثل « أجر » الفلاحين ، وهى تدل على أنهم بجانب عملهم الأساسى كفلاحين ، كانوا يشتغلون بأعمال ما فى حرفة البناء ، وكانت قوات المناقذة تتكون من الفرسان الخيالة والمشاة المدنيين وتتضمن عددا من العبيد والمسجونين الذين أطلق سراحهم^(٧٠) . ويستمر أسامة يحكى عن الصيد الذى اشترك هو فيه مع أبيه ، ويلاحظ أن مع أبيه عشرين رجلا تقريبا من وجهاء الأرمن^(٧١) وينوه أيضا بهذا الخصوص عن وجود أكراد ومغاربة^(٧٢) .

* وكان مع والدى رحمه الله أربعون رجلا من التابعيين له من الناس نوى الخبرة فى الصيد ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢١٤ .

** كنا نخرج من باب المدينة إلى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد حتى الشباك والفؤوس والمجارف والكلايب ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهن والفهود والكلاب . المصدر أعلاه : ص ٢١١ .

*** فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارة بيوت فى قرية عمى المصدر السابق ص (٢٢٣) .

**** يامولانا .. نحن قد بطلنا معاشنا وزراعتنا فى خدمتك ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمننا نعرفه لا تجاذب فيه فقرر ثمن الباز الفرخ المصدر السابق ص ٢٠٠ .

***** فكثرت الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج ، فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر من كثرتها . الاعتبار ص (٢٠١) .

والمناقذة لم يُقطعوا جنودهم أرضا ، بل كانوا يعطونها لهم كهبات ^(٧٣) . ومذكرات أسامة تعطى بعض التصورات عن العلاقات التجارية الخارجية . فمن المعروف أن مرشد والد أسامة أرسل بعض المقربين إليه إلى بيزنطة لابتياح كلاب للصيد وصقور فقدمها له أيضا أمراء قليقله الأرمينية ^(٧٤) ويكتب أسامة في نهاية كتابه : أن والده « قد * أرسل له خيلا وأريجا ونسوة مصريات » ^(٧٥) وهذا يدل على وجود علاقات تجارية للإقطاعات السورية ليس مع مصر فقط بل مع البدو ، والهند البعيدة .

والحقائق القليلة التي تتضمنها مصادرها ، تسمح لنا بالحكم على السياسة الداخلية لخلفاء صلاح الدين ، فقد أبقوا على ملكياتهم الشخصية وأعادوا توزيع الإقطاعات على أقاربهم ، ولكنهم وهبوا أراض لتوابعهم ؛ فابن الأثير يلاحظ في ١١٩٣-١١٩٤م أن أخا صلاح الدين : العادل قد أبقى إقطاعه السابق في مصر ^(٧٦) « وصار ** العادل يشرف على أعمال الدولة المصرية في تغيير الإقطاعات ^(٧٧) هكذا كتب المقرئ عن ١١٩٥-١١٩٦م . أما عن ١٢٠١م . فينوه ابن الأثير بواحد يسمى زين الدين فراجة قد وهبه الأفضل « صرخد » بمثابة إقطاع ^(٧٨) .

ويعود ما أخبرنا به ابن الأثير إلى ذلك العهد أيضا ، عندما يتكلم عن اعتلاء العادل لعرش مصر « والجنود *** كانوا ينازعون بعضهم الحق في الإقطاع ، والواحد منهم حال دون الآخر في امتلاكه ^(٧٩) والحديث هنا يدور عما ينبغي افتراضه من صراع بين أنصار العادل وأنصار الأفضل بن صلاح الدين ، وابن الأثير يقدم أيضا ماله علاقة بهذا الموضوع في ١٢٠٦ - ١٢٠٧م . حيث يقول إن مظفر الدين سنقر الملوك السابق للخليفة البغدادى ، قد تسلم من العادل إقطاعا ذا شأن بمصر ^(٨٠) وفي ١٢١٢-١٢١٣م . نجد ابن الأثير يتكلم عن أمير من أمراء العادل انتزع قلعة الكوكب وهي غير بعيدة عن الأردن وقد كانت جزءا من إقطاع هذا الأمير ^(٨١) . ويحكى

* وينفدون الكلاب الزغارية ، وينفذ لهم هو الحُصن والطيب ومن كسوة مصر - الاعتبار أسامة بن منقذ (ويلاحظ أن كلمة كسوة في الأصل العربى قد قرئت نسوة عند المؤلف ... المترجم).

** وأخذ العادل في إصلاح أمور مصر ، والنظر في ضياعها ورباعها ... سلوك ١ ج ٢ ص ١٥٨

*** وحاqq « السلطان » الجنود في إقطاعاتهم واعترضهم في أصحابهم ومن عليهم من العسكر ، فتغيرت لذلك نياتهم - ابن الأثير ح ١٢ ص ١٥٦ .

المقریزی : أن أميرا يدعى ابن قزلة قد استبقى الفيوم كله بمثابة إقطاع له ^(٨٢) كان ذلك في عهد السلطان الكامل . وقام الأشرف موسى ابن العادل في ١٢١٨ م . بإهداء رأس العين لحاكم مردين ^(٨٣) .

وفيما يتعلق بسنة ١٢٢٥ م . يحكى ابن الأثير عن ذلك الأمير المسمى بدر الدين لولو « وهو من زنكي الموصل ، وكان قد منح أحد الخاضعين السابقين له إقطاعا فأخذه وصار مواليا لزنكي سنجار ، ولكنه بعد ذلك عاد إلى حليفه السابق ^(٨٤) . ويخبرنا أيضا عن ١٢٢٤ م . : أن العادل قد خصص للأمير شهاب الدين غازي إقطاع مدينة خلاط المتاخمة للأقاليم الأرمينية ، وبعد ذلك زاده إقطاع ميفارقين ، وخان وجبيل وجور ^(٨٥) .

وابن الأثير في ١٢٣٠ - ١٢٣١ م . يتحدث عن واحد من الأمراء العاملين لدى السلطان الكامل تسلم إقطاع مدينة سلمية ^(٨٦) .

ومعروف أن السلطان صالح نجم الدين أيوب ألقى في السجون بكثير من الأمراء المشتبه في ثقتهم ، وذلك عند اعتلائه العرش ، ثم قام بإعادة توزيع إقطاعاتهم على المماليك ^(٨٧) .

وقلعة بانياس الفلسطينية التي كان المعظم عيسى ، وهو ابن أخ لصلاح الدين سبق التنويه عنه ، يمتلكها بمثابة إقطاع في ١٢١١ - ١٢١٢ م . ، قد تم منحها من بعده لأخيه العزيز عثمان ، وبعد ذلك انتقل حق إقطاع هذه القلعة لابنه ^(٨٨) .

ومعطيات ابن الأثير وأبو شامة تعطي الدليل على أن الإقطاع الأيوبي كان ملكية خاصة للأرض لإقطاعيين مستقلين ، فأبو شامة يتكلم في (١١٨٥ - ١١٨٦ م .) عن توزيع صلاح الدين لإقطاعات على جنوده ، فيقول : « إن الأمير سيف الدين على وأمراء آخرين توجهوا للنزهة في أراضى أحد القضاة الممنوحة له ، فكان * سياق

* وسير الأمير سيف الدين على ابن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري ومعه الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية وجماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر وأعمالها لا ستفتاح قلاعها واستغلال ضباعها ونصب الجسر ، وملك الأمر . . . وعرض ذلك على رأى الفقيه العالم فخر الدين ... فصدق المشير بذلك ، وقال هذا ممكن ولا يتعذر ويتيسر ولا يتعسر ... أبو شامة ج ٢ ص ٦٢ .

حديثهم معه عن استخلاص الدخول من قراهم وإقامة السدود والأشراف على قطع الأرض^(٨٩) ، ويشير أبو شامة في مكان آخر إلى أن مالكي الإقطاعات يكونون عادة في إقطاعاتهم في مواسم الحصاد ، وهذا ما يلاحظه (جب) أيضا عند الكلام عن المتأمرين الفاطميين في ١١٧٤م ، الذين ضموا إلى هبتهم المحاربين الموجودين في إقطاعاتهم في ذلك الوقت تماما ولم يكن وجودهم هناك صدفة^(٩٠) .

ويكتب ابن الأثير تحت عام ١١٩٩ عن عودة أحد أبناء صلاح الدين مع قواته من سوريا إلى مصر فيقول : « وجنود الأفضل* قد انفصلوا عنه في مصر ... وتوجه كل منهم (الجنود - المؤلف) إلى إقطاعة لكي يرمى بهائمهم^(٩١) .

وكان من الممكن أن يكون الإقطاع صغيرا جدا فمعروف أنه في أربعينيات القرن الثالث عشر كان قد تم تقسيم أملاك إقطاع بالفيوم يحتوى على عدة قرى على اثنين أو على مجموعة كاملة من المحاربين ؛ كان على رأسها أحد الأمراء^(٩٢) ومن الأمراء الذين تسلموا إقطاعات في منيا البطس ، ** كان الأمير المعروف : ركن الدين بيبرس الذي شغل فيما بعد وظيفة سلطان مملوكي^(٩٣) .

والإقطاع الواحد ؛ كان يحتوى أحيانا على قطع موزعة في أماكن مختلفة ، فعلى سبيل المثال : كان إقطاع رجل يسمى ابن مهران يتوزع على ستة أقاليم بالفيوم .^(٩٤) وتجزئ الإقطاع على الأقاليم المختلفة لم يكن هكذا مجرد صدفة ، ولكنه كان يتم بأيدي الحكومة ، بغرض يهدف إلى تلافى القوة المفرطة للإقطاعيين الكبار ، وبشكل كامل ؛ فإن الملكية الحكومية للأرض قد تم القضاء عليها بصورة جوهرية في عهد صلاح الدين ، وفقدت الحكومة حق الاستغلال المباشر للفلاحين .

* وكان عسكريه بمصر ، قد تفرق من الأفضل ... فصار كل منهم إلى إقطاعة ليربعوا بوابهم . ابن الأثير ج ١٢ ص ١٥٥ .

** منيا البطس ، عبارة عن بلدة كبيرة تشتمل على نخل وسنط وهي بحرى مدينة الفيوم بينها وبين مدينة الفيوم مسافة أربع ساعات جارية في إقطاع المقطعين وهم ... والأمير ركن الدين بيبرس خاص الترك الكبير ، القابلسى ص ١٦٠ - ١٦٤ .

يتلخص جوهر التغييرات الجارية في عهد صلاح الدين في العلاقات الزراعية عند المقریزی : « وكان * خلفاء بنى أمية والعباسيين يوزعون أرضا من أرض مصر على أقربائهم ، والوضع عندئذ لم يكن مشابها ما يحدث الآن ولكن كان إيراد الخراج من أرض مصر يوزع على هيئة عطاءات للجنود وأية نفقات أخرى ، أما ما يتبقى فيضاف إلي الخزانة ، غير أن ما يوزع من الأراضي كان يبقى تحت أيدي أولئك الذين تم توزيعه عليهم ، وفقط عندما حل عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب ؛ فإن كل أراضي مصر قد انتقلت إلى السلطان وأمرائه وجنوده ^(٩٥) . »

ويشير أيضا في مكان آخر إلى « ** معروف أن حكومة الفاطميين السابقة لهؤلاء لم يكن لديها إقطاع في مصر شبيه بهذا الذي يحدث الآن في الدولة التركية ^(٩٦) . »

وكانت ملكية الأرض في عهد الأيوبيين تقوم في أغلبها على النظام الفئوي الهرمي الشبيه في أساسه بالأشكال السائدة في أوروبا الغربية في العصور الوسطى . ^(٩٧) وكانت الفئات الحاكمة تتكون في أغلبها من الأعيان المحاربين الذين ينحدرون من الأصل الكردي التركي .

والنظام الإقطاعي الحربي في مصر في ذلك العهد شأنه في ذلك شأن دول الشرق الأدنى الأخرى في العصور الوسطى ؛ كان يتميز تقريبا بالغياب الكامل لحيازة الملكية الخاصة للإقطاعي (وذلك فيما عدا بعض الاستثناءات سنتكلم عنها فيما بعد) .

كان الدخل المستخلص من الأقاليم الممنوحة (متوسط القياس السنوي) يسمى « العبرة » وهذا هو ما تدل عليه الوثائق الملائمة . فالإقطاعي الأيوبي لم يكن يتمتع -

* النص بتصريف فهو عند المقریزی يبدأ « وأعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الأمراء أو العمال وللأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم ، وكان يقال لذلك في صدر الإسلام العطاء ... وما ذلك الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم فغير هذا الرسم ، فرقت الأراضي إقطاعات على الجند ... وأول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحق بن العباس الطوسي وزير البرشلان بن داود بن ميكال واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين وأربعمائه إلى يومنا هذا (المقریزی خطط ١ ص ١٧٦) .

** وأعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية (المقریزی .. خطط ١ ص ١٥٦)

كقاعدة بالحصانة الضريبية غير أنه كمالك كان يمكنه أن يحد من تدخلات موظفي الحكومة في أعمال إقطاعه .

والنابلسي في كتابه يحكى أن العادل اقترح على صلاح الدين عند توزيع الإقطاعات في مصر ؛ أن يأخذوا العشر من كل ألف دينار من دخل الإقطاعي ولكن صلاح الدين رد عليه بقوله : إن هذا قليل جدا ^(٩٨) وانتهت هذه المحادثة بما لم نعرفه ، وبدرجة ما فإن الحكومة في العهد الأيوبي تراجعت عن أخذ العشر من دخل الإقطاع . أما عن افتقاد الحصانة الضريبية على الأراضي الإقطاعية ؛ فإننا نجد ما يشير إلى هذا في إحصاء النابلسي المتضمن لأنواع الضرائب سواء كانت نقدية أو عينية (بما فيها الضرائب عن الإقطاعات) وهي تستند إلى النقل عن الديوان الحكومي ^(٩٩) .

كان استثناء الإقطاعي من التوريد للخزانة يعنى منحه امتياز الحصانة ، وكان هذا ظاهرة استثنائية لأولئك الذين يلحون في طلب السماح لهم بذلك ؛ « * فطبقا لما يقرره الديوان ، كان من الممكن للمقطع أن يتحرر من أداء العشر والضرائب المستحقة عليه » . ^(١٠٠) .

وكان الإقطاعي أيضا لا يتمتع بالحماية القضائية ^(١٠١) ، وكانت صلاحيات الإقطاعي ذي الرتبة الأعلى أوسع بكثير من الإقطاعيين البسطاء ، كما لاحظنا سابقا ، فكانت إقطاعاتهم إما مدى الحياة أو وراثية وكانوا يستطيعون استبدال إقطاعاتهم بكامل رغبتهم ، ونزع إقطاعاتهم في العهد الأيوبي لم يكن مسموحا به .

والحكومة حرصت على أن توظف المالك الكبير للأرض في المجال القومي ، مما يؤكد رغبتها في إعطائه الحق في المشاركة في قسم من الإنتاج الفائض للفلاحين وأيضا الحق في المحاكمة وفي صك النقود .

والملكية الخاصة للإقطاعي على رقاع أرضه كانت محددة بحق الملكية ، وتبعية المنتجين المباشرين .

* فحكم الديوان حينئذ بأن يطلق جامعياتهم من نسبة المتحصل في جميع الإقطاع - ابن ممتي . قوانين الدواوين ص ٢٧ .

وهذه الملكية غير الكاملة ، إلى جانب هرمية النظام الطبقي (هراكية) ثم الارتباط بوظيفة حربية ، وكما هو معروف ، فإن هذه الخواص هي الخواص القانونية النموذجية للملكية الأرض الإقطاعية (١٠٢) .

وبشكل عام ، كانت جملة حقوق أصحاب الإقطاعيات الأيوبية على الأرض وخاصة ذلك الإقطاعي ذو الرتبة العليا تفوق بكثير - دون أدنى شك - حقوق الملتزم في العهد الفاطمي ، وليس العكس كما يعتقد «بيكر» (١٠٣) ، وهذا ما تؤكد كل التطورات البعيدة المدى في النظام الإقطاعي .

أما عن توزيع الأراضي الحكومية كنوع من الإقطاعيات ، فينبغي الانتباه إلى أن الأقاليم الواقعة تحت التصرف الشخصي لرئيس الدولة كانت في معظم الأحوال تصبح في نهاية حكمه غير موجودة . وفي قصة حياة صلاح الدين « لابن شداد نجد الحساب التالي » * ولم يبق لصلاح الدين بعد ذلك في الخزانة من الذهب أو الفضة شيء ، غير سبعة وأربعين درهما ناصريا ، ودينارا ذهبيا سوريا (نسبة إلى مدينة صور - المترجم) واحدا وذلك من كل الدخول في مصر وسوريا والأقاليم الشرقية واليمن ، ولم يستبق أي أمتعة مطلقا ولا منازل ولا أراض ولا حدائق ولا حقول ، فقد كان شعارا مفعما في كرمه الزائد » (١٠٤) .

والبعض من أعضاء السلالة الحاكمة كان لديه أملاك خاصة تظهر في المصادر تحت مصطلح « خاص » .

* لما مات (صلاح الدين - المترجم) لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ودينارا واحدا ذهبيا سوريا ، ولم يخلف ملكا لادارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة .. فإنه كان بإخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما ، وما كان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، ابن شداد ج ٢ ص ٢١٧ .

ويقول ابن الأثير ج ١٢ ص ٩٦ : وأما كرمه (صلاح الدين - المترجم) فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرج منه ويكفي دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري وأربعين درهما ناصرية .

وهكذا : فإن أبا شامة يكتب عن ابن أخ صلاح الدين : المظفر تقي الدين عرقيقول « قد أهدى السلطان إقطاعا لتقى الدين فى الإسكندرية ودمياط وأعطاه فى خاص « البحيرة والفيوم وبوش ... وفيما بعد أعطاه بدلا من بوش سمنود* ، وحواف رمسيس (١٠٥) » وعندما تم استدعاء المظفر تقي الدين بعد ذلك من مصر - كما أوضحنا سابقا - أجبروه عن التنازل عن ممتلكاته بما فيها الخواص المصرية (١٠٦) .

ويكتب ابن شداد عن ذلك فى ١١٩١ فيقول : «** إن صلاح الدين قدم لأخيه العادل الشرقية بمثابة إقطاع بشرط أن يتنازل عن بعض إقطاعاته السورية وعن نصف خواصه المصرية » (١٠٧) . أما عن المحافظة على النزوع إلى التوزيع المركزى للريع الإقطاعى : فإن كتابات أبى شامة والمقريزى تشير إلى أن أراضى ديوان الأسطول الذى أنشئ للمرة الأولى فى (١١٧٦ - ١١٧٧ م .) وللمرة الثانية فى (١١٨١ م .) أى أن كليهما كانا فى عهد صلاح الدين ؛ فالى جانب إعادة تنظيم القوات البرية ، تم تجديد الأسطول المصرى الذى كان قد تدهور نهائياً ، وتحددت كيفية الإنفاق عليه علاوة على تخفيض أراض فى طنبدى وأشنين فى صعيد مصر ، وأشياء أخرى تم وضعها جميعا تحت الإدارة المباشرة للموظفين الحكوميين (١٠٨) . ومن المحتمل أيضا أن التخفيضات التى ترد عند النابلسى عن ديوان أراضى الأوسيه تتعلق تماما بممتلكات هذه الإدارة (١٠٩) .

وتدل بعض المعطيات غير المباشرة على أنه إلى جانب الإقطاع فى العصر الأيوبي فى مصر، كانت هناك أراضى قليلة ، بقيت من العهد السابق تسمى أراضى « الملك » . والمقريزى يحدد أراض الملك بأنها تلك التى يمكن أن تباع أو تهدى أو تنتقل بالوراثة ، وهذا النوع من الأراضى ظهر عن طريق بيع الأراضى الحكومية (١١٠) . غير أنه - من المحتمل - أن يكون هذا المصطلح « الملك » قد ظهر فى مصر منذ الغزو العربى شأنها

* وأقطع السلطان تقي الدين الإسكندرية ودمياط وجعل لخاصه البحيرة والفيوم وبوش ثم عوضه عن بوش سمنود وحواف رمسيس . أبو شامة ح ٢ ص ٥٢ .

** ثم قرر السلطان منح أخيه العادل أن يأخذ هو تلك البلاد وينزل عن إقطاعاته بمصر ونصف خاصه ففعل واستزاد . أبو شامة ح ٢ ص ١٩٧ .

فى ذلك شأن البلدان العربية الأخرى . وأول ما يعنيه هذا النوع من الأرض هو تشابهه مع مثيله فى أوروبا الغربية (فى معناه الأساسى) ؛ مما يعنى وجود لحظات انطلاق فى تحلل الملكية العامة للأرض وتطور مبدأ عدم المساواة فى ملكيتها (١١١) .

وعن هذه الملكية نستطيع أن نقول : إنها تعنى التماثل مع وضعها القانونى والتفاوت فى المضمون الاجتماعى (١١٢) .

والمقرئى يشير إلى وجود هذا النوع من « الملك » فى أخباره عن إعادة تقسيم الإقطاعات المبكرة « إذا كان * لديه ملك ، فإنه يبقى له ولا يدخل ضمن إقطاعاته وصاحبه يستطيع بكامل رغبته أن يبيعه أو أن يعرضه للإيجار » (١١٣) .

ويكتب أيضا المقرئى عن استيلاء أصحاب الأملاك على أماكن (أراضي) مملوكة مجاورة لدوائر من الأراضي الحكومية وذلك فى بداية القرن الثانى عشر (١١٤) .

وبدرجة ما ؛ فإن هناك أماكن أخرى فى كتاب المقرئى تتضمن العديد من المعلومات عن ذلك النوع من « الملك » منها ما يقول : إن الحراس الفاطميين قبل هزيمتهم على يد صلاح الدين كانوا يقتنون فى القرى المصرية أراض خاصة بكل واحد منهم موضوعة تحت تصرفه بالكامل (١١٥) .

« والملك » هنا كما يبدو ، ولأول وهلة من الأمثلة المقدمة ؛ يقوم تحديدا ، ليس كملكية فلاحية ولكنه كان شكلا من الملكية الخاصة الإقطاعية للأرض ، أكثر تطورا بالمقارنة مع الإقطاع .

وينبغى الافتراض بأن الكلام الذى يدور عن « الملك » عند ابن المتوج ؛ مؤلف العهد المملوكى المبكر ، وفيه يثبت « أن المظفر تقي الدين عمر كان قد اشترى جزيرة الروضة فى النيل ، وبعد أن صارت ملكا له وهبها للوقف * (١١٦) .

* من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع ، وهو محكم : إن شاء باعه وإن شاء أجره - المقرئى خطط ١ ص ١٥٢ .

* * قال ابن المتوج : ثم اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن أيوب جزيرة مصر ، المعروفه اليوم بالروضة ، .. وإنما سميت بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها ... ووقف (على المدرسة النقدية) الجزيرة بكاملها « - خطط ح ٢ ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

وللأسف ، فإن المعطيات القادرة على تمييز حقيقة هذا النوع من الملكية (الملك) في هذه الفترة غير موجودة في المصادر التى تحت يدينا .

لقد كان النوع السائد من الملكية المدينية للأرض الزراعية فى العهد الأيوبي يتكون فى أغلبه من الإقطاع . أما أراضى الأنواع الأخرى فكانت قليلة الأهمية .

ويتطابق مع هذا كون « الفارس الخيال » المنحدر من الأصول الأجنبية - مالك الإقطاع - صار منذ ذلك الوقت هو الشخصية النموذجية للمجتمع الإقطاعى المصرى .

هوامش الفصل الثاني

- ١ - عن مصطلح « القبالة » انظر. А. Я. Якубовский الإيجار المستخدم في العراق في القرن الثامن : «Советское востоковедение», IV, М. — Л., 1947, стр. 174—175.
- ٢ - المقرئى خطط ١ ص ١٣١ - ١٣٢ .
- ٣ - Silvestre de Sacy, Sur la nature .., p 196 .
- ٤ - وصف حساب هذه الدورة عند المقرئى مكرس له فصل خاص خطط (ص ٢١ - ٥٩) وانظر أيضا
Silvestre de Sacy, Sur La nature.... , pp 200 - 201 .
- ٥ - المقرئى خطط ١ ص ١٣٢ .
- ٦ - نفس المصدر ص ١٣٨ .
- ٧ - نفس المصدر ص ١٣٨ .
- ٨ - ناصر خسرو : سفرنامه :
Е. Э. Вертельса, М.—Л., 1933, стр. 114.
- ٩ - انظر على سبيل المثال :
А. Е. Бертельс, *Насир-и Хосров и исмаилизм*,
М., 1959, стр. 29; Б. Я. Шустер, *Шестой том истории Ибн Мискавейха как источник по социальным отношениям в позднем халифате*, —
«Краткие сообщения ИНА АН СССР», вып. 47, М., 1961, стр. 86.
- ١٠ - المقصود بهذا المعنى فى رأينا ، هو الاصطلاح المستخدم عند المقرئى فى عدة أماكن من
الخطط :
- (٢ - ص ٢٤٤ ، ٣٠٩ ، ٣٤٠ ، ٣ - ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٤ - ص ٧٣) ، وعن معنى هذا
المصطلح - الإقطاع - فى الفترات الأولى من حكم الخلفاء
انظر
Cl . Cahen, L'evolution de L'iqta, pp 26 - 30
- ١١ - المقرئى خطط ١ - ص ١٢٣ .
- ١٢ - المقرئى خطط ١ - ص ١٢٣ .
- 13 - Silvestre de Sacy Sur la nature, p. 201; C. H. Becker, Islamstudien, Bd I, S. 247; A. N. Poliak, Some notes on the feudal system of the mamluks, - IRAS . 1937; p 96 .
- 14 - A. Poliak, The Ayybid Feudalism, p. 431
- 15 - Cl. Cahen, L'evolution de L'iqta, p.52 .

16 - Cl. Cahen, Quelques problèmes économiques et fiscaux de L'Iraq Buyide d'après un traité de mathématiques, - (Annales de L'Institut d'Études Orientales), X,Alger, 1952, pp. 347 - 348 .

17 - С. Б. Певзнер, Икта..., стр. 186.

١٨ - نجد صدى لحوادث هذه السنوات في عديد من المصادر ، وخاصة الفصل الأول من كتاب ابن شداد ومذكرات أسامة ابن منقذ وأيضا أبو صالح .

١٩ - وهكذا .. فإن الخليفة الفاطمي : المعز (٩٥٣ - ٩٧٥) كان غير واثق في القبط ، فلحال الإشراف التام في جمع كل الضرائب الحكومية ، من الوزير يعقوب بن يوسف إلى شخص يدعى عسلوج بن حسن ، ويبدو أنه كان أحد مساعديه « وقبضوا بأيديهم على كل أحوال الموظفين والمتزيمين » المقرئ : اتعاط الحنفا .. بلخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .
وعن المتاعب القاسية التي تعرضوا لها في عهد الخليفة : الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢٠) ، انظر :

Severianus, Les coptes dans L' Egypte musulmane, - (Etudes méditerranéennes), Paris, 1959, No. 6, p. 72) .

٢٠ - والكنوز الهامة في القصر الفاطمي ، كان قد تم اختلاسها قبل سقوط هذه السلطة لوقت طويل ، انظر .

(P. Kahle , Die Schatze der Fatimiden - ZDMG, Bd 89, 1935 , S. 329 - 331) .

21 - H. A. Gibb, Studies on the civilization of Islam . The armies of Salaadin London, 1962, p.74 (Gibb, The armies of Saladin, pp . 74 , 82) وأيضا

٢٢ - أبو شامة ح ١ ص ١٥٩ .

٢٣ - نفس المصدر ص ٢١٩ والمقرئ (سلوك) ١ - ح ١ ص ٥٢

٢٤ - الأمراء التركان وبعض أمراء نور الدين الأتراك ، تم استبعادهم بفرقتهم من مصر ، على ما يبدو بسبب عدائهم لصالح الدين ، إلا أن صلاح الدين استخدم الفرسان التركمانيين المنحدرين في أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، خاصة في الهجوم على قوات القرن التركمانية التابعة لرتشارد الأول الانجليزي أثناء تفهقها من القدس . (انظر : .

Gibb, The armies of Saladin, pp . 74 , 82) .

٢٥ - أبو شامة ١ - ص ١٧٨

٢٦ - نفس المصدر ص ١٩٦

٢٧ - الصعيد : صعيد مصر ومعناه بالعربية مصر العليا التي تشمل أقاليمها الجنوبية من القاهرة حتى جنادل أسوان ..

٢٨ - وعن هذه الحوادث انظر على سبيل المثال : ابن شداد ص ٣٧ ، ٢٦٩ ، وابن الأثير الجزء ١٢ ص ٢٧٢ ، وأبو الفدا ج ٢ ص ٥٩ ، وابن خلكان ٢ - ص ٢٧ ، ٥ - ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، وابن خلدون ٥ - ص ٢٨٩ ، وابن تغربردي (النجوم) ٦ - ص ٧٨ ، والمقرئ (خطط) ٣ - ص ٢٩ ،

И. Ю. Крачковский, *Омара ибн Абу-л-Хасан ал-Йемен*, — Избранные сочинения, т. II, М.—Л., 1956, стр. 462—464.

29 - V. Minorsky, *Studies in Caucasian history*, pp. 139

٣٠ - سعداوى ص ٢٩ .

٣١ - المقرئى (خطط) ١ - ص ١٢٩ : الطواشى حرفيا تعنى الخصى ، - المؤلفه (وكفارس ، هو من تتراوح منحه سبعمائة وألف دينار ، وله « مريبط » به ، من عشرة رعى إلى ما بونها ما بين فرس وحمار ويغل وجمال ، وله غلام يحمل سلاحه (المقرئى خطط ١ ص ١٥٩ - المترجم) . ولكن بولياك فى كتابه (الإقطاع ص ٣ : يماثل ما بين الطواشى وأمرأه الممالك بدون أساس كاف للإقناع ، وكهن فى (*L'evolution de L'iqta*) ص ٤٦ ويعتقد أنهم نوع من الخيالة الأقوياء ، وكما نلاحظ بحق عند « جب » الذى يعتبر أن الطواش ليس كما تعنيه الكلمة حرفيا (الخصى) ولكنه فارس نورتبة مالية فى القوات المنتظمة .

(*The armies of Saladin*, pp 76 - 87)

أما القاراجول (قرا غلام) عند المقرئى وجمعها قراغلامية - المترجم) وهى تعنى حرفيا (العبد الأسود) فغير واضح معناها تماما ، ففى رأى سيلفستر دى ساسى (*sur la nature*, p. 215) أن هذا المصطلح يعنى فى اللغة التركية القديمة (الشاب الأسود) .

وسعداوى ص ٩ فى كتابه يجد هذا المصطلح بأنه نوع من الشرطة يراقب الطرق فى زمن تحرك القوات. و« كهن » ص ٤٦ فى كتابه المنوه عنه أعلاه يعتبرهم فرساناً نوى رتب متدنية . « ولين بول » معتمدا على الترجمة الحرفية يحدد « القاراجول » بأنها تعنى : العبيد السود السودانين .

(*Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem*, New York - London 1898 p

154)

وهنا نجد أن « جب » لا يتطابق مع نفسه فيما قاله أعلاه عن الطواشى فى كتابه المشار إليه أعلاه ص ٧٦ - ٨٧ .

٢٢ - المقرئى (خطط) ١ - ص ١٢٩ ، (سلوك) ١ - ح ٢ ص ٧٥ .

33 - Gibb, *The armies of Saladin*, P. 104 .

34 - Cl . Cahen, *L'evolution de L'iqta* .

٣٥ - ابن الأثير ١١ - ص ٢٢٧ ، وابن شداد ص ٢٦١ .

٣٦ - المقرئى (خطط) ٦ - ص ٢٧٠ ، أبو شامة ١ - ص ١٨٤ .

٣٧ - ابن الأثير ١١ - ص ٣١٠ وأبو شامة ١ - ص ١٨٤ .

٣٨ - ابن شداد ص ٢٧٥ .

- ٢٩ - ابن الأثير ١١ - ص ٢٩٨ ، وأبو صالح ص ٢٠٤ .
- ٤٠ - المقرئى خطط ٦ - ص ٢١٢ .
- ٤١ - ابن الأثير ١١ - ص ٣٤٥ ، وابن شداد ص ٢٨٨ وانظر أيضا - المقرئى (سلوك) ١ - ح ٢ - ص ٩٢ ، ١٩٣ .
- ٤٢ - المقرئى سلوك ١ - ح ١ ص ٩٤ وتحت هذه السنة ، نجد عند المقرئى أيضا أخبارا هامة عن إعطاء صلاح الدين كل الذى كان فى « دأوه » (جنوب شرق حلب) من قرى وإقطاعات للفقيه المعروف ضياء الدين عيسى حكار لمساهمة فى المعارك ضد الصليبيين (سلوك ١ - ح ١ ص ٩٤ وانظر أيضا عماد الدين ص ٣١) .
- ٤٣ - ابن شداد ص ٣٠١ .
- ٤٤ - ابن الأثير ١٢ - ص ٥٤ ، وابن شداد ص ٢٨٨ ، والمقرئى (سلوك) ١ - ح ١ ص ١٩٣ .
- ٤٥ - ابن الأثير ١١ ص ٢٧٦ ، ٢٨٠ .
- ٤٦ - ابن شداد ص ٢٨١ .
- 47 - H. Derenbourg, Les Croisades d'après dictionnaire géographique de yak-out - (Centenaire de l'Ecole des Langues orientales vivantes, 1795 - 1895) , Paris, 1895, p. 83 .
- ٤٨ - ابن الأثير ١١ ص ٣٤٠ .
- ٤٩ - ابن الأثير ١٢ ص ١٦ وانظر أيضا أبو شامة ٢ - ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .
- ٥٠ - المقرئى سلوك ١ - ح ٢ ص ١٢١ .
- 51 - K. S. Salibi, The Buhturids of the Garb, Mediaeval Lords of Beirut and of southern Lebanon - (Arabica), 1961, VIII, fasc. 1, P 83 .
- ٥٢ - ابن الأثير ١٢ ص ٣٦ المقرئى (سلوك) ١ - ح ١ ص ١٠٨ معظم الحقائق المقدمة عن توزيع الإقطاعات فى عهد صلاح الدين ، يوجد البعض منها مكتوب بشكل آخر عند ابن خلدون - انظر : مسجلد ٥ - ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ - ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٦ .
- ٥٣ - المقرئى (خطط) ٦ - ص ١٩٥ .
- ٥٤ - ابن الأثير ١٢ ص ٣٨ .
- ٥٥ - ابن الأثير ١١ ص ٢٧٢ .
- ٥٦ - أبو شامة ٢ - ص ٣٨ .

٥٧ - المقرئى سلوك ١ هـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

٥٨ - نفس المصدر ص ٧١ ، ٧٥ .

59 - Cl . Cahen, L'evolution de L'iqta

٦٠ - أبوشامة ١ - ص ٨ - ٩ والمقرئى (خطط) ٢ - ص ٢٥١ .

٦١ - أبوشامة ١ - ص ١٢٨ وانظر أيضا أبوشامة ٢ - ص ١٨٧ ، غير أنه من المعروف أن هناك استثناء من هذه العادة ، فعندما عاد رجال تور الدين بعد الحملة المصرية الفاشلة فى ١١٥٦ م تم انتزاع كل الإقطاعات منهم . (ابن الأثير ١١ ص ٢١٤ ، وسعداوى ص ٤) .

62-С. Б. Певзнер, Икта..., стр. 181.

٦٢ - أسامة بن منقذ ، كتاب الواعظ ص ١١٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ .

٦٤ - نفس المصدر ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

٦٥ - نفس المصدر ، ص ٣٠٣ .

٦٦ - نفس المصدر ، ص ٣٠٦ .

٦٧ - نفس المصدر ، ص ٣١٧ .

٦٨ - نفس المصدر ، ص ٢٩٤ .

٦٩ - نفس المصدر ، ص ٢٩٥ .

٧٠ - نفس المصدر ، ص ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٣ .

٧١ - نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

٧٢ - نفس المصدر ، ص ١٣١ ، ١٦٦ ، ١٩٩ .

٧٣ - نفس المصدر ، ص ١٩٩ .

٧٤ - نفس المصدر ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٧ .

٧٥ - نفس المصدر ، ص ٢٩٨ .

٧٦ - ابن الأثير ١٢ - ص ٧١ .

٧٧ - المقرئى (سلوك) ١ هـ ١ - ص ١٢٩ .

٧٨ - ابن الأثير ١٢ ص ١٠٧ .

٧٩ - نفس المصدر ص ١٠٣ .

٨٠ - نفس المصدر ص ١٧١ .

٨١ - نفس المصدر ص ١٩٦ - ١٩٧ .

٨٢ - المقرئى خطط ٢ - ص ٣٧٥ .

٨٣ - ابن الأثير ١٢ ، ص ٢٢٥ .

٨٤ - نفس المصدر ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

- ٨٥ - نفس المصدر ص ٢٧٣ .
- ٨٦ - نفس المصدر ص ٢٢٠ وأبو الفدا ٢ - ص ١٧١ .
- ٨٧ - المقرئى (سلوك) ١ - ج ٢ ص ٢٠٠ .
- 88 - M. van Berchem, Le château de Banias et ses inscriptions- JA, XII 1888, p. 441.
- أبو شامة ٢ ص ٦٢ .
- ٩٠ - نفس المصدر ، ص ١٢٢ ، وانظر : Gibb, The armies of Saladin , P. 75 .
- ٩١ - ابن الأثير ١٢ ص ١٠٢ وأيضا أبو الفدا ٣ - ص ١٢٨ .
- ٩٢ - النابلسى ص ٢١ ، ٢٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٦١ وصفحات ٤٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٣٩ .
- ٩٣ - نفس المصدر ص ١٦٤ .
- ٩٤ - نفس المصدر ص ٥١ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٦٦ .
- ٩٥ - المقرئى (خطط) ١ - ص ١٥٦ .
- ٩٦ - نفس المصدر ص ١٢٨ .
- 97 - A. Poliak, The Ayyubid Feudalism P. 431
- 98 - Cl. Cahen, Quelques aspects de L'administration égyptienne médiévale vue par un de ses fonctionnaires, P . 98 .
- ٩٩ - ويختلف عن هذا ثلاث أنواع من الضرائب المتأخرة - « الباقي » وهو المتأخرات البسيطة على « الموقوف » تلك التى يمكن ألا تدفع بسبب خرابها ، « والضرائب العرضية » ، « والحاصل » : مما يعنى أن دافع الضرائب هنا لا يسلم بشكل دورى من القرية إلى المستودعات الحكومية ، غير أن المقطع الإقطاعى أو الفلاح لا يدخل هنا ضمن هذه الأنواع (النابلسى ص ٢٠ ، ٦٠ ، ٧٢) .
- ١٠٠ - ابن ممتى ص ٢٧ وفى أخبار ابن ممتى أيضا ص ٩٦ .
- ١٠١ - هكذا يكتب أبو شامة : أن القاضى ابن الفراش النائب السابق للسلطان فى إقليم « شهر زور » أشرف على المقطعين وحقق العدالة للتابعين له (٢ ص ٢٠٩) .
- 102 - См. К. Маркс и Ф. Энгельс, Немецкая идеология, — Сочинения, изд. 2, т. 3, стр. 22—23.
- 103 - C, Becker, Islamstudien, S. 213
- ١٠٤ - أبو شامة ٢ - ص ٢١٧ (فى استشهاد من ابن شداد) وضع هذا النص أبو شامة بين قوسين ، وهذا الاستشهاد موجود فى طبعة القاهرة لابن شداد (ص ٣١٠) . بجانب ذلك فإن الطبعة الأخيرة لابن خلكان : (تحتوى أيضا هذا الاستشهاد عن ابن شداد فى الجزء ١٢ ص ٨٤) وبدلا من كلمات « ودينارا ذهبيا واحدا » كتب « وجارم صورى واحد » التى من الممكن ترجمتها « قارب فورى واحد » ، ولدى عماد الدين (ص ٤٥٦) يعرض هذه المعلومة باختصار « ولم يبق فى

خزائنه شيء ، سوى دينار واحد وستة وثلاثون درهماً ، وعند ابن إياس وردت أيضاً (١ ص ٧٣) دون أي استشهداد « ولم يستبق هو في الخزانة أيا من الذهب أو الفضة ، ولم يستبق خبياعا ولا بساتين ولا عقارات ولا قرى » أما ما يقوله أبو شامة عن : « الدراهم القاصرية » فمن الأرجح أن تكون دراهم (من الورق) وقيمتها ٢٠ ٪ من الدينار الفضي وقد دخلت مصر في عهد صلاح الدين ، أما « الدينار الصوري » فهو عمله ذهبية تم سكها في ذلك العهد في صور (انظر .

A . S. Ehrenkreutz , The standard of fineless of gold coins circulating in Egypt at the time of the Crusades, - J A O S , Vol . 74 , 1954, pt 3 , pp 163 - 164 .

١٠٥ - أبو شامة ٢ - ص ٥٢ وقد نقل هذه المعلومة عن رواية عماد الدين الأصفهاني : « قال العماد : وأعطى السلطان لتقى الدين لواء الفيوم وكل أقاليمه بكل بلادها ومداخلها ، وزاده القبابات ويوش . واحتفظ له في سوريا بمدينة حماة بقلعتها وبكل ضواحيها » .

١٠٦ - أبو شامة ٢ - ١٩٧ ، وعماد الدين ص ٤٢٨ : بالنسبة لمصطلح « الخاص » في مصادرنا المعروفة فهو يستعمل فقط بالنسبة لأملاك الأيوبيين أنفسهم ، ولا يستعمل بالنسبة للفرسان العاديين وذلك ما أكدته بولياك مستنداً على ما قيعه لنا أبو شامة (The Ayyubid Feudalism, p- 431)

١٠٧ - ابن شداد ص ٣٠١ وأيضاً أبو الفدا ٢ - ص ٨٥ .

١٠٨ - ينبغي الإشارة إلى أن قائد الأسطول قد تم منحه إقطاعاً خاصاً ، كان تحت إدارة ديوان الأسطول الذي كان ، في البداية ، قد خصص له كل الفيوم ، ولكن في ١١٨٣ - ١١٨٤ - كما أوضحنا سابقاً - كان قد تم ضم الفيوم إلى إقطاع المظفر تقى الدين عمر . انظر المقرئى (خطط) . ٣ - ص ٣١٤ - ٣١٥ ، والمقرئى (سلوك) ١ - ص ٧٣ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، وأبو شامة ١ ص ٢٦٩ ، وابن مفاى ص ١٨٠ .

A . S . Ehrenkreutz, The place of Saladin in The naval history of the Mediterranean sea in the middle ages - JAOS , 1955, Vol , 74, pt 1 - 2 , p . 108 .

١٠٩ - النابلسي ص ٣٦ ، ٢٩ ، ٢٢ ، وانظر : Cl . Cahen, Le regime des impôts, p . 10 .

١١٠ - المقرئى (خطط) - ١ ص ١٥٦ .

111- См. Л. И. Дембо, *Земельные правоотношения в классово-антагонистическом обществе*, Л., 1954, стр. 113.

١١٢ - انظر على سبيل المثال -

- См., например: И. П. Петрушевский, *Очерки по истории феодальных отношений в Азербайджане и Армении в XVI — начале XIX вв.*, Л., 1949, стр. 235—237.

١١٣ - المقرئى (خطط) ١ - ص ١٢٣ .

١١٤ - نفس المصدر ص ١٢٧ .

١١٥ - المقرئى خطط ٢ ص ٢٩ .

الفصل الثالث

الملكية الإقطاعية المدينية في عهد المماليك الأتراك

الفصل الثالث

الملكية الإقطاعية المدينية في عهد المماليك الأوائل

كان تبدل السلالة السلطانية مصحوبا بتغير في التركيب العنصرى للأرستقراطية الحاكمة ، فالکرد - كما أوضحنا سابقا - قاموا بتعيين الأتراك الذين هم على الأغلب من قبائل ، كبيتشاك وبلفتس ؛ التى كانت تقطن أساسا فى السهوب الواقعة شمال البحر الأسود وبحر قزوين ويسمون «بالدشت والبيتشاك » ويدخلون فى تكوين قبيلة القرن الذهبى^(١) فى ذلك الوقت ،

وحقيقة ، فإن النظام المغولى أثر فى العسكرية المصرية والهرمية الإقطاعية تأثيرا كبيرا ، فتكوين القوات الدائمة وعددها الذى تضاعف بالمقارنة مع عهد صلاح الدين ، ثم صار تنظيمها ، بعد ذلك ، أكثر دقة ، إذ صار هناك أمراء المائة وأمراء الأربعين ، وأمراء العشرة وأمراء الخمسة ، وصار الإنفاق على المماليك يتحدد بثلاثى دخل إقطاع الأمير ، وكان عدد المماليك وكفالتهم فى ذلك الوقت كما كان فى العهد السابق ، يرتبط على الأغلب بمدى تعسف الأمراء^(٢) . فأمير المائة ؛ يعتمد على امتلاكه لمائة مملوك ملكية خاصة ، ولكنه فى الحرب يقود ألف محارب من أجناد الحلقة ؛ وهذا هو السبب فى كون المؤرخين المماليك يسمونهم : «الأمرون للمائة والمقدمون للألف » . أمابقية الأمراء فكانت ألقابهم تعتمد على عدد المماليك الذين يملكونهم وتطابق ألقابهم مع عدد من يملكونهم ؛ برغم أن أعداد كل أمير كانت فى الحقيقة أكبر بكثير من لقبه^(٣) .

وإلى جانب هؤلاء الأمراء ومماليكهم ثم مماليك السلاطين ، فإن قسما هاما من الجيش المصرى كان يتكون من أجناد الحلقة * المنوه عنهم سابقا ، وهذا المصطلح «الحلقة» سيقابلنا كثيرا فى مصادر الفترة الأيوبية ولكنه صار يستخدم بانتظام يدل

* هم أهم فريق حاز الإقطاعات فى الجيش المملوكى ، ويتكون من مماليك الأمراء الذين انفصلوا عن إقطاعاتهم بالوفاة أو النفى أو كبر السن ، وجرت العادة أن يضم السلطان هؤلاء المماليك إلى الحلقة ؛ لذا كانوا من حيث الرتبة أقل من المماليك السلطانية ؛ انظر د / إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ص ٤٧٩ - المترجم

على الفرق الحربية فى العهد المملوكى ، وأهميته حتى ذلك الوقت كانت غير واضحة تماما . وكاترمير ، ويلوشى يعتقدان أن «الحلقة هم الفيالق المحيطة بالسلطان وهم يكونون حرسه ، لكن بولياك يؤكد أن اسمهم هذا مرتبط بتكتيك الإحاطة بالعدو الذى كانت تطبقه كل الشعوب التركية ، فالمماليك أيضا (٤) .

وعلى كل ، فإن أجناد الحلقة لم يكونوا تابعين بشكل كامل للسلطين ، مع أنهم كانوا يضمون بين صفوفهم بعض أعداد من أبناء أمراء المماليك (٥) .

وفيما يتعلق بهذا الموضوع ، فإن المصادر تحدد «الحلقة» بأنهم على وجه الدقة فرق مأجورة من التركمان والبدو ، مع أن الحلقة فيما يبدو كانوا شخصا من الأجراء الأحرار (٦) ، وأكبر الظن أن الفرسان المكونين لنواة الحلقة كانوا من أبناء وأحفاد الإقطاعيين المحليين فى مصر وسوريا ، وقد فقدوا حقوقهم فى ضياعهم الأصلية ، وصاروا لايمتلكون وسائل أخرى لضمان حياتهم سوى الإقطاع السلطاني ، ومثال هذا الفارس الإسلامى ، نجده فى العهد السالف متمثلا فى أسامة بين منقذ المنوه عنه سابقا؛ والذى أجبر فى شبابه على هجرة وطنه شيزار ، وفى خلال حياته المديدة اشتغل عند الكثير من الحكام المسلمين ، وفى آخر سنوات عمره اشتغل لدى صلاح الدين (٧) .

وهناك أسباب عامة تتسبب فى افتقاد أجزاء ما من حقوق الطبقة المسيطرة على الأرض ظلت غير واضحة لنا . ففيما يبدو أن شريحة ملاك الضياع (بافتراض النموذج القبلى) ظلوا موجودين بعد الغزو العربى (٨) . وابتداء من القرن الثامن وحتى العاشر تحول هذا النموذج بالتدريج إلى نظام «الملتزمين» ولكن بعد ذلك ، وارتباطا بتطور نظام الالتزام – كما أوضحنا سابقا – تم إزاحة العنصر «الأجنبى» من بين المحاربين .

وإقطاع الحلقة يتحدد بأنه إقطاع المماليك الأمراء ، فنجد عند المقرئى تحت ١٢٨٠م ، « أن واحدا من أمراء المماليك قد ساعد على تهدئة اثنين من مثيرى الاضطراب فى القاهرة ، تسلم إقطاع حلقة مكافأة على فعله ، ويؤكد المقرئى * أن هذا كان أول حادث من نوعه (٩) »

* ٠٠٠ وخلع على المملوك وأنعم عليه بألف درهم وإقطاع فى الحلقة وهو أول من أخذ من ممالك الأمراء إقطاعات فى الحلقة . المقرئى سلوك ١ ج ٢ ص ٦٧٣

تم توزيع كل الأراضى المصرية المطوقة بالخراج فى عهد المماليك الأوائل باعتبارها ٢٤ قيراطاً^(١٠) وكانت الحلقة والأمراء بمماليكهم يحوزون كأمالك بمثابة إقطاعات مايوأزى^(١١) ١٠ قراريط ، كان ذلك حتى نهاية القرن الثالث عشر تقريبا . وكان منشور توزيع إقطاع الحلقة على الأمراء يصدر عادة باسم السلطان ، وكما كان الوضع من قبل ، فإن الإقطاع كان يضم أحيانا مدنا كاملة ، فعلى سبيل المثال ؛ أعطى السلطان : المنصور نور الدين على مدينة نابلس بمثابة إقطاع للأمير عز الدين بيبرس إلى جانب أقاليم أخرى فى ١٢٥٨ - ١٢٥٩ م . وقدم المظفر قطز للأمير بيبرس البندقدارى ، بأمر سلطاني ، مدينة قليوب بضواحيها^(١٢) . وكانت الواحات الواقعة فى الصحراء الليبية ممنوحة أيضا بمثابة إقطاعات^(١٣) .

وهناك حقيقة هامة ، تحتل مكانا بارزا فى ١٢٦٥ م . ، ذلك عندما كان بيبرس هو السلطان الحاكم ؛ فقد قام بمنح إقطاع لبعض الصليبيين المتحولين إلى جانب المسلمين^(١٤) ، وفى عهده أيضا تم منح إقطاعات لكثير من الفرسان المغول من فرق خان « القرن الذهبى برك » (١٢٦٥ - ١٢٦٦ م) وكان قد تم نقلهم للعمل فى صفوف المماليك بأمر من الجيش الأخير للهولاكى : خان جازان (١٢٧١ - ١٣٠٤ م) .^(١٥) والحقائق عن استقبال المغول للعمل عند السلاطين المصريين وتسلمهم لإقطاعات سنقابلها فى السنوات التالية^(١٦) .

والإقطاع سواء كان فى مصر أو سوريا - فى ذلك العهد - يمكن أن يتحول أولا يتحول إلى الشكل الوراثى ، فذلك كان مشروطا دائما بالوظيفة الحربية^(١٧) .

ويخبرنا ابن عبد الظاهر : أن إقطاع الأمير شهاب الدين القمري انتقل لابنه بعد موته ، ولكن إقطاع الأمير شرف الدين الذى وقع عندئذ (فى بداية ١٢٦١ م) فى الأسر على يد الصليبيين ، استبقاه السلطان لإخوته^(١٨) .

والمقريزى فى ١٢٦٥ م . يستشهد بنص مرسوم بيبرس الخاص بتوزيع الإقطاعات على الأمراء فى الريف والقرى (أحيانا نصف هذه القرى) التى تقع حول المناطق التى تم نزعها من الصليبيين فى قيسارية وأرسوف ؛ علاوة على أنه يؤكد على الطبيعة الوراثية لهذه الأوضاع^(١٩) .

وإعادة توزيع الإقطاعات بالشكل الوراثي ترجع للعادات الموجودة الخاصة بأمراء الممالك الكبار (أولاد الناس) الذين لا يمكنهم أن يرثوا وظائف آبائهم وبالتالي إقطاعاتهم (٢٠). فكما نوهنا سابقا ، كانوا يدخلون أحيانا في تكوين الحلقة وأحيانا كانوا يستثنون من الشريحة الحربية ، فقد كانت صفوف أمراء الممالك تكتمل - على الأغلب - عن طريق شراء السلاطين لممالك جدد (٢١).

والصادر تتضمن الكثير من الإشارات إلى هذه الحقائق ؛ فعندما يتم عزل أميرما أو تحدث له الوفاة ، فإن إقطاعه كان يُعاد توزيعه على الآخرين ، وكان المحاربون يتعرضون لفقد إقطاعاتهم إذا ما ارتكبوا الأفعال الحقيرة (٢٢).

وفي العهد المملوكي المبكر ، تعرض اصطلاح «الإقطاع» لبعض الوقت ، لكونه غير شرعى مدللين على ذلك بأن تلك الضرائب والدخول التي تجرى على إعاشة المحاربين لم ترد في الشريعة ، والمقرئى يكتب عن هذا منوها بحرمة الإقطاعات التي كانت قائمة على الضرائب المدفوعة من قبل التجار ، أثناء حديثه عن (١٢٦٤م) (٢٣).

وكما أوضحنا سابقا ، فإن بيع الإقطاعات كان ممنوعا ، فعندما علم السلطان الناصر محمد عن بيع مجموعة كبيرة من الممالك المصريين لإقطاعاتهم ، احتدم غيظا وأمر بإجراء تحقيق معهم ووقع العقاب الصارم عليهم ، وذلك بنفى المئات منهم إلى كرك البعيدة (٢٤). وكما قدمنا ، فإن البدو والترك العاملين في وظائف الحكومة المملوكية كانوا يتسلمون إقطاعات ، بل إنه من المعروف أيضا أن بيبرس قد أكد حق البختوريين اللبنانيين في إقطاعاتهم التي سلمها الأيوبيون لهم ، وكلفهم بمساعدة الممالك في نضالهم ضد الفرنجة ، ولكن السلطان قلاوون قام بالقضاء على ممتلكات البختوريين وآخرين من زعماء الجبال في لبنان ، وتحولت ممتلكاتهم إلى احتياطي لأراضى فرق الحلقة المقيمين في طرابلس بعد استردادها من الصليبيين .

ولكن خلفاء قلاوون أسسوا فرقا للحلقة من بين البختوريين أنفسهم ، وأعادوا إليهم إقطاعاتهم القديمة ، وهذه كانت ظاهرة استثنائية (٢٥).

ونجد أيضا عند المقرئى حكايا تفصيلية عن « سليمان بن مهني أمير قبيلة

الفضل البدوية السورية في (١٣١٥ - ١٣١٦ م.) وكان * قد شق عصا الطاعة ، فعوقب بانتزاع إقطاعه ، فقام بسلب قريتين وتوجه إلى العراق . غير أن سوء التفاهم سرعان ما تم تلافية ، وعاد بن مهنى هذا وعاد إليه إقطاعه ولقبه كأمر ، ومنح فوق ما كان لديه قرية في غوطة دمشق « لأنه كان لديه أطفال » (٢٦) .

وكان هناك على سواحل كسروان في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر ، إقطاع لعشيرة تركمانية من بنى عساف ، كانت ملزمة بمراقبة المارونيين التابعين (٢٧) .

وينبغي الانتباه أيضا إلى أن السماح لأقسام محددة من الجيش المصرى في التواجد في القلاع السورية ، كان يتم فقط وفقا لشروط ضمان الممتلكات الإقطاعية لكل الممالك ، غير أن سلاطين الممالك تقريبا لم يتوجهوا إلى سوريا (٢٨) .

وتنظيم كفالة الممالك السلطانية ، يدل على البعث الجزئى لمبدأ التوزيع المركزى للريع الإقطاعى فى عهد السلاطين الأوائل من السلالة البحرية ، فمن بين ٢٤ قيراطا مصريا ، كان السلطان يختص بأربعة قراريط فى نهاية القرن الثالث عشر (٢٩) . ينفق منها على إعاشة ممالكه الخاصة إلى جانب حاشيته أيضا ، وبمقتضى ما يقدمه المقريزى من سجلات الجيش المملوكى التى تتعلق ببداية القرن الرابع عشر ، فإن الأمراء كانوا يأملون أن يمتلكوا إقطاعات لا يملكها إلا قواد الممالك السلطانية (٣٠)

وكان جنود الممالك السلطانية شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الكبار ، يتسلمون شهريا من الخزانة رواتب نقدية ويعطون منحا عينيه ، وذلك كما يكتب ناصر

* وقدم البريد بخروج سليمان بن مهنى عن الطاعة ونهبه القريتين وتوجهه نحو العراق من أجل خروج إقطاعه عنه فكتب إلى مهنى فى ذلك فأجاب بأنه خارج عن طاعته وقدم ابن المرحل بموسى بن مهنى وأعيدت الإمرة لهذا وزيد إقطاعه مائتى ألف برهم وأعيد إقطاع فضل إليه على عاداته قبل الإمرة من أجل أولاده . المقريزى سلوك ٢ ح ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، وفى ٢ ح ٢ ص ٣٧٤ ورد الآتى أيضا : فلم يشعر الأمير تنكر (نائب الشام) إلاومهنى قد قدم عليه . . . ثم سيّره إلى السلطان . . . فسر السلطان بذلك وخلص عليه وعلى من معه مائة خلعة ورد إليه إمرته وزاد فى إقطاعه .

خسرو^(٣١) . كانوا فى كل يوم يتسلمون الخبز واللحم وزيت الزيتون والشعير لعلف خيولهم ، ويتسلمون الملابس والحلوى مرة كل عام فى شهر رمضان ^(٣٢) . ويتضح هذا مما كان يحتاجه السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى من الحبوب له ولماليكه الخاصة ، فقد بلغ ١٤٠ ألف إردب^(٣٣) .

وما أحدثه ممالك السلاطين الأوائل من إعادة تقسيم أراضي «الروك» يدل على سعيهم المتواصل نحو استعادة احتياطي أراضي الحكومة لهم شخصيا ، وهذا على عكس ما كان عليه الحال حتى بداية العصر الأيوبي ، حيث كان «الروك» يدل على إعادة تقسيم الأراضي الحكومية بين الملتزمين ، أما فى العهد المملوكى ، فإن «الروك» قد صار يعنى إعادة توزيع الأرض بين السلطان وأصحاب الإقطاعات .

وإعادة التوزيع هذه كانت تتم فى العهود السابقة لتحديد المساحات التفصيلية للأرض التى تنضم فى كل عام الى مساحة الأرض المزروعة ، وذلك بهدف تقدير الخراج المستحق عليها ؛ وكانت هذه القياسات أيضا تتم فى مصر فى العصور الوسطى ، عندما كان فيضان النيل ينحسر عن الحقول ، وقد حدثت إعادة التقسيم .

هذه فى مصر فى عهد سيطرة الممالك الأتراك كله مرتين ، واحدة فى بداية ١٢٩٨م. وتسمى (الروك الحسامي) والأخرى فى نهاية ١٣١٥م وبداية ١٣١٦م . وتسمى (الروك الناصري) وكانت المرة الأولى تختلف عن المرة الثانية من حيث الموعد السنوي^(٣٤) . غير أن هذه القياسات فى أحسن الظروف استطاعت أن تخدم بواعث إعادة التقسيم فى ذلك الوقت ، والأسباب الحقيقية لهذه القياسات فى العهد المملوكى قد اختلفت فى الوضع المعقد للسياسة الداخلية لهم .

فى سبعينات القرن الثالث عشر ، نشبت صراعات إقطاعية داخلية بين الجيش المصرى ؛ فبعض الأمراء قد هبوا ضد كرم السلطان ؛ السعيد ناصر الدين نحو ممالكه « وزحفت العقارب الخبيثة* » وتوجه الأمراء الفاضبون فى حملة إلى أرمينيا الصغرى ، وقرر السلطان إرسال ممالكه لإرجاعهم من سيس إلى السجون ونزع إقطاعاتهم ، لكن الأمراء الذين علموا بهذا رفضوا العودة مرة أخرى إلى مصر^(٣٥) .

★ ... وتتأفر النائب والمذكور (الأمير لاجين الزينى - المترجم) فتوغزت بينهم الصدور ودبت بينهما عقارب الشرور . المقرئى سلوك ١ ح ٢ ص ٦٤٥ .

ولم نعرف كيف انتهى هذا الصراع . لكن المقریزی يقول : إن الأمراء قد صاروا يستولون على إقطاعات الحلقة ويضمونها إلى ممتلكاتهم في السنوات التالية* : «والأمراء استولوا لأنفسهم على إقطاعات كثير من المحاربين ولم يمسه من جراء ذلك شيء ، وهذه الأملاك قد انتقلت تحت إشراف دواوين الأمراء ، بل إنهم ضموا إلى مخابئهم الأوغاد وقطاع الطرق ، وقاموا هناك بالتمردات والفتن وحالوا دون جمع الضرائب ، وابتزوا أموال الحكومة» (٣٦) .

والسلطان المنصور حسام الدين لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨ م .) توجس خيفة - لون أدنى سبب - من أنصار السلاطين المخلوعين السابقين : خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣ م .) ، وصغير السن الناصر محمد (١٢٩٣ - ١٢٩٤ م .) وكتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦ م .) بالرغم من أن تهديدات الاقتحام الجديد للمغول المتحالفين مع حكام أرمينيا الصغرى صارت حقيقية ، وفي ذلك الوقت ، أي في بداية ١٢٩٨ م. تم الإعلان عن إعادة تقسيم الأرض . وطبقا لقرار السلطان ظلت ممتلكاته الخاصة كما كانت في التوزيع السابق ، وصار للأمراء والمحاربين ١١ قيراطا ، والباقي وهو ٩ قراريط من أجود الأراضي ، تم تخصيصها لإعاشة الجيش الجديد الذي سيصير الركيزة الأساسية لللاجين (٣٧) .

غير أن هذه القوات الجديدة لم يتم إنشاؤها ، إذ إنه لا توجد أي أخبار عن شراء السلطان لاجين لماليك جدد أو تجنيد مأجورين في أي من المصادر ، ومن الصعب افتراض شكل وجودها ، إذ إن مكانها في خطط المقریزی ، نجد توضيحا عن إقطاعات المحاربين (٣٨)، وفي السلوك للمقریزی يتم الكلام عن التعويضات البديلة للوظائف (٣٩) .

ونقصت أملاك الحلقة والأمراء بدرجة محسوسة طبقا لهذا التقسيم ، علاوة على أن السلطان حاول إجابة مطالب الحلقة على حساب الأمراء ، وتتضمن المصادر

* وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء ويصير ذلك الإقطاع في دواوين الأمراء ، ويحتسب بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ، ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميه ومضرة على أهل البلاد التي تجاورها (المقریزی - خطط ١ ص ١٦١)

تفاصيل هامة عن إنجاز هذا الإصلاح ، فنجد عند المقرئى فى السلوك بعد روايته لحكاية عن غضب الأمراء تتعلق بإقطاعات الحلقة ، «* والسلطان أوقف كل هذا وأعاد كل الإقطاعات لملكها وأخرجها من دواوين الأمراء » (٤٠) .

وينبغى الانتباه إلى أن القصة المشابهة لهذه الحكاية فى خطط المقرئى تنتهى بهذه الكلمات «وكانت هذه الإقطاعات** المستولى عليها مسلوقة من الأمراء وهكذا انتهت هذه الحماية» (٤١) ، ويعتمد بولياك على الترجمة الحرفية لهذا المصطلح المأخوذ من المقرئى ، وربما باستخدام كلمات المصطلحات الإدارية فيحدد «الحماية» : بأنها رعاية الشخصيات القوية ، مما يعنى أن أمراء المائة كانوا يرعون أو (يحمون) مصالح المحاربين فى فرقهم، وهذا ما يبدو من رأى بولياك الذى يعتبر أن الأمراء كانوا يشرفون على ممتلكات الخاضعين لهم نظير مكافأة محددة (٤٢) إلا أن نص المقرئى لا يدل على وجود أية إدارة تطوعية للإقطاعيين لمن هم أدنى منهم درجة وأن «الرعاية الحقيقية» لا يمكن أن يدور عنها الحديث فى ذلك العصر ، بل إن «الحماية فى حقيقتها كانت هى الاغتصاب المباشر من الرؤساء الإقطاعيين لأراضى المحاربين .

ونجد فى السلوك وصفاً تفصيلياً لاحتفال بتوزيع السلطان مستندات الملكية على الأمراء بإقطاعات منقوصة ، وإلى جانب هذا فإن المقرئى يلاحظ *** «صار واضحاً للسلطان أن وجوه الأمراء قد انقبضت بسبب نقصان مقدار «عبرهم» وطموحهم فى

★ ... فأبطل السلطان ذلك وردتلك الإقطاعات على أربابها وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء . خطط ١ ص ١٦١

★★ فبطلت الحماية خطط ١ ص ١٦٢

★★★ . وتولى تفرقة المثالات على الأمراء والمقدمين السلطان فبان له فى وجوههم التغير لقلة العبرة وهم بزيادتها فمنعه منكوتمر من فتح هذا الباب وضرره ... وكانت الإقطاعات قد تناقصت عما كانت عليه فى الدولة المنصورية، قلاوون فإن أقلها كان يتحصل منه عشرة آلاف درهم وأكثرها ينيف على ثلاثين ألفاً فصار أكثرها يبلغ عشرين ألفاً ، فعمل فى هذا الروك أكثر الإقطاعات يتحصل منه عشرة آلاف فشق ذلك على الأجناد وتجمعت طائفة منهم ورموا مثالاتهم وقالوا «إنا لم نعتد بمثل هذا الظلم فإما أن تعطونا ما يقوم بكفائتنا وإلا فخذوا أخابزكم ، وإما نخدم الأمراء أو نقيم بطالين فحنق منهم منكوتمر وأمر الحجاب فضربوهم وأخذوا سيوفهم وبألف فى الفحش . المقرئى سلوك ١ ح ٣ ص ٨٤٦

ووردت عند ابن تغرى بردى باختلاف طفيف فى بعض الكلمات ولكن بنفس المعانى تقريباً : نجوم ٨ ص ٩٤ - ٩٥ (المترجم)

زيادتها ويقول المقرئ عن محاربي الحلقة «تقلصت إقطاعاتهم عما كانت عليه في عهد السلطان منصور قلاوون ، عندما كان أقلهم يتكسب عشرة آلاف درهم وأكبرهم كان يتكسب عشرين ألف ويمقتضى هذا الروك فإن قيمة معظم الإقطاعات كانت لاتساوى إلا عشرة آلاف درهم ، مما سبب غضب المحاربين فألقى بعضهم بمستنداتهم وقالوا نحن لانوافق على هذا ، فإما أن تعطونا مايكفيينا وإما سنقوم باغتصاب منحكم ، وهل نحن سنعمل مع هؤلاء الأمراء أم سنظل جميعا بدون عمل (٤٣) .

وتعرض هؤلاء الفرسان للعقاب البدنى بأمر من نائب السلطان «منكوتر» ، وتم إلقاءهم فى السجون لبعض الوقت ، واضطر بعضهم للهرب من مصر وتوجهوا إلى ملاجئ الهولاكيين ، وعملوا فى بلاط جازان خان (٤٤) . وقام البعض منهم بمؤامرة فى نفس العام كان من نتائجها قتل السلطان ونائبه منكوتر ، أما الأمراء فقد ضموا لممتلكاتهم أراض من التسعة قراريط المنتقاة التى كانت مخصصة للسلطان (٤٥) .

والهدف الرئيسى من (الروك الحسامى) لم يبلغ غايته المستهدفة . وفى نفس الوقت فإن مبادئ الإصلاح القائم فى جوهره على المركزية ليدل على سعى السلطان لتحجيم القدرة الاقتصادية للأرستقراطية الحربية ، فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ذلك الشاب القوى العزيمة ، الطامح خلال اعتلائه العرش للمرة الثالثة فى ١٣٠٩م . لتقوية وضعه وذلك عن طريق استعادة ملكية الأراضى الحكومية خلال قيامه بإعادة التقسيم ، حيث كان واضحا للعيان التهديدات التى يقوم بها الغزاة المغول خلال هذه الأعوام ، ويشهد المؤرخون على أن السلطان كان ينوى إضعاف قدرة الأوصياء السابقين عليه وهم من الأمراء كبار ملاك الأراضى : سالار ، ويبرس ، وجا شنجير ؛ وكانوا من المعادين لمماليكه الخاصة (٤٦) . وربما كان السبب الرئيسى فى إعادة التقسيم هذا يكمن فى رغبة السلطان فى تلافى حدة الصراع الطبقي ، عن طريق خفض معدلات الاستغلال الإقطاعي فى مثل تلك الظروف ، مع أنه لاتوجد معلومات كافية وصريحة تتردد عن هذا فى مصادرنا .

وإعادة التقسيم ذى الطبيعة المركزية على يد الناصر محمد الذى قام به فى نهاية ١٣١٥ وبداية ١٣١٦م . صار واضحا تمام الوضوح ، فمن بين ٢٤ قيراطا مصريا ، صار للسلطان ١٠ قراريط (وكان قبل ذلك ٤ قراريط) واستعاد لنفسه أراض كانت مبيعة للخزانة قبل هذا ، مبقيا لأمراء الحلقة وغيرهم ١٤ قيراطا ، والمصادر غير واضحة فى

تقديم نسب التوزيع هذه .

أما عن وصف إجراءات إعادة التقسيم فإن المقرئى يعدد ضياع الأمراء القواد بمساحاتها التفصيلية متضمنة أرقام قيمة الدخل فى كل دائرة ، وعدد الفدادين فيها وقدر عبثتها (خراجها) وما يقدم للمحاربين على شكل نقود أو حبوب أو دجاج أو خراف أو برسيم أو أية أطعمة أخرى سواء كانت من دقيق القمح أو اللبن الرائب أو العدس أو الخبز (٤٨) .

ويتحدث المقرئى عن الظاهرة الطبيعية فى تفتيت الإقطاع الواضحة لنا فيما سبق من العهد الأيوبي واصفا إياها بأنها أعمال خبيثة من الموظفين الأقباط الذين يعدون مستندات ملكية الإقطاعات «وارتكب* هؤلاء القبط المكائد المختلفة قاصدين إضعاف الجيش المصرى ، ففرقوا الإقطاع الواحد إلى عدة أجزاء وأحيانا يكون جزء منه فى الصعيد والثانى فى الشرقية والثالث فى الغربية وكل هذا الإقطاع يخص محاربا واحدا مما يضاعف متاعبه» (٤٩) .

وكان الكثيرون من أجناد الحلقة مستائين من حصولهم على إقطاع أقل مما كان لديهم سابقا ، إلا أن كل مظاهر السخط هذه ، قوبلت بصرامة ، ويحكى المقرئى كيف أنه بعد إعادة التقسيم هذا ، عندما توجه الناصر محمد لصيد الكراكى ، فى ضواحي القاهرة ، حاول واحد من ظرفائه السخرية من فرسان الحلقة ؛ وبسبب هذا ، وبمقتضى أمر السلطان تم ربطه بأحد قواديس الساقية التى ظلت تدور به لمدة ** ساعتين دون

* «ومكر الأقباط فيما أمكنهم المكرفيه ، فبدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر ، ففرقوا الإقطاع الواحد فى عدة جهات ، فصار بعض الجبى فى الصعيد وبعضه فى الشرقية وبعضه فى الغربية ، إتعايا للجندى وتكثيرا للكلفة» - المقرئى خطط ١ ص ١٦٥

** «وغبن فى هذا العرض أكثر الأجناد فإنهم أخذوا إقطاعات دون التى كانت معهم ، وعندما نزل السلطان إلى البركة لصيد الكركى ... فدخل من يقال له عزيز ومن عاداته الهزل قدام السلطان والمزح معه وتعادى عزيز لشؤم بخته فى الهزل وقال : وجدت جندى من جند الروك الناصرى وهو راكب إكديس وخرجه ومخللة فرسة ورمحه على كتفه ، وأراد أن يتم الكلام فاشند غضب السلطان وصاح فى المماليك عروه ثيابه فللحال خلعت ... وربط مع قواديس الساقية وضربت الأبقار حتى أسرعت فى الدوران ، وعزيز تارة ينغمر فى الماء وتارة يظهر وهو يستغيث وقدعاين الموت والسلطان يزداد غضباً ، فلم تجسر الأمراء على الشفاعة فيه حتى مضى نحو ساعين وأنقطع حسه ... فتقدم إليه الأمير ... وقال : ياخوند هذا المسكين لم يرد إلا أن يضحك السلطان ويطيب خاطره ولم يرد غير ذلك ومازال به حتى أخرج الرجل وقد أشفى على الموت وقام بنقيه من أرض مصر .. فحمد الله سبحانه وتعالى الأمراء على سكوتهم وتركهم الشفاعة فى تغيير «مثالات» الأجناد . المقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ١٥٦ - ١٥٧

انقطاع فيغطس في الماء تارة ويرقى أخرى ثم ينتكس والماء يمر عليه إلى أن انقطع حسه وأشرف على الهلاك ، وقليل البخت هذا نجا من الموت بصعوبة (٥٠) . (أيضا هذا الوصف في الخطط ح ١ ص ١٦٧) (المترجم) .

والحديث يدور أيضا عن بعض الممالك السلطانية أثناء توزيع الهبات النقدية ، البديلة عن رُقع الإقطاعات ، والذين ظلوا يتسلمون كما في الماضي المنح والجرايات من الخزانة(٥١) . غير أنه لا توجد أسباب تؤكد هذا بشكل قطعي ، مما حدا ببعض الباحثين(٥٢) أن يعتقدوا أن دخول العشرة قراريط المنوه عنها سابقا كانت تنفق بشكل كامل على الممالك السلطانية وعلى البلاط السلطاني وذلك طبقا لسجلات ١٣١٥ م .

وفي ١٣١٥ - ١٣١٦م. تم جمع الكثير من الضرائب غير القانونية (مكوس) من كافة أنحاء البلاد ومقدار هذه الضرائب كما يبدو كان يعتمد مباشرة على إعادة تقسيم الأرض ، فكانت هذه المكوس ضرورية جدا ؛ نظراً لاستهتار الموظفين في جمع الضرائب ، والضرائب الملقاة التي كانت تجبى من الفلاحين الناقلين غلالهم عن طريق النيل إلى بولاق ، ومن سماسرة التجار ، ومن رؤساء أسواق المدينة كان «على كل واحد أن يدفع ماعليه وإلا فبتعبير المقريزي يُرمى به في طرفة عين داخل السجن ، وكانت تجبى أيضا من الأشخاص الذين يتاجرون في الكتاكيت وممن يزرعون قصب السكر أو يقومون بعصره أو تحويله إلى سكر ، ومن المسافرين بالراكب على النيل ، ومن أصحاب المطاعم الصغيرة ومن أعراس المتزوجين ... إلخ . وكان كل هذا يحدث في نفس الوقت الذي يتم فيه الكلام عن إلغاء كثير من الضرائب ، مما جعل كثير من المؤرخين يعتبرونها ظاهرة غير عادية وهم يحكون عنها بالتفصيل في مؤلفاتهم. (٥٣) . وبعض بنود هذه الدخول (من المكوس) حتى إعادة التقسيم - كما أُلحنا سابقا - كان يوزع بمثابة إقطاع على الأمراء وعلى أجناد الحلقة ، وبكلمات المقريزي عن الضرائب المأخوذة عن الحبوب والمنوه عنها «كانت * إتاوة كإقطاع لمحاربي الحلقة (الربعية)

* وكانت هذه الجهة مقطعة لأربعمائة من أجناد الحلقة سوى الأمراء ومتحصلها في السنة أربعة آلاف وستمائة ألف درهم ، وإقطاع الجند منها من عشرة آلاف درهم في السنة إلى ثلاثة آلاف وللأمراء من أربعين ألف إلى عشرة آلاف .. واقتنى منها المباشرون أموالا عظيمة .

(المقريزي سلوك ٢ ح ١ ص ١٥٠)

ولا يأخذ منها الأمراء .

وكان هذا البند من الدخول يكون حوالى ٤٦٠٠ ألف درهم يأخذ منها إقطاع الأجناد ما بين ثلاثة آلاف وعشرة آلاف درهم فى السنة ، أما الأمراء فبعض خذون ما بين عشرة آلاف وأربعين ألف درهم فى السنة^(٥٤) ، وأما الضرائب الأخرى فكانت تذهب لضمان حياة بعض المقطعين^(٥٥) .

والأسلوب الوحيد لضمان حياة كل الفرسان كان من الممكن أن يكون فقط فى تخصيص أراض لهم « وقضى * هو - (الناصر محمد - المؤلفة) على بعض بنود الضرائب الغير قانونية وصارت كل الإقطاعات دوائر^(٥٦) . هكذا كتب المقرئى . والمصادر لاتتحدث بالذات عن أى أنواع الأرض كان يجرى اختيارها لتكون إقطاعات جديدة ، وبلا جدال ، فإن العشرة قرارات السلطانية لم تستطع أن تبقى دون انتهاك ، وعلى كل فإن الأراضى التى تم نزعها من الأمراء : ببيرس ، وسالار ، والمقربين إليهما كان يتم توزيعها كإقطاعات^(٥٧) والتقليص الحقيقى للأراضى العامة أدى بالضرورة إلى تقليص الدخول السلطانية الخاصة مما تشير إليه أعمال السلطان «الناصر محمد نفسه بعد إعادة التوزيع الذى كان يتجه نحو ضمان ممتلكات قطاعات مماليكه الخاصة ولايعتمد على أسلوب التوزيع المركزى للريع .

ويكتب المقرئى عن توزيع إقطاعات لبعض محاربى الحلقة (١٣٢٠ - ١٣٢١ م.) (على بعض الذين كانوا يعيشون قبل ذلك على الرواتب^(٥٨)) . وطبقا لأخباره عن (١٣٤٠ - ١٣٤١ م.) فإن للناصر محمد قد استدعى محاربى الحلقة من أقاليم مصر وأقام لهم استعراضا ، بعد أن نزع إقطاعاتهم وأعاد توزيعها على المماليك السلطانية**^(٥٩) ، ومادامت المصادر مازالت تنوه من جديد - فى وصف حوادث السنوات التالية - عن أجناد الحلقة المصريين كأصحاب إقطاعات ، فإنه لا يوجد أى أساس للافتراض بأن هذا النوع من الإقطاعيين كان قد تم القضاء عليه نهائيا منذ

* وأبطل عدة جهات من المكوس وصارت الإقطاعات كلها بلادا (المقرئى ، خطط ٢ ص ٥٦)

** فرق الإقطاعات على المماليك السلطانية وأرضى الجند بكل ما يمكن - (ابن إياس: ح ١ - قسم أول ص ٥٢٠)

عصر الناصر محمد، وما يقوله ابن إياس ، هو فى غاية الأهمية ، فهو ينص على أن السلطان الناصر حسن، وهو من الأحفاد المقربين إلى الناصر محمد ، قد قدم للممالك السلطانية أملاكاً . إقطاعية أثناء توليه العرش للمرة الأولى فى ١٢٤٧م «وسايرهم بقدر الإمكان» (٦٠) .

وينبغى الانتباه إلى أن إعادة توزيع الأرض ، قد جرت أيضاً فى سوريا ، فى عهد الناصر محمد ، ولكن الحقائق فى المصادر عن توزيع الأرض فى سوريا فى العهد المملوكى الأول ، أفقر من مثيلاتها فى مصر (٦١) .

ومعروف أن الأراضى السلطانية الداخلة فى عداد أراضى السيادة ضمت إليها قلعة كرك وأقاليمها فى عهد بيبرس فقط ، وذلك بعد إخضاع الاسماعيلية : مسعف ، وفى عهد قلاوون تم ضم بعض أملاك أحفاد الأيوبيين فى إقليم دمشق إلى الأراضى السلطانية (٦٢) . وينبغى هنا الافتراض بأن الممتلكات السلطانية فى سوريا كانت قليلة الأهمية عن مثيلاتها فى مصر .

وإعادة التقسيمات فى الأقاليم السورية بدأت فى ١٣١٢م . وانتهت فى ١٣٢٥م . (٦٣) . ونتيجة لإعادة هذه التقسيمات انتقل إقليم طرابلس إلى الخزانة السلطانية ، وكان به إقطاعات لستة من الأمراء مجتمعين ، وثلاثة من أمراء العشرة (٦٤) وبعض أراضى الإقطاعات فى إقليم دمشق صارت ضمن أراضى السيادة (٦٥) .

وكما يبدو فإن زيادة الأملاك الحكومية فى سوريا لم تكن ذات أهمية خاصة . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن إلغاء الضرائب غير القانونية (المكوس) تم إعلانه فى سوريا (٦٦) . أيضاً ؛ وكانت له - على الأرجح نفس العواقب التى حدثت فى مصر . فمن الممكن أن نزعّم أن نوع الإقطاع فى سوريا ظل دون تغيير ؛ بصرف النظر عن إعادة توزيع الأرض وإعادة تملكها .

ولهذا ينبغى الإشارة إلى أن هناك ميلاً نحو تزايد أراضى «الملك» بالرغم من أنه لم يتضح فى مصادرنا . وهذا النوع من الأرض .. كما أسلفنا ظل قليل الأهمية . والمقرىزى يخبرنا أنه تم جمع ضرائب على قطع من الأرض من هذا النوع «الملك» فى مصر والقاهرة (٦٧) ، وتبدو أراضى «الملك» السورية - فى وصف إعادة التقسيم -

كأنها خاضعة للجرد شأنها في ذلك شأن الأنواع الأخرى من الأرض (٦٨) ومن الممكن أن تكون أراضي الملك هذه ، هي ما يعنيه المقريري في هذين الخبرين ، حيث يدور الحديث في أولهما عن ابتزاز الأموال عدة مرات من ملك الضياع المصريين (١٢٥٢-١٢٥٣ م.) وفي ثانيهما عن أرباب «الأكرات» (الضياع) السوريين (١٣٠٠م) (٦٩) . وإلى جانب هذا ، فإن المصادر تقدم بعض المعطيات المتواضعة جدا عن هذا الشكل من الملكية الإقطاعية كاستئجار ، وعنها يتم التنوية خاصة في سرد مصادر مداخيل الأمير سالار ، الذي يقدمه مؤرخ الفترة المملوكية الأخيرة ؛ ابن إياس وهو وارد تحت عام ١٣١٠ - ١٣١١ م وفي هذا السرد ظهر مصطلح «المستأجرات» الذي يدل على دخول من نوع الأداء الإيجارى .

وفي مقدمة هذا السرد يوجد اصطلاح «أجرة الأملاك» (٧٠) . وبما أن مصطلح أملاك (وهي جمع ملك - المؤلفة) يعنى في مصادرنا ؛ كل من يدير أملاكا مدينية ثابتة دكان - خان أو محل في السوق - حمام ... ، لذا فإن هذا المصطلح يدل تماما على المداخيل الآتية من إيجار العقارات المدينية ، وبهذا يصبح التفسير الأكثر اقناعا لاصطلاح «المستأجرات» هو كونها مداخيل من إيجارات الأراضي المصرية المعروفة في الأرياف البعيدة .

غير أن هناك نوعا ما من الإيجارات يظل غير معروف بشكل واضح هنا ، وربما كان الحديث متعلقا بالمداخيل الواردة عن إيجار أراضي أحد الإقطاعيين التي قام بتأجيرها للفلاحين (٧١) ؛ وربما يكون الحديث عن مستأجر متميز عند أحد الإقطاعيين. ومن المؤسف أن مصادرنا لا تحتوي على تفاصيل كثيرة عن هذا الموضوع ، لكن - ودون أدنى شك .. فإن إيجار الأراضي في مصر في هذه الفترة كان يتم تحت سيطرة الإقطاع ، وكان لا يمثل ظاهرة ذائعة الانتشار ، وظل الجوهر الاقتصادي لهذه «الدفع الإيجارية» على كل حال يتمثل في الريع الإقطاعي .

وجملة القول ؛ فإن تطور الممتلكات الإقطاعية في العهد المملوكي المبكر ؛ كان مرتبطا بصراع أسلوبين مختلفين لاستغلال المنتجين المباشرين ، واتجه التطور نحو توطيد الشكل الإقطاعي المتقدم والأكثر تطورا «فالمصادر حتى منتصف القرن الرابع عشر ، لم تشر إلى أى توسع في صلاحيات المقطعين ؛ فتطبيق مبدأ تبادل وبيع المقطعين العاديين لإقطاعاتهم لم يتم قط إلا في بداية هذا الوقت .

« بعد موت * السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٣٤١م - المؤلفه) - كتب المقرئى - ظهرت عادة بيع إقطاع محاربى الحلقة للآخرين نظير مبلغ محدد ، أو تبادل هذا الإقطاع مع إقطاع آخر ، وظهر من بين هذه القوات معظم الناس العاملين فى الحرف ، وصار العامة والناس الأراذل يمتلكون إقطاعات (٧٢) .

من الممكن أن يكون السلطان نفسه ، هو الذى سهل عملية انتقال إقطاعات الحلقة لأيدى أولاد البلد ، « وفى هذا ** العام (١٣٦٤م - ١٣٦٥ - المؤلفه) اندفع السلطان : الكامل سيف الدين شعبان ، بتهور نحو نزع كثير من الإقطاعات نظير مبالغ محددة (٧٣) .

ويخبرنا ابن إياس وابن تغريدى « أنه فى زمن الطاعون الأسود ١٣٤٨م . انتقلت إقطاعات الحلقة للناس العاديين والحرفيين بما فيهم الخياطين وصانعى *** الأحذية» (٧٤) .

وفيما بعد صارت الصفقات المشابهة ظاهرة عادية «منذ زمن الأمير سيف الدين قىلاى - النائب السابق للسلطان (٧٥) . فى السنة الثالثة والخمسين (١٣٥٢ - ١٣٥٣م - المؤلفه) *** صار المحاربون يبيعون ويشترون الإقطاعات بون أى قيد ، والتجار والناس الحرفيون قد امتلكوا إقطاعات» .. هكذا كتب المقرئى (٧٦) .

* فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال ، أو مقايضة الإقطاعات بغيرها . فكثرت الخيل فى الأجناد بذلك ، واشترت السوق والأراذل الإقطاعات حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات ، وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم (خطط - ٣ ص ٥٩)

** وفى هذه الأيام ٧٤٧ هـ طاش الملك الكامل وصار يخرج من ديوان الجيش الإقطاعات بقدر معلوم من المال ، ويدخله إلى الذخيرة (ابن إياس ح ١ قسم أول ص ٥٠٨)

*** وأخذ كثير من العامة إقطاعات حلقة .. وكان الإقطاع الواحد يصير من واحد إلى واحد ... فأخذ إقطاعات الأجناد أرباب الصنائع من الخياطين والأساكفة . (ابن إياس ح ١ قسم أول - ٥٤٨)
**** فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قىلاى فى سنة ثلاث وخمسين (١٣٥٢ - ١٣٥٣م) مشى أحوال الأجناد فى المقايضات والنزولات ، فاشترى الإقطاعات الباعة وأصحاب الصنائع (خطط ٣ - ص ٥٩)

وتزايدت حوادث بيع وشراء الأرض إلى الدرجة التي «* ظهر حوالى ثلاثمائة سمسار ، صاروا يشجعون الحرفيين ويحملونهم على التنازل عن إقطاعاتهم أو تبادلها ، ويأخذون منهم نظير ذلك مائة درهم من كل ألف» (٧٧) .

وكان هذا هو السبب فى إنشاء إدارة خاصة ؛ لإعطاء الشكل النهائى لمثل هذه الصفقات تسمى (ديوان البذل) وكانت قائمة الأسعار المحددة يتم عليها التصديق من الوزير - ومحاولة قائد الممالك السلطانية شيخون العمرى فى تقليص عمليات بيع وتبادل الإقطاعات ، لم يتيسر لها النجاح (٧٨) .

وعلى قدر ما نعرف فإن الممارسة العملية فى مصر ، فى بيع الخزائن للأراضى منذ الغزو العربى لم تجتذب إليها أبدا أراض تستحق الاعتبار ، وبالتالى ، فإن بروز هذه الممارسة العملية فى مصر فى العهد المملوكى ؛ كان مشروطا بنمو التجارة الخارجية ، وتحرير الحرف ، فى ظل غياب أى مجالات أخرى لاحتواء هذه الثروات المتراكمة بمثل هذه الصورة .

وكانت الإقطاعات الواقعة تحت أبدى الملاك الجدد تتفتت بالوراثة ، فاقدة بذلك طبيعتها الطبقيّة الخاصة المتعلقة بالوظيفة الحربية ؛ واقتربت بذلك تماما من الملكية الإقطاعية للأرض .

ويسبب هذا ومنذ منتصف القرن الرابع عشر ؛ ظهر عامل من العوامل التى حدثت من تطور الإقطاع المصرى : فتشكل وازدهار نظام الإقطاع تقابل مع مرحلة التدهور التى أدت إلى نمو أكثر أشكال الملكية الشخصية الإقطاعية تطورا .

غير أنه لافى القرن الرابع عشر ولابعده ؛ فى عصر اتساع صلاحيات ملاك الأراضى ، استطاع الإقطاعى المصرى أن يتحول إلى شبيهه من إقطاعى أوروبا وذلك بسبب النظام الاقتصادى المكتفى بذاته ، الضعيف الارتباط بالعالم الخارجى وظلت مصر فى العصور الوسطى لاتعرف الانقسام النوعى وبقيت بلدا للإقطاع المركز ، وبدون شك ، فإن هذا كان مرتبطا ، فى ذلك العصر ، بالمحافظة على العلاقات القائمة على النقود السلعية ويتواجد المدن القديمة التى لم تكن فقط مراكز للحرفيين وللحياة التجارية بل كانت أماكن تركّز الإقطاعيين وهذا ما سنتكلم عنه فيما بعد .

* وانتدب لذلك جماعة عرفت بالمهيسين ، بلغت عدتهم نحو الثلاثمائة مهيس ، وصاروا يطوفون على الأجناد ويرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها ، وجعلواهم عن كل ألف درهم مائة درهم . (خطوط ٢ ص ٥٩)

هوامش الفصل الثالث

(١) وعن التكوين العنصرى - للسلالة المملوكية الاولى ، انظر :

В. Тизенгаузен, *Сборник материалов, относящихся к истории Золотой Орды*, т. I. Извлечения из сочинений арабских, СПб., 1884, стр. 114, 120, 122—123, 162, 232, 234, 241, 383, 436, 502—503, 505, 513, 540, 542, 544; Ф. И. Успенский, *Византийские историки о монголах и египетских мамлюках*, — «Византийский временник», т. XXIV, Л., 1926., стр. 13—16; . وانظر أيضا -

Poliak, le caractère colonial del' État mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'Or - *REI*, IX, 1935, p. 232 .

وانظر أيضا : العلاقات بين الفوجا والنيل لأمين على الخولى بالروسية ص ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ وأيضاً على حسن ص ٢٦٧

(٢) فى نهاية حكم صلاح الدين كان عدد الجيش المصرى ١٢ ألف شخص (المقرئى خطط ١ ص ١٥٢ وابن إياس ١ ص ٧٠ . وانظر سعداوى أيضا ص ٨ - ١٠) ، ولكن فى بداية القرن ١٤ وطبقا لسجلات الديوان الجيوشى بلغت القوات المصرية فى ١٣١٥ - ١٣١٦ عند المقرئى ٢٤ ألف (خطط ١ ص ١٥٣ ، ٣ ص ٢٥٢) ؛ وفرق التركمان والبدو لا تدخل فى هذا العدد . وعن التأثير المغولى فى بناء الجيش المملوكى انظر

: A.N.Poliak, The Influence of Chingiz Khán's Yasa upon the general organisation of the mamluk state, - *BSOAS* , vol.X, 1942, pt 4, p . 140

(٣) أمراء الأربعين : وهى تعنى غالبا فى المصادر " أمراء جماعات " أو طبلخانات ، وهى الحقيقة فإن عدد جماعاتهم كان يقدر بأكثر من ذلك من الممالك سواء فى مصر أو فى البلاد الأخرى فى الشرق فى العصور الوسطى .

4 - Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte . Ecrite en arabe par Taki - Eddin Ahmed - Makrizi" trad ... par F. Quatremere, Paris 1837, vol.I,pt2, pp. 197 - 202, makrizi, Histoire d'Egypte, trad ... par

E.Bloch, paris, 1908 p. 505; A. Poliak, The Ayybid feudalism, p 431.

5 - D.Ayalon , studies on the structure of the Mamluk army,- *BSOAS*. Vol. XV, London, 1953 , pt 3, pp 448 . 456

وانظر على حسن ص ٢٦٧

(٦) انظر على سبيل المثال : المقرئى ٨ ص ٢٠٠ ، وأيضا W . Popper , Egypt and Syria under the Circassian sultans 1382 - 1468 a.d. Systematic notes to Ibn taghri Birdi's Chronicles of Egypt, - "University of California publications in semitic philology" vol. 15 , Berkeley - Los Angeles 1955, pp. 88 - 89

(٧) وفى "الحلقة" كان من الممكن حقيقة أن ينضم إليها من يأتون من بلاد أخرى مجاورة لمصر ، وهكذا فإن "أبو النداء" ينوه بأحد المغاربة ، يدعى أبو دبوس ، قيل عنه إنه حاكم لجابس (فى شرق تونس) ثم بعد ذلك طرد من هناك فأسرع إلى مصر حيث صار محارباً من محاربى " الحلقة " (أجناد الحلقة) ومنح إقطاعاً مناسباً (IV, cmp . 106)

(٨) انظر C.Becker, Beiträge Zur Geschichte Agyptens unter dem Islam, H.II Strassburg, 1903, S. 94, 109, 195 .

(٩) المقرئى سلوك : ج ٣ ص ٦٧٣

(١٠) ويتفق مع هذا ، ما نقوله ملاحظة ناشر "السلوك" عن مبدأ توزيع ٢٤ قيراطاً ، الذى كان يستند أساساً على مقدار المبلغ الإجمالى المتحصل فى سنة معينة ، ثم صار بعد ذلك مرتبطاً بنوعية الأرض المصرية المناسبة (١ جزء ٢ ص ٨٤١) وبهذه الصورة ، مع الوضع فى الاعتبار الدخول المختلف للأرض فى الحساب ، يصبح من المستحيل الكلام عن المطابقة الجامعة لوحدة ضرائبية واحدة مثل هذه ، تعتمد على المساحة المحددة للأرض ؛ ولهذا فإنه باستثناء الأراضى الزراعية ، يجب الأخذ بعين الاعتبار أن أراضى بعض المزارعى وكذلك أراضى الوقف لم تكن تدخل فى حساب ٢٤ قيراطاً المنوه عنها والملزمة بدفع الخراج .

(١١) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٨٤١

(١٢) نفس المصدر ح ٢ ص ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ؛ وأبو الفدا ٣ ص ٢٠٩

(١٣) المقرئى (خطط) ١ ص ١١٩ والقلقشندي ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٤

(١٤) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٢٨

(١٥) ابن عبد الظاهر ص ١٥٥ وانظر أيضاً تزناوون : В. Тизенгаузен, Сборник материалов, относящихся к истории Золотой Орды, т. I, стр. 163—165, 187, 429, 432, 480.

(١٦) أبو الفدا ٤ ص ٣٤

(١٧) الاستثناء الوحيد المعروف لنا هو الإقطاع الذى وهبه الناصر محمد لأحد «الصقارين»

(مدرّب صقور) : ابن تغريدى ٩ ص ١٧٠

(١٨) ابن عبد الظاهر ص ٢٠٧ - ٢٠٨

(١٩) المقرئى (سلوك) بالانجليزية ١ ح ٢ ص ٥٢٠

(٢٠) المقرئى يحكى أن عدداً من أطفال الأمراء «الصالحين» ، (وهذا يعنى أنهم كانوا

ممالك سابقين للسلطان الأيوبي : صالح نجم الدين أيوب) اشتغلوا بالفنون والحرف ، وتم ضم البعض منهم إلى القوات والبعض الآخر منحوا مرتبات ، وذلك في عهد السلطان السعيد ناصر الدين (١٢٧٧ - ١٢٧٩) - السلوك ١ ح ٢ ص ٦٥٨ والحادث الوحيد المعروف لنا هو ترقية ابن أمير إلى رتبة أمير عشرة وذلك في ١٢٨٠ - ١٢٨١ في كتاب السلوك ١ ح ٣ ص ٦٧٧ واستثناء من هذا ما حدث في أثناء حكم واحد من سلاطين المماليك الأتراك وهو الأشرف شعبان ؛ فقد صار الكثير من « أولاد الناس » أمراء عشرة وأمراء أربعين وتم تعيين بعضهم حكاما للأقاليم السورية : ابن إياس ١ ص ٢٣٥ وانظر أيضا ابن الفرات ٩ ح ١ ص ٤٥ ، وابن دويدار ص ٢٤٥ وانظر أيضا

D.Ayalon, studies on the structure of the mamluk army,- BSOAS, Vol .XV, 1953, pp. 457 - 458)

(٢١) كان الأمراء هم الذين يملكون حق شراء المماليك - أما التابعين الآخرين فكانوا ممنوعين عن هذا بصرامة ..

(٢٢) انظر على سبيل المثال : المقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ٢٦٩ ، وابن تغريبدى ٩ ص ٤١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢٣) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٢٥ وانظر أيضا القلقشندي ١٣ ص ١٢٧ ، وابن دويدار ص ٢٤٥ .

(٢٤) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ٢٢٨ .

25 - K.S. Salibi, The Buhturids of the Garb Mediaeval lords of Beirut and of southern Lebanon,- "Arabica" Vol VIII, 1961. fasc. 1,p. 87

(٢٦) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ٢ ح ٢ ص ٣٧٤ ، وانظر أيضا أبو الفدا ٤ ص ١١٧ ، ١٤٨ - ١٤٩ ، وكثير من الحقائق السابق ذكرها والخاصة بمنح الإقطاعات من سلاطين المماليك الأوائل يتضمنها واحد من أجزاء كتاب «العبر» لابن خلدون وهو الجزء الخامس صفحات ٣٦٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٤١٥ .

(٢٧) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٢٨) انظر W. Popper, Egypt and Syria... P. 104 .

(٢٩) المقرئى (سلوك) ١ ح ٣ ص ٦٧٣ .

(٣٠) المقرئى (خطط) ٣ ص ٣٥١ .

(٣١) في بعض الأحيان ، بدلا من المنح الشهرية كان يتم تقديم سلف على فترات زمنية أطول .

(٣٢) المقرئى (خطط) ٣ ص ٣٥٥ والقلقشندي ٤ ص ٥١ ، ٥٥ : .. وأمراء الحلقة ذوو المكانة الأقل - يكتفون بالدخول من إقطاعاتهم ، فإذا جاء أحدهم الموت وفرضت عليه العقوبات ، أولأى أسباب أخرى ، فإن إقطاعه يعود إلى الحكومة قبل مرور سنة قمرية ، أما المبالغ التي تسلمها قبل ذلك كمنحة ، ولم يكن لها أى أساس وكذلك مبالغ النفقات الخاصة والزيادة في المبالغ المدفوعة له

فيجب أن تعود إلى الإدارة الخاصة وهي ديوان المرتد طبقا لما أشرنا إليه سابقا من حساب السنة القمرية والشمسية (والفرق بينهما ١١ يوما في كل عام)

وعادة ما كان يتم خصم هذا المبلغ مرة واحدة في عهد السلطان : الكامل سيف الدين شعبان ١٣٤٥ ، ولكن كان هذا يتم بشكل آخر في عهد السلطان الظاهر برقوق : (المقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ١٨ - ٢٠ : والتويرى ٨ ص ٢٠٤ .

C. Becker, islamstudien S . 271 : CIA, 11, pp. 94 - 95 .

(٣٢) ابن عبد الظاهر : ص ١٠٧ ، والمقرئى (سلوك ١ ح ٢ ص ٦٣٩) يقدمان الرقم الإجمالي على أنه ١٢٠ ألف إردب ، وابن تغريبدى يوضح إمكانية الدخول الكبيرة المنوه عنها (سواء كانت عينية أو نقدية) في عهد بيبرس الذى نحى القبط عن إدارة هذه الأعمال ، واشتغل معظمهم في ذلك الوقت - بسبب سوء أوضاعهم - في أعمال البناء والتجارة (٣٤) المقرئى (سلوك ١ ح ٢ ص ٨٤٥

(٣٥) المقرئى (سلوك ١ ح ٢ ص ٦٤٥ ، ٦٥١

(٣٦) المقرئى (خطوط) ١ ص ١٤١ وأيضا (سلوك ١ ح ٢ ص ٨٦٥

(٣٧) المقرئى سلوك ١ ح ٣ ص ٨٤١ وانظر أيضا : Аноним, стр. 45;

وأبو الفدا ٧ ص ٤٩ وابن تغريبدى النجوم ٨ ص ٩٢ وفي رواية أخرى مقدمة من ابن تغريبدى يقول فيها إنه قد تم تخصيص ١٦ قيراطا للأمراء والحلقة (النجوم ٨ ص ٩٣) وابن خلدون ، يتميز بأنه لم يحدد الأرض المخصصة للقوات الجديدة من الأراضي العامة ، وطبقا لما يؤكد فإن الأمراء والحلقة «تسلموا بالجملة عشرة قراريط والباقي وقدره أربعة عشر قيراطا ظلوا للسلطان » ح ٥ ص ٤١٠ . وهذه الروايات لا تتغير في كثير من الأعمال .

(٣٨) المقرئى (خطوط) ١ ص ١٤١

(٣٩) المقرئى سلوك ١ ح ٢ ص ٨٤٢

(٤٠) نفس المصدر ص ٨٤١

(٤١) المقرئى (خطوط) ١ ص ١٤١ ، وعن تنظيم الحماية للخلفاء انظر :

Cl .Cahen,Notes pour l'histoire de la Himaya - " Melanges Louis Massignon" Damas. 1956.

42 - Poliak, Feudalism p. 25 .

(٤٣) المقرئى (سلوك ١ ح ٣ ص ٨٨٢ - ٨٨٣ وابن تغريبدى النجوم ٨ ص ٩٤ - ٩٥ .

44- Аноним, стр. 47—50;

وابن إياس ص ١ ص ١٣٧

(٤٥) المقرئى (سلوك ١ ح ٣ ص ٨٦٢ - ٨٦٤ ، وابن تغريبدى (النجوم) ٨ ص ٩٥

(٤٦) المقرئى (سلوك ١ ح ٣ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ ؛ ح ٢ ص ٢٢ - ٢٣ ، ١٢٨ ، ١٤٦ :

وابن تغريبدى (النجوم) ٦ ص ٤٢

(٤٧) المقرئى (خط) ١ ص ١٤٤ - ١٤٥ وانظر أيضا التلقشندى ١٣ ص ١٨١ - ١٨٢ .

Аноним, стр. 164.

(٤٨) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٤٩

(٤٩) المقرئى (خط) ١ ص ١٤٥

(٥٠) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٥٦ - ١٥٧ ؛ والمقرئى (خط) ١ ص ١٤١ ، وانظر أيضا :

ابن تغريبدى (النجوم) ١١ ص ٥٤ - ٥٥

(٥١) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٥٦

52 - Silvestre de Sacy, Sur la nature ... p. 228, Caudefroy- Demombynes, La Syrie à l'époque des mamelouks d'après les auteurs arabes, Paris, 1923, pp. XXX, XLI; C.Becker, Islamstudien, S. 68.

(٥٣) ابن بويدار ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ؛ وابن تغريبدى (النجوم) ٩ ص ٤٢ ، ٤٦ ، ١٧٧ ، والمقرئى

(خط) ١ ص ١٤٦ ، والمقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ١٥٠ - ١٥٣ ، أبو الفدا ٤ ص ١٣٨ وجمال الدين

السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ٢ القاهرة ١٢٩٩ م ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٥٤) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٥٠

(٥٥) نفس المصدر ص ١٥١

(٥٦) المقرئى (خط) ١ ص ٢٥٣

(٥٧) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٥٦

(٥٨) نفس المصدر ص ٢٣١

(٥٩) نفس المصدر ص ٥١٧

(٦٠) ابن إياس ١ ص ١٩٠

(٦١) وفيما يتعلق بهذا ، فمن الطريف أن ننكر بعض أخبار المؤرخ السورى : سبت بن الجوزى

. وينص كلماته ، فإن المظفر عيسى ابن أخ صلاح الدين والحاكم السابق لدمشق (١٢١٨ - ١٢٢٧) قال إن

فى سوريا ألفين قرية فى ذلك الزمن ؛ منها ١٦٠٠ قرية تخص الوجهاء ، ٤٠٠ قرية تخص السلطان كإراض

عامة : (RHC, V, P. 178) وانظر أيضا ابن تغريبدى (النجوم) ٦ ص ٢٣٩ .

(٦٢) ابن عبد الظاهر ص ١٧٩ - ١٨٠ والمقرئى (سلوك) ١ ح ٤٩٢ ، ٥٨٦ - ٥٨٧ ،

٧٣٥ ، وابن إياس ١ ص ١٦٤ ، وابن تغريبدى (النجوم) ٩ ص ٣٦ ..

63 - Аноним, стр. 160—161;

والمقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ٢٦٤ وابن إياس ١ ص ١٥٩

(٦٤) المقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ١٧٦ .

- (٦٥) نفس المصدر ص ١٢٧ وأيضا A. Poliak, Feudalism ..., p. 24
- (٦٦) المقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ١٣٦ .
- (٦٧) وتحت اسم مصر الذى يعنى الفسطاط عادة عند مؤلفى الأيوبيين والمماليك ، إذ كانت (العاصمة القديمة) وهى الآن جزء من القاهرة وتقع ما بين النيل وسطح جبل المقطم ، والفسطاط هى العاصمة المصرية التى أسسها عمرو بن العاص فى ٦٤١م أنظر
- S.Lane - Poole, a history of Egypt in the middle ages, London, 1936, p-17)
- (٦٨) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٤٢٠ ، ٢ ح ١ ص ١٢٧ .
- (٦٩) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٣٨٤ ، ٢ ح ٢ ص ٩٠٦ - ٩٠٧ ، والقلقشندي مستفيداً من هذا الافتراض يقول إن السلاطين المماليك كان من ديدنهم أن يهبوا هذه الأكارث (الضياع) علاوة على مبان كبيرة لامراء المائة ٤ ص ٥٥
- (٧٠) ابن إياس ١ ص ١٥٦ وأيضا ص ١٢٣ وأنظر ابن تغربردى (نجوم) حيث يقدم مثالا مشابها تحت (١٢٩٥ - ١٢٩٦ م) - ٨ ص ٧٩
- (٧١) انظر ما سبق فى الفصل الثانى .
- (٧٢) المقرئى (خطط) ٣ ص ٣٥٥
- (٧٣) ابن إياس ١ ص ١٨٤
- (٧٤) ابن تغربردى ه نجوم ١٠ ص ٢٠٨ - ٢٠٩
- (٧٥) نائب السلطان : وهو عادة يكون واحدا من الأمراء نوى النفوذ ، ويكون بمثابة المستشار الأول للسلطان فى إقرار كافة الأعمال الحكومية ، وكان السلاطين من السلالة التركية عادة يعينونه بأنفسهم وقت اعتلائهم العرش ، ولكن فى سلاطين السلالة الشركسية لم تكن هذه الوظيفة موجودة دائما ، بل كان السلطان منهم يقوم بتعيين نائب له فقط أثناء غيابه عن العاصمة ويسمى (نائب الغيبة) . انظر M. Caudefroy - Demombynes:
- La syrie P.LVI; W Popper, Egypt and Syria ..., p. 90
- (٧٦) المقرئى (خطط) ٣ ص ٣٥٦
- (٧٧) نفس المصدر ص ٣٥٥
- نفس المصدر ص ٣٥٦ وأنظر أيضا : ابن تغربردى (النجوم) ١٠ ص ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٦٧ - ١٦٨ .

الفصل الرابع

أملاك الوقف في العهدين الياويين . والمملوكي المبكر

الفصل الرابع

أملاك الوقف في العهدين الأيوبي ، والمملوكي المبكر

وشبيهه بالمسيحية في أوروبا الغربية ، فإن الديانة الإسلامية في الشرق ، في العصور الوسطى أقامت «أكثر التركيبات شمولية وأكثر مصادقات النظام الإقطاعي القائم عمومية»^(١) . وكدين للمجتمع الإقطاعي المشكل في بداية القرن الثاني عشر ، برز الإسلام السني ونظامه المدرسي المعقد في "علم الكلام" (ومؤسس هذا العلم ، هو الفقيه العربي : الأشعري : (٨٧٣ - ٩٣٥ م .) الذي اعتمد في مذهبه على معاني السنة السلفية ، وعلى تقديس عبادات العامة ، وأخذ هذا المذهب شكله النهائي في فئة فقهية خاصة .

واستقرار حكم الأيوبيين في مصر صاحبه إلغاء الشيعة الفاطمية السائدة ، وإرجاع السنية في شكلها الجديد الأكثر تطوراً بالمقارنة بالشكل الإسلامي الأول .

والمقريزي يشيد بالتعصبية الصارمة لصلاح الدين وميله لعلم الكلام «وأما مايمس* العقيدة فإن السلطان صلاح الدين قد تبنى بشكل كامل أفكار الشيخ : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري»^(٢) .

وتوضح المصادر بالتفصيل تاريخ عودة مصر إلى السلطة الروحية للخلفاء العباسيين ؛ ففي السنوات الأولى من حكم صلاح الدين لمصر ؛ وكان ما يزال مجرد نائب لنور الدين ، كتب صلاح الدين إلى البلاط العباسي في بغداد عن استحقاق مصر للعودة إلى حضن السنية ، وقام الخليفة العباسي ومن بعده المستهدى بتوجيه اللوم إلى نور الدين لتوانيه في إرجاع السيادة العباسية على مصر ويفرض الإسراع لتحقيق هذا الهدف ، وافق نور الدين على أن يتوجه نجم الدين أيوب إلى مصر .

؛

* فلما ملك صلاح الدين ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيس بن درباس الماراني على هذا المذهب ... فقد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، وعقد صلاح الدين وأولاده الخناصر وشذوا البنان على مذهب الأشعري وحمّلوا في أيام دولتهم كفاة الناس على التزامه .. المقريزي خطط ٢ ص ٣٠٦

وكما بينا سابقا ، فإن السلالة الفاطمية سقطت في ١١٧١ م . ، وبعد مرور ثلاث سنوات فقط أي بعد موت نور الدين ، اعترف الخليفة العباسي : المستهدى بسلطة صلاح الدين في مصر ، ومنحه لقب سلطان (٣) .

وفي ١١٧٤ - ١١٧٥ م . صدق الخليفة العباسي على غزوات صلاح الدين ، مرسلا له مرسوم الاعتماد وملابس التكريم (٤) . وكانت سلطة خلفاء صلاح الدين في مصر معتمدة من العباسيين (٥) . وفي ١٢٣٧ - ١٢٣٨ . قدم الأيوبيون للخليفة المستنصر مساعدات نقدية في صراعة ضد المغول (٦) . وبالرغم من ذلك ؛ استولى المغول على بغداد في ١٢٥٨ م وتم قتل الخليفة البغدادى الأخير : المستنصر .

وهرب أحد أنجال العباسيين الناجين إلى دمشق ، وتم استدعاؤه إلى مصر بأمر من السلطان بيبرس بعد ذلك ، وإعلانه خليفة تحت اسم أحمد المستنصر ، وكان ذلك في ١٢٦١ م (٧) . والخلافة المنقولة إلى مصر بهذه الصورة ، ظلت بها حتى الغزو التركى . وكانت سببا في توطيد حكم السلاطين المماليك الأجانب الجالسين ، اعتبارا من هذا التاريخ على العرش ، والمتنعمين بالرضا المباشر للخلفاء ، وهكذا فإن الوثيقة الملائمة والمسلمة إلى بيبرس يقال فيها « * أمير المؤمنين يشرككم على مساعداتكم ، إذ بدون رعايتكم لكان وضعنا أكثر صعوبة ، وهو يخلع عليكم السيادة على مصر وسوريا وديار بكر والحجاز واليمن وشواطئ الفرات ، وكل الجبال والوديان التى ستقومون بغزوها » (٨) .

وصارت مصر منذ هذا الوقت مركز العالم الاسلامى ، والسفراء يفدون إلى القاهرة من كل الدول الإسلامية ومعهم هدايا هم إلى الخليفة ، الذى هو بالرغم من كل هذا لا يمتلك مطلقا أية سلطة حقيقية .

وعودة السنية إلى مصر السلطانية ، يدل على الصراع الحاسم مع المذهب

* وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قللك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريه والحجازية واليمينية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكانم فردا ... ص ١١٣ ح ٧ ابن تغرى بدى نجوم طبعة دار الكتب المصرية .

الشيعة بكل مظاهره . فالإصلاح الديني على يد صلاح الدين لم يواجه مقاومة تذكر في مصر ، أما في سوريا فقد حدثت له عدة صدامات مع الشيعة في أقاليم الفرقة الإسماعيلية المعروفين أيضا "بالحشاشين" والذين كانوا قد أنشأوا منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، تنظيمهم السري ، واتخذوا من قلعة "الموت" قاعدة لهم ، وهي تقع على الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين ، وأيضا بعض القلاع الإيرانية . والحشاشون قاموا بدعاية ناجحة قائمة على نظريتهم في سوريا التي تعتبر المهد الأول للإسماعيلية ، واستطاعوا بالاستفادة من أهدافهم أن يخلقوا بين الأهالي الكادحين طابعا معارضا (٩) . وقبل أن يقوم الأيوبيون بمصادقة الإسماعيليين ، كانوا قد اخضعوا قسما من جبال لبنان ذات التحصينات المنيعة ، وكان الشيخ رشيد الدين سنان (١١٦٩ - ١١٩٢ م .) إمام الإسماعيليين السوريين في ذلك الوقت ، وهو من الحشاشين الذين استقلوا عن الأئمة الكبار لقلعة الموت ، يقود صراعا ناجحا ضد قوات السلجوقي المعروف أتابك نور الدين زنكي .

واعتلاء صلاح الدين للعرش مهد السبيل لبعض التقارب بين الإسماعيلية وأحفاد نور الدين الذين كانوا في ذلك الوقت أعداء لصلاح الدين في صراعه مع سوريا . وتستضيئ المصادر بأمثلة تفصيلية عن مدى تعامل صلاح الدين مع الإسماعيليين السوريين ، فالواضح من خطاب صلاح الدين إلى الخليفة البغدادي ، أنه يتهم حاكم الموصل بتضامنه مع الإسماعيليين ، وباستخدامه لهم كوسطاء بينه وبين الفرنجة مشيرا إلى دوره الخاص كحام للإسلام من التهديد الثلاثي : الفرنج الكفرة ، والحشاشين المارقين ، والزنكيين الخونة (١٠) .

برجاء من كومو شتاجن حاكم حلب وكان وصيا على صغير السن صالح ؛ وجه رشيد الدين سنان فدائييه إلى صلاح الدين ليحاولوا قتله مرتين : مرة في ١١٧٤/١١٧٥ م ، والأخرى في ١١٧٦ ، ومن الممكن أن يكون السبب المباشر للمحاولة الأولى كامنا في الحوادث التالية ؛ ففي هذه السنة هجم عشرة آلاف من فرسان السنيين وأعضاء جماعة النبوية على حصون الإسماعيليين في "الباب" و"البوزاء" وقتلوا ثلاثة عشر ألفا منهم ، وأخذوا منهم الأسرى والغنائم الكثيرة ، واستغل صلاح الدين

هذا الارتباك الواضح ، ووجه قواته نحو قلاع صارمين ومعرة مصرين وجبل السماك وحطم أغلبية الإسماعيليين (١١) .

وبعد محاولة الاغتيال الثانية فى يوليو ١١٧٦م . ، هجم صلاح الدين بفرقة على مواقع الإسماعيليين وحاصر قلعة «المصيف» ، وبعد ذلك فك الحصار ورحل ، وسنرى كثيرا من التأويلات المختلفة لهذا الحادث . فبدون أدنى شك ، كان صلاح الدين قد توصل إلى اتفاق محدد مع كبار الإقطاعيين الإسماعيليين ؛ إذ إن الإسماعيليين لم ينهضوا بعد ذلك أبدا لمهاجمة صلاح الدين ، ويبدو أن الإسماعيليين قد خشوا أيضا من تزايد قوة الأيوبيين فى مصر . ولكن صلاح الدين أيضا من ناحية سعى للاستفادة من الإسماعيليين فى صراعه ضد الصليبيين ، وكان اغتيال الزعيم الصليبي المعروف : المركيز كونراد مانفرد فى صور ١١٩٢م . على يد الإسماعيليين - على الأرجح - واحدا من بنود هذا الاتفاق (١٢) .

ويتفق مع هذا ماتم جمعه من معلومات ، فى القرن الرابع عشر ، تتضمن مجموعة حوادث من حياة رشيد الدين سنان ، ومنها يتضح أن صلاح الدين منح الإسماعيليين ، من أجل هذا ، بعض القرى المجاورة بقلعها وسمح لهم بفتح «بيوتهم للدعاية» فى القاهرة ودمشق وحلب وفى أماكن أخرى ، مع أن هذا يمثل احتمالا ضعيفا ؛ لأنه يتعارض مع جوهر سياسة صلاح الدين نفسه (١٣) .

واستأنف الإسماعيليون صراعهم ضد الزنكيين بمجرد وصولهم إلى اتفاق مع صلاح الدين (١٤) . وواصل خلفاء صلاح الدين سياسته فى علاقاتهم مع الإسماعيليين ، وكانوا يقدمون لهم المساعدات الحربية فى الظروف الضرورية ؛ فمن المعروف أنه فى ١٢١٣م. بعد اغتيال ريموند وابن بئيموند الرابع حاكم أنطاكية فى طرطوس على يد الإسماعيليين (فيما يبدو لم يكن للأيوبيين علم بذلك) - أن بئيموند الرابع أرسل حملة عسكرية ضد الإسماعيليين فى حلب ، مما دعى الإسماعيليين للجوء إلى طلب المساعدة من حاكم حلب الظاهر بن صلاح الدين ، لكن قوة الظاهر فى صد هذا الهجوم كانت غير كافية ؛ لذا فإنه لجأ إلى الأفضل الموجود حينئذ فى دمشق ، فأرسل الأفضل جيشه وأرغم الصليبيين على فك الحصار (١٥) . وعلى هذا النحو ، تم للأيوبيين إزاحة

مذهب الشيعة الإسماعيلية ، لكنهم لم يرفضوا أن يستفيدوا من تنظيمهم السرى فى أهدافهم السياسية .

وسياسة الممالك تجاه علاقاتهم بالإسماعيليين كانت أكثر قسوة وحسما ، فالسلطان بيبرس وضع نهاية لوجودهم المستقل فى ١٢٧٢م ، ، واستسلمت القلاع الأخيرة للإسماعيليين للجيش المملوكى (١٦) . وكان على كافة هذه الأقاليم الخاضعة أن تدفع الضرائب الملائمة ، وقرر معظم الأمرين على القلاع العمل فى خدمة الممالك ؛ «فالمصيف» كما قلنا سابقا ، دخلت ضمن الممتلكات الخاصة للسلطان ، وكفت عن أن تقوم بأى دور سياسى (١٧) .

والانتصارات على الصليبيين ، مهدت السبيل أمام تعزيز التعصب الدينى ، الذى قمع بدوره التطور الفكرى العلمى بالمقارنة بالحرية النسبية التى كانت ملمحا لعصر الفاطميين (١٨) .

فى ١١٩١م. تيسر للمذهب السنى أن يقوم بإعدام الحلبى المعروف : السهرودى ، وهو الفيلسوف الحر (١٩) . أما الفيلسوف الأندلسى ابن سابين (١٢١٦-١٢٧٠م) ، فقد تعرض للمطاردة واضطر لقضاء جزء كبير من حياته فى مكة ، وتم طرد الفقيه المشهور فى ذلك الوقت ؛ ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) من حران هو وتلاميذه ومريديه (٢٠) .

والكثير من مثل هذه الأعمال قام به القضاة الرئيسيون ؛ علاوة على التدعيم البعيد المدى للمذهب السنى ، والذى اتضح فى وضع قضاة المذاهب الأربعة ، فى عهد الممالك - موضع التساوى . فالقاضى الرئيسى ، حتى ذلك الوقت ، فى كل من مصر وسوريا ؛ كان يحمل لقب «القاضى الشافعى» . ولكن بيبرس فى ١٢٦٥م قام ، لأول مرة بتعيين أربعة قضاة رئيسيين للمذاهب الأربعة (الشافعية والحنبلية والمالكية والحنفية) فى القاهرة ؛ وكان كل منهم مستقل عن الآخر . وفى السنة التالية حدث نفس الشئ فى دمشق (٢١) .

وبين أعضاء الطائفة الشيعية السرية الذين يسكنون فى الأقاليم الجبلية فى شمال سوريا ، توسعت السنية بالقوة فى بداية القرن الرابع عشر فى إنشاء المساجد الخاصة بها فى كل قرية (٢٢) .

وتعرضت مراكز العلم والدعاية الشيعية للقضاء عليها ؛ دار العلم ودار الحكمة . علاوة على أنه تم تخريب المكتبة الفاطمية الشهيرة في القاهرة (٢٣) ؛ وصارت الهيئات المشابهة تظهر في شكل جديد يسمى «بالمدارس» ، حيث كان المذهب السني هو التعليم الأساسي فيها . ومؤسسو هذه المدارس هما : الوزير المشهور للسلطين السلاجقة : «إلب أرسلان» ومالك شاه نظام الملك ، وهما اللذان قاما بافتتاح المدرسة النظامية في بغداد (١٠٦٧ م .) (٢٤) .

وانتشرت هذه المدارس منذ ذلك الوقت انتشارا واسعا في الأقاليم التي تسيطر عليها السنية ، ومن بينها الأقاليم الزنكية ، ولكن هذه المدارس لم تظهر في مصر إلا في منتصف القرن الثاني عشر .

« وهو قد حاكى في ذلك ، الحاكم الأصيل نور الدين محمود بن زنكى ... هكذا يكتب المقرئى* عن صلاح الدين - الذى أقام في دمشق وحلب عددا كبيرا من المدارس للمذهبين الشافعى والحنفى » (٢٥) . وفى مكان آخر يقول المقرئى عن نور الدين زنكى إنه كان حنفيا ونشر هذا المذهب في سوريا ، ويستمر المقرئى « ومن هنا فإن الحنفيين في مصر قد ازداد عددهم وأتيح لعدد كبير منهم أن يأتى من الشرق إلى هنا » وتفاصيل كثيرة تقال عن شخصية صلاح الدين ، « وشيد لهم السلطان** صلاح الدين مدرسة "السيوفية" في القاهرة ولم يكف هذا المذهب منذ ذلك الوقت عن الانتشار ، وعدد فقهاءه قد والى ازياده ، وأقام هو في مدينة مصر مدرسة لفقهاء الشافعية ومدرسة لفقهاء المالكية ، وأبعد هو كل الفقهاء الشيعيين» (٢٦) .

وهناك مدرستان كبيرتان من بين المدارس المنوّه عنها ، كانتا قد أقيمتا حتى قبل سقوط الدولة الفاطمية في ١١٧٠ م . ويقف على رأس مؤسسى هاتين المدرستين .

* « واقتدى بالملك العادل محمود بن زنكى ، فانه بنى في دمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس للشافعية والحنفية وبنى لكل من المذهبين مدرسة بمدينة مصر (المقرئى .. خطط ٣ ص ٢١٥)

** « فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر وأقام بها مذهب الإمام الشافعى ومذهب الإمام مالك ... وأقام مدرسة السيوفية ووقفها على الحنفية ... إلخ » خطط ٢ ص ٣١٨

الأمير صلاح الدين والتجار والأغنياء ونساء عائلات الأعيان . وأسس القاضي الفاضل مدرسة الفاضلية (٢٧) . وظهرت هذه المدارس في الحجاز في نفس هذا العام .

واستمر بناء هذه المدارس في عهد خلفاء صلاح الدين « وفي الأقاليم * السورية وفي الجزيرة أقام أحفاده وأمرأؤه المدارس ، وسار على منواله حكام مصر الحاكمين بعده ومن بينهم السلاطين والأمراء الأتراك ، فهم قد حاكوه في هذا حتى أيامنا هذه » (٢٨) .

وابن أخى صلاح الدين : المظفر تقي الدين عمر - الذى سبق التنويه عنه - « أسس ** مدرستين بالفيوم (لشافعية والمالكية) وأسس على منوالهما مدرسة في القاهرة وأخرى في الرها » (٢٩) .

وفي عهد الصالح نجم الدين أيوب تم بناء مدرسة ، يتم فيها تعليم أساسيات المذاهب السنية الأربعة مباشرة في مكان واحد (٣٠) . [رتب فيها الصالح] دروسا أربعة للفقهاء المنتمين للمذاهب الأربعة ، وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة في مكان واحد ، وتفوق بيبرس على جميع السلاطين الأوائل من المماليك الذين أخذتهم الحمية في بناء المدارس (٣١) .

وتمثل المظهر الآخر للرجعية السنية فيما يسمى صوفية : مبدأ وحدة الوجود (تأليه الكون) كتيار إسلامي ذي أصل إيراني ، حيث كان الوضع الاجتماعى هناك - خاصة الغزو السلجوقي - يسهل تطوير مثل هذه الأفكار المهرطقة (٣٢) .

والصوفية في صيغتها الأصلية مكتسبة من الإمام الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١ م .)

* « ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاط الشامية والجزيرة أولاده وأمرأؤه . ثم هذا حذوه من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا . (المقرئى .. خطط ٣ ص ٣١٥) .

** « وله بمدينة الفيوم مدرستان إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية وبنى مدسة بمدينة الرها وأخرى بالقاهرة . (خطط ٣ ص ٣١٥) ، خطط ٤ مطبعة النيل ص ٢٠٩ ورتب فيها (الصالح نجم الدين أيوب) دروسا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة في سنة إحدى وأربعين وستمائة وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة في مكان .

وجدت في مصر أخصب تربة ملائمة لها . وفي العهد الأيوبي صارت تظهر الخانقات والبيعُ الصوفية في البلاد (٢٢) .

والمقريزي يقول إن صلاح الدين * بعد استيلائه على السلطة مباشرة ، وهب مبنى من أكثر المباني في القاهرة - كان مخصصا للوجيه الفاطمي السابق سعيد السعداء «لصوفيين الفقراء القادمين من البلاد البعيدة وأسكنهم هناك في ٥٦٩ هـ (١١٧٣ - ١١٧٤ م)» ونصب عليهم شيخا وأعطاهم وقفا .. وتم بناء حمام لهم بجوار مبناهم وكانت هذه الخانقاه أول مظهر في الأرض المصرية ، وكان شيخها يسمى شيخ الشيوخ» (٢٤) .

وأرملة نور الدين ، ثم عصمت الدين زوجة صلاح الدين ، ومعهما القاضي الفاضل قاموا بإنشاء خانقتين صوفيتين في دمشق (علاوة على المدرسة الحنفية والمدافن) (٢٥) ، وهذه الخانقات قامت بدورها في التبشير في عهد صلاح الدين (٢٦) .

وواصلت هذه الخانقات أو الأديرة الصوفية ازديادها في عهد المماليك ، ففي ١٣٠٧ - ١٣٠٨م كان قد تم بناء خانقاه في القاهرة للركن الأمير بيبرس جاشانجير الذي أصبح سلطانا فيما بعد (٢٧) . وتأسست خانقاه كبيرة في سوريا قوس بالقرب من القاهرة ، وأعيد أيضا تجديد بعض الخانقات المنشأة سابقا (٢٨) .

* « هذه الخانقاه ... كانت دار تعرف في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء وهو الأستاذ قنبر ... قُتل ورمى برأسه من القصر ثم صلبت جثته بباب زويلة ... فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بملك مصر ... عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم سنة تسع وستين وخمسائة وولى عليهم شيخا ... وبنى لهم، حماما بجوارها ... فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر ... وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ (خطوط ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤) .

وردد عند القلقشندي : « وأما الخوانق والربط فمما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية ، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين ... فابتنى «الخانقاه الصلاحية» المعروفة بسعيد السعداء ، وسعيد السعداء لقب لخادم المستنصر الفاطمي اسمه قنبر ، كانت الدار له ... فلما ملك السلطان صلاح الدين جعلها خانقاه ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بزقاق البركة » (القلقشندي ٢ ص ٣٥٥)

وواصل أمراء الممالك والتجار الأغنياء بناء هذه الخانات (٣٩).

والصوفية المؤمنة بالأفكار المسألة للقهر والخضوع له ، والهائلة في الاستغراق الذاتي ، كانت هي السلاح الإضافي اللازم للإجبار الاقتصادي ، الذي خول طبقة الإقطاع أن تضمن امتثال الأهالي الكادحين لها .

والحكومة لم تكن فقط « لاتمنع الصوفيين عن صرف الناس عن النزعات الثورية » بل كانت كما لاحظ شتراوس بحق ، ترى « أن هذه الحركات الصوفية في ذلك الوقت صارت قسما من المنظمات الحكومية » (٤٠).

وإلى جانب الصوفية الأرثوذكسية كانت هناك بعض التيارات المهرطقة الأخرى ، لكنها كانت تواصل الوعظ بعدم الطمع وبالرضا والقناعة وتبرير البؤس عن طريق التنديد بالثروات ، ووجد السلاطين في انتشار هؤلاء بين الناس البسطاء ، خاصة الحرفيين منهم (٤١) ، ما يحول دون انتشار الصوفية الحقيقية المنوه عنها سابقا - للسهرودي وابن سابين .

وانبعاث السنية في مصر لم يستصحبه أي تغييرات مبدئية من ناحية الحكومات المصرية في علاقاتها بغير المسلمين (الذميّين) تلك العلاقات التي تتحدد تراثيا فيما يسمى «بوصية عمر» التي كانت تتغير طبقا للموقف السياسي (٤٢).

وكان الرؤساء الدينيون هم الوسطاء ما بين الحكومات المصرية وغير المسلمين : البطارقة (للقبط ، واليعاقبة ، والمسيحيين الأرثوذكس) والحاخامات (لليهود) (٤٣).

وسعى صلاح الدين من ناحيته أن يحد من الحكم الذاتي النسبي للمجتمعات الدينية ، معينا موظفا خاصا للإشراف على اليهود في كل من سوريا وفلسطين (٤٤).

وكان المسيحيون في عهده يقعون أحيانا تحت المطاردة ، ولكن أغلبهم كان يتجنب إشعال نيران التعصب الديني ؛ لأنهم كانوا متمسكين بتقوية النضال ضد الصليبيين . وفيما يبدو فإن اضهادهم مهد السبيل لأبعد الحدود لتحويلهم إلى الإسلام : فابن جبير يقول : إن المبلغ الاجمالي المأخوذ منهم كضريبة (جزية) قل في عهد صلاح الدين (٤٥) ، وسيأتي الحديث عن هذا فيما بعد .

وخلفاء صلاح الدين - مراعاة منهم لظروف النضال السياسى أثناء الحروب الصليبية - كانوا غير متعصبين إلى حد كبير ، والكنيسة القبطية أعلنت أن السلطان الكامل نفسه كان من أكثر الحكام المسلمين تسامحا ، وعن تسامح الكامل هذا ، فإن مذكرات الإمبراطور «فردريك تحكى الكثير»^(٤٦).

ومؤسس نظام أخوية الفرنسيسكان (فرنسيس أسيز) قد حضر إلى مصر فى ١٢١٩ م . بهدف تحويل الكامل إلى الكاثوليكية وأخيرا توقفت محاولات من هذا النحو تجاه السلاطين المصريين^(٤٧).

وأدت الحملة الصليبية بقيادة «ليودفيج» الرابع إلى تسريع حدة العداء ، خاصة فى مصر وسوريا ، فقد عملت على تشديد الدعاية المعادية للمسيحية فى هذه الفترة بالضبط ، مما أوصل الجدل الدينى اللاهوتى الموجه ضد المسيحيين إلى أقصى درجة له^(٤٨).

وكان المسيحيون المارونيون فى شمال لبنان يقومون بتقديم المساعدات للصليبيين بشكل فعال خاصة مساعداتهم التى ظهر أثرها فى المقاومة الطويلة المدى لولاية طرابلس .

وخوف الممالك من عودة الصليبيين بعد طردهم واستئناف علاقاتهم مع المارونيين مرة أخرى ، جعلهم يوجهون حملة عسكرية إلى كسروان تم فيها هزيمة المارونيين نهائيا فى ١٣٠٦ م. ، وتوزعت أراضيهم على شكل إقطاعات لأمرأء دمشق^(٤٩).

وفى مصر نفسها ، وردت عدة حقائق فى العهد المملوكى المبكر عن تخريب أو إغلاق الكنائس فى مدن مختلفة ، وأحيانا كان هذا يتم مصحوبا بطرد غير المسلمين من الهيئات الحكومية دون أن يكون لهذا أية علاقة بأية حوادث خارجية^(٥٠).

وأكثر هذه الأشكال حدة ، كان هو الاندفاع المشابه لمثل هذه الأحداث فى ١٣٢١ م. ، وفيه تم تحطيم الكنائس فى كل مصر ، واستطاع الناصر محمد فقط بجهود كبيرة أن يعيد النظام مرة أخرى وأن يعلن عن استئناف العمل «بوصية عمر» وتحريم استخدام المسيحيين فى وظائف الإدارات الحكومية ، مما اضطر الكثير منهم - نتيجة لهذا - أن يقبلوا الإسلام^(٥١).

ورجال الدين وممثلوه المنحدرون أساسا من الأصول العربية ، والأرستقراطية القبطية كانوا يمثلون الركيزة الأساسية للطبقة الحربية الحاكمة .

ورؤساء الهيئات الدينية الكبيرة الذين كان يتم تعيينهم مباشرة من قبل السلطان نفسه كانوا يعتبرون فرعا من الأجهزة والإدارات الحكومية ، فقد كانوا يتسلمون من الحكومة كميات وافرة من المنتجات (بشكل عيني) علاوة على الوسائل النقدية المحددة ، وكان صوفيو خانقاه سعيد السعداء يتسلمون أيضا يوميا من الحكومة مواد معيشتهم المكونة من اللحم والخبز ، بينما كان صوفيو خانقاه سيرياقوس يتسلمون الحلوة أيضا علاوة على ذلك ^(٥٢) . ومنذ عهد صلاح الدين ، كان يوضع تحت تصرف أميرى مكة كل عام : أحدهما كان يتسلم على شكل «عطاء» ثمانية آلاف أردب من القمح والآخر كان يتسلم ألف أردب وألفين من الدنانير ^(٥٣) . وكان يقدم للهيئات الدينية فى الإسكندرية $\frac{5}{8}$ الزكاة (أغلب الظن أنه $\frac{5}{8}$ المبلغ الإجمالى المجموع من المدينة) ^(٥٤) . وينوه ابن جبير بأضرحه المساجد وأئمتها فى القاهرة ، فيحكى أن «كل * الهيئات تتسلم مساعدة كل شهر مقررة من السلطان (صلاح الدين - المؤلفة) ونستطيع أن نقول إن مثلها يقدم للمدارس فى مصر والقاهرة ، ونحن عرفنا بكل دقة أن هذه المساعدات تتكون بشكل إجمالى من أربعة آلاف دينار مؤمنية » ^(٥٥) .

ووزع السلطان : صالح نجم الدين أيوب فى ١٢٤٥ - ١٢٤٦ م . على المدارس والأديرة والخانقات فى دمشق أربعين ألفا من الدراهم ، وأعطى لبعبك عشرين ألفا ^(٥٦) .

ويكتب المقرئى عن المسجد الجديد الذى أقيم فى القسطنطينية فى عهد السلطان : الناصر محمد ، وكان يضم صوفيين يتسلمون الخبز واللحم يوميا ؛ ويتسلمون على ذلك خمسة عشر درهما كل شهر ^(٥٧) .

وأخيرا ، فإن الهيئات الدينية القائمة تسلمت بمثابة وقف (الأحباس) ^(٥٨) ، وهى ممتلكات مدينية (منقولة وعقارية) ، سيأتى عنها الحديث فيما بعد ، أما أملاكها من

* والجرايات متصلة فى كل شهر ... والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر ، والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك ، وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيّف على ألف دينار مصرية فى الشهر وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية (رحلة ابن جبير ص ٤٩ ، ٥٠)

الأراضي ، فكانت في الأقاليم الريفية ، فالأوقاف المنوه عنها للمدرسة « القمحية » أصبح من ضمنها « قرية بالفيوم »* تسمى حنبوشية ورتب للمدرسة أربعة مدرسين ، عند كل مدرس عدد محدد من المتعلمين ، وهى من أكبر مدارس فقهاء المالكية ، وكانت أرزاقهم من الأرض الممنوحة لهم في الفيوم ، المزروعة بالقمح الذى يأتى ليوزع بينهم ؛ ولذا صارت هذه المدرسة تعرف بالمدرسة القمحية» (٥٩). وانضمت جزيرة الفيل على النيل كوقف لمدرسة الناصرية بينما جزيرة الروضة بحدائقها وقراها العديدة قد انضمت لمدرسة قاهرة تسمى التقوية** (٦٠).

وأسس صلاح الدين أوقافا (تضم إليها أقاليم محددة) وكان في البداية يخصص قسم من مداخلها لإقامة المتاريس الدفاعية في العاصمة (٦١). وأنشأ أيضا صلاح الدين أوقافا لينتفع بها أربعة وعشرون فردا من الطواشي الذين يقيمون بجوار الحرم المكي (٦٢). ويتم التنويه في المصادر أكثر من مرة عن حقيقة تتعلق بنقل ثلث نابلس وضواحيها إلى أملاك « وقف القدس » هذه المدينة المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين (٦٣). وكانت هناك إتاوات الوقف لمدارس وأديرة الإسكندرية في عهد صلاح الدين أيضا (٦٤). وتم تحويل « قرية حزم *** بجوار حوران إلى وقف تنتفع به إحدى مدارس دمشق (٦٥). « ووهب العزيز بن صلاح الدين إقليم سندبيس بالمنوفية للزاوية الشافعية في الفسطاط (٦٦).

وكتب المقرئى تعطى تصورا عن الأعمال الخيرية الواسعة «لصلاح الدين الثانى» بيبرس ، الذى حول عددا من القرى في سوريا وفلسطين إلى أوقاف طبقا لأوامره ، تخصص مداخلها لإعاشة الحجاج المترجلين القادمين إلى القدس (٦٧). وانتزع أيضا هذا السلطان أوقاف الهيئات الدينية في «خليل» لبعض الأمراء وأدخلها في إقطاعاتهم وأضاف إليها أيضا قرية عزنة في فلسطين (٦٨).

★ «وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية ، ورتب فيها أربعة من المدرسين ، عند كل مدرس عدد من الطلبة ، وهذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية ، ويحصل لهم من ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرق فيهم ، فلذلك صارت لاتعرف إلا بالمدرسة القمحية إلى اليوم» : المقرئى خطط ٢ ص ٢١٦ .

★★ وتعرف أيضا هذه المدرسة «بمنازل العز» خطط ح ٢ ص ٦٢١ - ٦٢٢

★★★ وقف السلطان قرية حزم باللوى من حران على الجماعة التى يشتغلون لعلم الشريعة أو يعلم يحتاج إليه الفقيه .. أبو شامة ح ٢ ص ٢٦٣

وانتزع الأمراء ، فى عهد بيبرس أيضا أوقاف الجامع الأزهر ، واستولوا عليها (٦٩). وهناك أخبار عن تعيين بيبرس القاضى : ابن خالكان كاتب السيرة المعروف ؛ مراقبا عاماً على كل الأوقاف السورية (٧٠). وخصص بيبرس إيرادات العديد من الأوقاف التى أقامها فى الوجه البحرى لينتفع بها أولاده (٧١).

وظل سلاطين المماليك مبقيين على سيطرتهم العليا على مدن الحجاز المقدسة ، وقاموا بدور الوسيطاء فى النزاعات التى تنشأ بين حكامه الدينيين ؛ ويتعلق بهذا ما يتضح من إعادة توزيع أراضى الوقف الجارى فى عهد بيبرس : أمير مكة فى ١٢٦٦ - ١٢٦٧ م . تسلم وثيقة لامتلاك نصف الأوقاف المصرية والسورية ، وكانت قبل ذلك مخصصة لأمير المدينة (٧٢).

وتتشكل أراضى الوقف عن طريق بيع الأرض ، ففي ١٣٣٧ - ١٣٣٨ م . تم بيع ٢٥٠ فدانا من الأرض مقابل ٤٠٠ ألف درهم فى إقليم بهتيم بمثابة وقف ، يتم الإنفاق منه على مستشفى القاهرة التى أقامها قلاوون (٧٣).

وامتلكت الأديرة المسيحية والكنائس أيضا ؛ أراضى تشكلت عن طريق الهبات ، وهى كانت توضع تحت إشراف ديوان الأوقاف مثلها مثل أملاك الهيئات الدينية الإسلامية (٧٤).

كان هناك دير وكنيسة للقديس * أنوفرى ، غير بعيدين عن مدينة الأشمونين (فى أسيوط - المترجم) يمتلكان فى بداية حكم الأيوبيين مائة فدان من أخصب الأراضى ، متفرقة على عدد من الدوائر (الكورات) (٧٥). وكان ** دير طموه عند حلوان فى ذلك الوقت يمتلك حدائق عنب وأراض زراعية أخرى تبلغ مساحتها العامة سبعة وأربعين فدانا (٧٦). وكان الدير اليعقوبى المسمى دير «القديس أنطون» عند البحر الأحمر يمتلك

★ Here is a church named after the Saint and champion Onuphrus, which possessed a hundred Feddan of black fertile soil.... (Abu Saleh P. 255). (المترجم)

★★ And laid out a garden near it and planted in it trees of all sorts and palms and dug wells the monastery possessed forty seven feddans of land (Abu saleh ... P. 198) . (المترجم)

حدائق العنب وبساتين النخيل الواسعة التى تمتلئ بالآلاف من أشجار النخيل ، وكان يحوز أيضا فى شكل آخر من الملكية ... بساتين فى أطفيح (٧٧).

ودير * القديس «سيويرس» فى ضواحي أسيوط كان يمتلك إلى جانب ممتلكات أخرى « بستان عامر بأشجار الفواكه وأشجار الزيتون والرمان وأحواض للخضر، وكان يتسلم من كل هذا كثيرا من النقود من سنة لأخرى (٧٨) ، « وكان دير ** «كلمون» . جنوب غرب الفيوم - يمتلك أراض فى عدة أقاليم فى مصر العليا ؛ منها ١٦ فدانا فى شبرا ، وإلى جانب هذا كان يمتلك ملاحه واسعة يتسلم منها ثلاثة آلاف أردب من الملح ، وعن هذا الدير يكتب أبو صالح «كانت له حديقة واسعة بها أشجار الزيتون ، وأراض لزراعة الخضر ، علاوة على البلح الذى يبيعه كل عام » (٧٩).

ومن المعروف أن جميع الأراضى المزروعة بالفيوم التابعة لخمسة ، وثلاثين ديرا مسيحيا بهذا الإقليم ، كانت تؤدى كل عام للخزانة السلطانية خمسمائة دينار فى بداية حكم الأيوبيين (٨٠).

وكان دير القديسة « كاترين » الذى يوجد فى شبه جزيرة سيناء يمتلك أراض واسعة للغاية (٨١). وبلغت إيرادات الكنائس والأديرة المسيحية فى مصر كلها فى ١١٨٠ - ١١٨١ م : ٢٩٢٣ ديناراً ، ٤٨٢٦ أردبا من الحبوب ، وكانت تمتلك ٩١٥ فدانا من الأرض . ولكن يبدو أن صلاح الدين انتزع منها جزءا لا يستهان به من هذه الأرض ووزعه بمثابة إقطاعات (٨٢).

★ There is a monastery named after saint Severus, outside the town ... It possesses a keep, and cistern which Contains a thousaud pitchers of water, and is Filled from the blessed Nile the monastery Contains a mill and Several a vens and a press af olive oil Beneath the monastery there is a garden , full af trees and all fruits bearing palms and olives and pomegranats and verdant plots, and beds of Vegetables ABU Saleh P. 250 (المترجم)

★★ It possesses land in several districts of upper Egypt, and at Shubra it owns sixteen feddans. it possesses salt- marshes from which it annually receives nearly three thousand ardebs (of salt) of the dates, of the palm trees it receives a quantity, which are sold every year ... ABU Saleh .. P 206 (المترجم)

وأراضى الوقف ، شأنها فى ذلك شأن الأنواع الأخرى من أملاك الوقف ، غير مصرح لها لا بالبيع ولا بالرهن ولا بالإهداء ، ولا بالانتقال بالوراثة ، ولا يمكن نزاعها لأى سبب آخر . وبما استثناء «التداول المدنى» من هذه الصورة فإن الأوقاف لا تتعرض للتطوير الضرائبى الحكومى . ومشروعات الأوقاف دائمة (غير محدودة الأجل) ، غير أن واهب الوقف كان له أن يشترط تحول العقار إلى الوقف بشروط متنوعة ، خاصة حق الاحتفاظ للورثة فى نصيب محدد من الدخل ، أو الحق فى تعيين المشرقيين على الوقف الجارى (٨٣).

وعدم قابلية أراضى الوقف للمصادرة ، واشتراط المطابقة لرغبة المتبرع ، يدلان بصورة مقنعة تماما على الطبيعة الإقطاعية لهذه الأراضى .

ومن الأمثلة المقدمة سابقا يتضح أن الوضع الحقيقى للوقف لم يكن متفقا دائما مع الوضع النظرى للشرعية .

وجملة القول ؛ فإن أراضى الوقف فى مصر ، فى عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل بمساحاتها التى تشغلها ، كانت تحتل المرتبة الثانية بعد الإقطاع .

وطبقا لما يرويه المقرئى فإن أراضى «الأحباس» (وهى تعنى حسب تأويلاته بعض أقسام أملاك الوقف) كانت تضم فى ١٣٣٩ م ، : ١٢٠ ألف فدان (٨٤).

وظهور الأنواع الجديدة للهيئات الدينية كان نتيجة للانقلاب الأيديولوجى ، الذى كان مرتبطا ليس فقط بتحويل الأراضى الزراعية إلى وقف - (وخاصة الأراضى الحكومية ، وبدرجة ما بعض أراضى الملك) وإنما كان متمثلا أيضا فى تعمير أقاليم جديدة ، وبهذا الشكل تمهد السبيل ، إلى حد ما ، للتطوير الشامل لقوى الإنتاج .

هوامش الفصل الرابع

- (١) - انجلز حرب الفلاحين في ألمانيا [مؤلفات ك. ماركس] ، ف. انجلز، الطبعة الثانية مجلد ٧، ص ٣٦٠ - ٣٦١]
- (٢) - المقرئى (خط) ٤ ص ١٦١ .
- (٣) - انظر . G. Wiet, Les inscriptions de Saladin, - "Syria", III Paris, 1922, pp 318- 325, "Extraits des historiens arabes", P. 177
- وانظر أيضا أبو شامة ١ ص ١٨٣ ، ١٩٧ .
- (٤) - المقرئى سلوك ١ ح ١ ص ٥٩ - ٦٠ .
- (٥) - نفس المصدر ص ١٦٧ - ١٦٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، وح ٢ ص ٢٦٨ ؛ وأيضا ابن تغريبدى (النجوم) ٦ ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ٢٢٥ .
- (٦) - المقرئى (سلوك) ١ ح ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .
- (٧) - انظر : وهنا برهان بصورة مقنعة ، علي مدى إفلاس مازعه Д. Айалон ب . فارتمان ، ب . برونشنيج من ادعاء بقيام المعاليك بتعيين أحد قمم الخلافة التونسية : ويسمى أبو عبد الله محمد ، من سلالة الحفصيين ، في الفترة ما بين غزو بغداد على يد المغول ونقل الخلافة العباسية إلى مصر D. Ayalon, Studies on the transfer of the Abbasid caliphate From Bagdad to Cairo, - "Arabica", 1960, t. VII fasc.1)
- (٨) - ابن عبد الظاهر ص ١٢٧ ، والمساحات الحقيقية لأملك بيبرس هنا واضحة الزيادة ، فنيار بكر كانت في ذلك الوقت تحت حكم المغول ، واليمن كما أسلفنا كانت تحت حكم الرسوايين انظر - Cl. Cahen, Contribution à l'histoire de Diyar Bakr quatorzième siècle - JA, t.CCXL III 1955, p. 67.
- (٩) - عن أيديولوجيا وتنظيم الاسماعيلية ، انظر - Е. А. Беляев, Му- сульманское сектанство, М., 1957, стр. 47—55;
- وانظر أيضا - Л. В. Строева, Восстание исмаилитов в Иране в конце XI — начале XII века, — «Исследования по истории стран Востока», Л., 1964.
- (أبحاث عن تاريخ بلدان الشرق) بالروسية .
- 10 - B.Lewis, the Ismailites and the Assassins.- " A history of the Crusades" Vol I, Philadelphia, 1955, p . 122.
- 11 - B. Lewis, Saladin and the Assassins.- BSOAS. XV, 1953. P. 241 .
- 12 - Ibid , P. 244.

- 13 - S. Guyard, Un Grand Maître des assassins au temps de Saladin- JA, IX. 1877,
(١٤) قتل الإسماعيليين في ١١٧٧م شهاب الدين ، وزير نور الدين زنكي ووريثه في الحكم ، ثم
بعد ذلك في ١١٧٩ تم نزع قلعة هجير من تحت يد الإسماعيليين ، وصارت احتجاجات رشيد الدين
سنان عديمة الجدوى ، وعندئذ وجه هو رجاله إلى حلب ، فقاموا بنهب الأسواق وبهذه الصورة سببوا
للمدينة خسائر فادحة : B. Lewis, The Ismailites and the Assassins, PP. 125, 126)
15 - B. Lewis, the Ismailites and the Assassins, pp. 124-126; Max Von Bershem,
Epigraphie des Assassins de Syrie,- JA, IX, 1897, pp. 453- 501.
(١٦) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٤٩٢ ، ٥٨٦ - ٥٨٧ ، ٦٠٨
(١٧) إلا أنه بعد ذلك ، واصل السلاطين المعاليك استخدام الإسماعيليين في أغراضهم الخاصة
، ونجد عند المقرئى (١٣١٥ - ١٣١٦) ما يفيد أن السلطان : الفاضل محمد قد أرسل فدائيين من
«المصيف» لقتل الأمير : قراسنقر لأنه كان غير مرغوب فيه . (سلوك ٢ ح ١ ص ١٤٣ ، ٢٠٧)
18 - J. Schacht, über den Hellenismus in Baghdad und Cairo im 11. Jahrhundert - ZDMG, Bd 90, 1936, S. 314.
(١٩) ابن شداد ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، وأبو شامة ٢ ص ٢١٩
20 - H. Laoust, Le hanbalisme sous les Mamlouks Bahrides (658-784/ 1260-1382), REL, t .XXVIII, année 1960, cahier I, Paris, 1960 , M. A. F. Mehren,
Correspondance du philosophe souphi Ibn Sabî Abd Oul - Haqq avec l'empereur Frédéric II de Hohenstaufen ..., JA, XIV, 1879.
(٢١) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، ٦٤٠ . ومساعده هؤلاء القضاة
الرئيسيون كانوا يوجدون أيضا في كثير من المدن الرئيسية وغير الرئيسية في مصر ، والسلطة
القضائية كانت هي صاحبة الكلمة في القضايا الدينية للجماعات غير الإسلامية ، والعلاقات بين
المعاليك ، وإن كانوا قد قبلوا الإسلام رسميا ، كانت تقوم أساسا على (مجموعة قوانين) جنكيز خان
التي يقوم بتطبيقها في زمن الحرب أئمة المذاهب الثلاثة (ماعدا الحنبلية) ، أما في زمن السلم فيقوم
بها من يسمى بالحاجب ، والحكمة السلطانية كانت هي المرجع الأعلى الذي ينعقد مرتين في الأسبوع
(انظر المقرئى خطط ٢ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، والقلقشندي ٤ ص ٣٦ ، وابن تغربردي (النجوم) ٦ ص
٢٦٨ - ٢٦٩ : ٧ ص ١٨٢ - ١٨٣ وانظر أيضا :
Г. В. Вернадский, О со-
ставе Великой Ясы Чингис-хана с приложением главы о Ясе из исто-
рии Джувейни в переводе В. Ф. Минорского, Bruxelles, 1939;
وانظر أيضا أمين على الخولى (مصدر سابق) (بالروسية)
(٢٢) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٧٨ ، وأبو الفدا ٤ ص ٥٤
(٢٣) « كانت المكتبة إحدى عجائب العالم - هكذا يقول عنها أبو شامة (١ ص ٢٠٠) - إذ

لا يوجد في كل بلاد الإسلام مكتبة أوسع منها» ثم بعد ذلك «إن المكتبة الفاطمية تحتوي على أكثر من مليون مخطوط ، منها ١٢٢٠ مخطوطا في التاريخ . وهذه المخطوطات أقيمت بعد ذلك في الميادين ، وقسم كبير منها كان من نصيب الوزير : القاضي الفاضل . انظر أيضا القلقشندي ص ٤٦٧
A. Helbig, Al - Qadi al - Fadil, der Wezir saladin's, Berlin, 1909, S.25)

(٢٤) انظر : - M. A.Reuben Levy, Levy, The Nizamiya Madrasa at Baghdad, JRAS,1928, pt. II; A.L. Tibawi, Origin and character of al-madrasah - BSOAS, vol. XXV . 1961, pt2.

(٢٥) المقرئ (خطوط) ٤ ص ١٩٢ والقلقشندي ٣ ص ٢٤٦

(٢٦) المقرئ (خطوط) ٤ ص ١٦١ ، ويتحدث هنا - مرة أخرى - بتفاصيل جديدة عن الانقلاب الديني : « ولم يحتل صلاح الدين في مصر أحدا سوى من كان من أتباع المذهب الشافعي ، ومنذ ذلك الوقت صار الناس يدفعون نحو المذهب المالكي والمذهب الشافعي ويبتعدون عن مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية (الشيعة المعتدلة) وكل تلك المذاهب قد اختفت ، منذ ذلك الحين ، من أرض مصر » وانظر أيضا المقرئ (سلوك) ١ ح ١ ص ٦٣ ، ٩٠ ؛ وأبو الفدا ٣ ص ٥٣ ، ٦٢ .

27 - A. Helbig, Al-Qadi al - Fadil ..., S . 26, E Ashtor, The Karimi merchants, - JRAS, 1956, p. 54.

(٢٨) المقرئ (خطوط) ٤ ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٢٩) المقرئ (خطوط) ٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ٤ ص ٢٠ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، وأبو شامة ١ ص ١٩١ .

(٣٠) المقرئ (خطوط) ٤ ص ٢٠٩ وأيضاً أبو شامة ٢ ص ٢٣٩ ، والمقرئ (سلوك) ١ ح ١ ص ٣٧١ ، ح ٢ ص ٢٠٨ والقلقشندي ٣ ص ٣٦٧ .

(٣١) انظر على سبيل المثال : ابن عبد الظاهر ، ص ١١٤ - ١١٥ ، والمقرئ (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٨٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤٦ ، وابن القرات ٧ ص ٨٣ ، ١٠٧ ، والقلقشندي ٣ ص ٣٥٢ ، وعن بناء المدارس في عهد خلفاء بيبرس ، انظر أبو الفدا ٤ ص ١٠٤ ، وابن تقي الدين (النجوم) ١٠ ص ٢٠٦ ، ١١ ص ٦٧ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ .

32 - E. A. Беляев, *Мусульманское сектанство*, стр. 70.

(٣٣) نقابل في مصادر هذه الفترة مصطلحي : زاوية وريفة اللذين يختلفان عادة عن الخانقاه ، ولكنهما كانا - كتقادة عامة - يقومان في نفس الوقت بوظيفة المدارس الأولية ، انظر .

N. A. Ziadeh, Urban life in Syria under the early Mamluks, p. 162.

(٣٤) المقرئ (خطوط) ٤ ص ٢٧٣ وأيضاً القلقشندي ٣ ص ٢٦٨ - ٢٦٩

(٣٥) سعداوى ص ٢٢ ، وابن جبير ص ٣١٨

(٣٦) أبو شامة ١ ص ١٥٦ ، والمقرئ (خطوط) ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٥١

(٣٧) المقرئ (سلوك) ٢ ح ١ ص ٣٦

38 - Аноним, стр. 175, 227;

وأبو الفدا ٤ ص ٩٦ والمقرئى سلوك ٢ ح ١ ص ٢٦١ ، وابن خلدون ٥ ص ٤٢٨ وابن بطوطة ١ ص ٨٤

39 - W. Fischel, (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٩٩ - ٢٠٢ ، ٢ ص ٤٢٢ ، وانظر the spice trade in mamluk Egypt, - JESHO, vol. I , 1958, pt 2, p. 169 .

Аноним, стр. 191, 203, 225; ' : انظر : وعن بناء المساجد والخانات في العهد المملوكى المبكر ، وانظر أيضاً ابن نويدار ص ٢٨٨ - ٢٩٠ ، وأبو الفدا ٤ ص ١٠٤

40 - E. Strauss, L'inquisition dans L' Etat mamlouk, - "Rivista degli Studi Orientali", VOL. XXV, Roma, 1950, p. 15.

(٤١) انظر على سبيل المثال W. M. Brinner, the significance of the harafish and their "sultan", - JESHO, Vol . VI, 1963, pt 2, p. 211 .

(٤٢) وهذه التعليمات ، تنظم قواعد السلوك مع غير المسلمين . وتستخدم لإظهار الولد في إخضاعهم للمسلمين : فغير المسلمين لا يملكون الحق في التشبه بالمسلمين في ملابسهم : فالمسيحي ملبقا للأوامر لابد وأن يرتدى عمامة زرقاء ، واليهودى عمامة صفراء ، وهم غير مسموح لهم بتعليم القرآن لأطفالهم ، ولا بالقيام بواجباتهم الدينية علناً ، ولا باقتناء سرج الخيل أو استخدامها ، ولا يشربون الخمر جهاراً ... الخ . وهذه التعليمات تتضمنها الوثيقة المعروفة تحت اسم - « معاهدة عمر مع مسيحيي سوريا » .

ولزيد من التفاصيل انظر .

Н. А. Медников, *Палестина от завоевания ее арабами до крестовых походов по арабским источникам*

من « المجموعة الفلسطينية » مجلد ١٧ جزء ٢ - (١٩٠٢) ، ص ٢٨٨ - ٦١٢ .

(٤٢) ودائرة اختصاص المهام الدينية لبطريركيسة البطاركة المصرية كانت تمتد الى الحبشة . أما سوريا فكان بها بطريركيتان . والقسم الأساسى من اليهود سواء فى مصر أو فى سوريا كان من اليهود : السامريين والريانيين والقرائين ، وكان لليهود فى سوريا رئيسان أحدهما للسامريين والآخر للمذاهب الأخرى .. انظر القلتلندى ٩ ص ٢٥٩ ، ١١ ص ٢٨٥ ، ١٢ ص ٢٩٤

44 - N.A. Ziadeh, Town administration in Syria under the early Mamluks. "Proceedings of the twenty - second congress of orientalis" Leiden, 1957, Section IV, pp. 215 - 216.

(٤٥) ابن جبير ص ٤٣ وانظر أيضاً - pp. 372 - 373 "Extraits des historiens arabes"

46 - S. Lane- Poole, A history of Egypt in the Middle Ages, London. 1936, p. 241.

(٤٧) بقيت لنا من زمن «الكامل» وثيقة قبطية ، عبارة عن مديح مكرس لوصف استشهاد كاهن مسيحي يسمى يوان بخانى ، تعطى تصوراً حياً عن العلاقات الدينية . انظر

E. Amélineau, Un document copte du XIII-e siècle . Martyre de Jean de Phanidjôit - JA , 1887, t. IX .

(٤٨) هناك مقالة هامة لبرلمان في تحليل هذه الأعمال ، انظر - M. Perlmann, .

Notes on anti - christian propaganda in the Mamluk empire, - BSOAS, Vol. X, 1942, pt. 4

49 - K . S. Salibi the Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk rule - "Arabica", 1957, t.IV, fasc. 3, pp . 299 - 300.

(٥٠) ما يتعلق بهذه الحقائق في سنوات ١٢٦٧ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٤ وحتى ولاية الناصر سيف الدين حسن للمرة الأولى (١٣٤٧ - ١٣٥١) انظر : *Аноним, стр. 87* والمقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٦٦ ، ١ ح ٣ ص ٩١٠ - ٩١٢ ، ٩٤٤ ، ٢ ح ١ ص ٥٠ ، ١٥٧،٩٠ - ١٧٣ ، ٢٥٣ - ٢٥٤

والمقرئى يتكلم أيضا عن هبة لسكان دمشق المسلمين ضد المسيحيين واليهود ، في ١٢٥٨ - ١٢٥٩ ، وكان مشتبه في وجود علاقات بينهم وبين المغول : (سلوك ١ ح ٢ ص ٤٣٢ - ٤٣٣) وعن مطاردات المسيحيين في دمشق يتحدث أبو الفدا تحت سنة ١٢٣٣ - ١٢٣٤ (سلوك ٤ ص ١٣٦) . وعن اضطهاد المسيحيين في سوريا انظر أيضا : H.

Laoust, Le hanbalisme sous Les Mamlouks Bahrides ..., pp 7, 13, 14 , 17 - 18, 32, 55.

(٥١) المقرئى (سلوك) ٢ ح ٢ ص ٢١٦ - ٢٢٨ ، وانظر أيضا E . Quatremère,

Mémoires géographiques et historiques sur l' Egypte et sur contrées voisines, t. II, Paris, 1811, pp. 244- 250.

(٥٢) المقرئى (خطط) ٤ ص ٢٧٣ ، والمقرئى سلوك ٢ ح ٢ ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .

(٥٣) أبو شامة ٢ ص ٣ وابن جبير ص ٨٨

(٥٤) ابن جبير ص ٤٣

(٥٥) ابن جبير ص ٥٣ - ٥٤ . والدينار المؤمنى كان عملة لمهديى شمال أفريقيا ، وكان

مسموحا بتداوله في مصر .

وعن الرعاية الموجهة من صلاح الدين للهيئات الدينية ، يقول ابن جبير الآتى : كانت مساعدات السلطان وهباته لمساجد القاهرة الخمسة ، وأيضا لمساجدها الصغيرة ، وأضرحتها وأديرتها ومدارسها ، وملاجئها كانت في غاية الكرم .

(٥٦) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧

(٥٧) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١١٤

(٥٨) اصطلاح "أحباس" = (حبس أو حبوس) وهو مرادف للوقف ، في فقه المدرسة المالكية .

وفي العصر الفاطمى ظهر ديوان يسمى ديوان الأحباس ، وكان يشرف على بعض الأملاك المروغة .

إضافة إلى إشرافه على الأرض... والمقرئى يقصد « بأحباس ملكيات الأرض » أنها الأرض التى تبرع بها السلاطين المالك للوقف ؛ انظر (خطط) ٤ ص ٨٥ ، أيضا Poliak, Feudalism ..., p 33;

Cl. Cahen, Le régime des impôts ..., pp 24 - 25 , Waparb

P. Шарль, *Мусульманское право*, М., 1959, стр. 91. (القانون الإسلامى)

(٥٩) المقرئى خطط ٤ ص ١٩٣

(٦٠) المقرئى خطط ٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ٤ ص ٢٥١

(٦١) المقرئى خطط ٢ ص ٣٤٣ ، وهذه الخطة كانت من أجل تعزيز التخصيمات وربط القلاع التى تقام بالقرب من المراكز التاريخية القديمة « لمصر » والمنوه عنها سابقا : الفسطاط ، والعسكر التى أقامها وإلى العباسيين لبتداء من ٧٥١ م ثم القطائع التى شيدها ابن طولون ٨٧٩ م . ثم القاهرة التى تأسست على يد القائد الفاطمى جوهر الصقل فى ٩٦٩ م ، وهذه الخطة تم تنفيذها لبعض الوقت فقط ، انظر : S. Lane- Poole, A history of Egypt in the Middle Ages, p. 195

(٦٢) أبو شامة ١ ص ١٧٤ وابن جبير ص ٨٨

(انظر أيضا القلقشندى ١ ص ٤٦٧ ،

(٦٣) والباقي وهو ٣/٢ المدينة كان موهوبا بمثابة إقطاعيات (عماد الدين ص ٤٢٠ ، أبو

شامة ٢ ص ٢٠٩ ، ٢٢٨ ، والمقرئى سلوك ١ ح ١ ص ١٩٦ .

(٦٤) ابن جبير ص ٤٢ - ٤٣ ، وعماد الدين ص ٤٤٣

(٦٥) أبو شامة ١ ص ٢٦٣ ، وعن مشروعات صلاح الدين فى الأوقاف المحصن بخلها لمدافن

فقراء المسلمين ، انظر المقرئى سلوك ١ ح ٢ ص ٦٣٨

(٦٦) المقرئى سلوك ١ ح ١ ص ١٣٠ ، وعن الأوقاف التى كانت فى العهد الأيوبي انظر

أيضا المقرئى (خطط) ٤ ص ٨٤ .

(٦٧) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٢١

(٦٨) ابن عبد الظاهر ص ١٤٤ ، والمقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٤٤٥ ، وابن إياس ١ ص ١١١

(٦٩) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٥٦

(٧٠) المقرئى (سلوك) ١ ص ٤٦٥

(٧١) المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٧٣ ، وعن الأوقاف المقامة فى عهد بيبرس انظر

أيضا ابن عبد الظاهر ص ١٠٧ ، ١١٠ ، وابن الفرات ٧ ص ٨٣ .

(٧٢) المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٦٠ ، ٥٧٩ ، وعن الأراضى الموهوبة للوقف فى العهد

الملوكى المبكر انظر أيضا المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٤٨ ، ١ ح ٣ ص ٨٢٦ ، ٢ ح ١ ص

٢٤٨ ، ٢ ح ٢ ص ٣١٧ ، ٥٤١ ، وابن بطوطة ١ ص ١٠٣ ، وابن خلدون ٥ ص ٤٠٩
(٧٣) المقرئى (سلوك) ٢ ح ٢ ص ٤٦٤ وأيضا ابن خلدون ٥ ص ٤٠٣ ، وابن إياس ١
ص ١١٦ ، ١٢٠

(٧٤) ابن إياس ١ ص ٢٠٦

(٧٥) أبو صالح ص ٢٥٦

(٧٦) أبو صالح ص ١٩٧

(٧٧) أبو صالح ص ١٦٠

(٧٨) أبو صالح ص ٢٥٠

(٧٩) أبو صالح ص ٢٠٦

(٨٠) أبو صالح ص ٢٠٢

81 - S.M. Stern, petitions from the Ayyubid period- BSOAS, vol. XXVII,
1964, pt. I p. 11

(٨٢) أبو صالح ص ١٥ ، ٤١ ، ١٨٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٤

(٨٣) « استرشاد بتفسيرات الفقه الإسلامى »
под ред. Н. И. Гродекова,
т. II, Ташкент, 1893, стр. 137—163.

(٨٤) المقرئى (خطط) ٤ ص ٨٥ والمقرئى (سلوك) ٢ ح ٢ ص ٤٧٣

الفصل الخامس

الفلاحون في عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل

الفصل الخامس

الفلاحون فى عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل

كانت الزراعة هى العمل الرئيسى لسكان مصر فيما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر . وكما كان الوضع فى مصر القديمة ، عندما اعتمدت الزراعة على أسلوب رى الحياض ، كان الوضع أيضا فى العهدين الأيوبي والمملوكى . وهذا النظام باختصار شديد ، عبارة عن سدود وخزانات طينية تقام رأسيا على امتداد مجرى نهر النيل ؛ لتهدئ مياهه وتتوقف قليلا ، ويمكن التحكم فيها بدرجة ما (١) .

وعلى حساب احتياطى المياه المتراكم بهذه الطريقة ؛ نمت المعرفة الزراعية ؛ حيث كانت فلاحه الأرض لا تتوقف إلا فى فترات غمرها وامتلكت الزراعة قوة العمل اليدوية ، التى استخدمت طوال آلاف السنين أدوات بدائية مثل الفأس والمحراث والجرافة .. إلخ .

والمصادر لا تقدم الكثير عن وصف أنواع الأراضى وأنواع المحاصيل الصيفية والشتوية ؛ فابن مماتى ومن بعده القلقشندى ثم المقرئى يميزون بين ثلاثة عشر نوعا من التربة التى تكون صالحة للزراعة بدرجات ما (٢) . ويستخدم المقرئى التقويم القبطى التفصيلى فى كلامه عن الأعمال الزراعية (٣) .

ويلاحظ الارتقاء العام لقوى الإنتاج فى هذه الفترة فى مصر ، وهو يتضح فى اتساع مساحة الأراضى المستصلحة عن طريق اتباع الأساليب الجديدة فى رى الأرض ، ويشير المقرئى مستشهدا « بكتاب عجائب البنيان » المجهول المؤلف ، إلى أنه طبقا لأوامر صلاح الدين ، بدأوا فى هدم هرم بالجيزة ، لاستخدام حجارته فى إقامة السدود ، وتم استخدامها فعلا فى إقامة أربعين خزاناً ، وفى إصلاح إحدى القنوات . وكانت هذه الأعمال تتم تحت قيادة : الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى (٤) . واستولت إقامة وإصلاح مشروعات الرى فى الدلتا على اهتمام خلفاء صلاح الدين (٥)

والأديرة المسيحية كذلك ، كانت تقوم باستصلاح الأراضى الجديدة ، وذلك وفقا لما يرويه أبو صالح عن بداية حكم الأيوبيين ، بأن إقليم قوص كان به ديران مسيحيان ؛ ويقول إن تاجرا غنيا يدعى إسحق من مدينة قفط أهدى لهذين الديرين قطعا من

الأرض ، كان يتم ريها بالسواقي التي يلزم لئورائها أربعون زوجاً من الثيران ، وكانت هذه الأرض تزرع بالكتان والقمح والخضروات ، وحول الديرين تم زراعة الكثير من أشجار العنب ^(٦) .

وبدون أدنى شك ، كان انتشار الإقطاعات الموهوبة ظاهرة إيجابية ؛ فالإقطاعي صاحب الأرض المعين في وظيفة حربية ؛ كان مهتما غاية الاهتمام بتطوير قوى الإنتاج أكثر من جامع الضرائب أو الملتزم في العهد الفاطمي . « وكان * المقطع يرغب بكل كيانه أن يروى أرضه ليستل منها الدخل ، وكان يزرعها حسبما يريد » ^(٧) . ويواصل ابن مماتي بعد ذلك روايته عن وجود خزانات تابعة لإدارة الإقطاعي ^(٨) .

ومن الرواية التالية للمقرئزي ، من الممكن أن نستنتج أنه كان مسموحاً للمالكى الإقطاعات بإنفاق مبلغ محدد على أعمال الري في كل عام « من ** الأمور العادية أن تتم الموافقة للمقطع المشترك مع مقطع آخر في دائرة (كورة) واحدة ، أنه إذا أنفق أحدهما مبلغاً ما من دخل إقطاعه في إقامة السدود في أى عام فله أن يقتسم هذا المبلغ مع المقطع الآخر ، أو على المقطع الآخر أن يتعهد بإنفاق مبلغ مساوياً أنفقه الأول في بناء السدود في السنة التالية » ^(٩) .

ويستدل من معطيات النابلسي عن بعض النشاطات الاقتصادية لأصحاب الإقطاعات : أن فخر الدين عثمان ، وكان لديه إقطاع في دائرة مرج دمشق بالفيوم قام بزراعة أرضه حدائق ؛ لأن ضياع جاره المسمى (المفضل) في " منية أقي " كانت مزروعة حدائق في معظمها ^(١٠) .

وبهذا الصدد ، يمكن الإشارة إلى أنه تم تعمير بعض المدن المقفرة في شمال شرق

* والمقطع يباشرها بنفسه ويتوفر عليها بفكره ويعلم أنه متى قصر فيما أدى إلى عمارتها فقد سعى في خرابها فيطلق لذلك ما تقتضيه المباشرة وتقتضيه الحوطة فيجنى ثمرة ما غرس ويبني في الاستغلال ما أسس - ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٨

** ومن العادة أن المقطع إذا انفصل ، وكان قد أنفق شيئاً من مال إقطاعه في عمارة جسر لأجل عمارة السنة التي انتقل الإقطاع فيها - فإن له أن يستعيد من المقطع الثاني نظير ما أنفقه من مال سنته في عمارة سنة غيره . المقرئزي خطط ح ١ ص ١٨٧

وجنوب شرق حلب بعد الحملة الصليبية الأولى ، عندما تم غزوها على يد الأيوبيين وتحويلها إلى إقطاعات ^(١١) . وينبغي ملاحظة أن اقتصاد البلاد قد تعرض لخسائر غير قليلة ، من جراء الكوارث الطبيعية ، كالصقيع والثلج والرياح العاصفة وغارات الجراد على المحاصيل ، وكذلك من جراء الأوبئة التي أهلكت الجمال والبغال والحمير ^(١٢) .

كان أشد هذه الكوارث بؤسا هو انخفاض مستوى مياه النيل في وقت الفيضان ، الذى كان يؤدي بدوره إلى تقليص المساحة المنزرعة من الأرض ، وإلى العناء المتزايد للشعب المصرى ؛ فبسبب القحط الحادث فى ١٢٠٠ - ١٢٠٢م عندما صار مستوى مياه النيل لايزيد ارتفاعه عن اثنى عشر ذراعا [وعادة ما يكون ١٦ ذراعا] بلغ عدد الموتى من الجوع فى مدينة القاهرة وحدها ١١١ ألفا . حيث زحف إليها الكثير من الفلاحين ، طبقا لما يخبرنا به شاهد العيان لتلك الحوادث : الطبيب عبد اللطيف البغدادى ^(١٣) . غير أن الكدح الشاق والمتواصل لفلاحى مصر فى السنوات التالية قد محا آثار الكارثة ، وكما يقول المقرئى : فإن الازدهار العظيم قد عاد إلى مصر ، مرة ثانية ، فى عهد السلطان الكامل ^(١٤) .

وتنسيق نظام الإقطاعات الموهوبة بالتعاون مع السلطة المركزية الموحدة سهل تطوير قوى الإنتاج فى عهد المماليك الأوائل .

فمن المعروف أنه فى عهد بيبرس ، تم إعادة بناء الكثير من القنوات والخزانات ، وأقيمت أيضا خزانات جديدة فى القليوبية ^(١٥) .

وفى ١٢٨٣ - ١٢٨٤م تم حفر قناة فى البحيرة ، ساهم فيها الأمراء والمحاربون ، أصحاب الإقطاعات ؛ كانت فائدتها عظيمة جدا ، فبواسطتها أمكن رى الأراضى التى لم تكن تروى من قبل ؛ كما يقول المقرئى ^(١٦) . على سبيل المثال : تم فى تلك السنوات فلاحنة وتعمير إقليم الناصرية فى الغربية بمبادرة من أمير الحلقة : شمس الدين سنقر السعدى الذى كان قد مُنحه كإقطاع ^(١٧) .

وكثير من مشروعات الرى ، تم تعميرها وبنائها فى مصر فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وعلى امتداد هذه الفترة لم تتوقف أعمال شق خليج الإسكندرية ،

التي اشتغل فيها أربعون ألف إنسان ، وفي رواية بعض المصادر الأخرى مائة ألف إنسان ، من أهالي الأقاليم المجاورة الذين تم جمعهم بواسطة أمراء الممالك (١٨) . ونتيجة لهذا تم إحياء ما يزيد عن مائة ألف فدان ، وظهرت قرى جديدة (الناصرية وغيرها) وازدهرت آلاف الحدائق في بعض المدن التي كانت قبل ذلك مخربة تماما : « فانطلقت العصافير هنا في حقول القصب* والقلقاس والسمسسم وغيرها » (١٩) .

وفي السنوات من ١٣١٣ - ١٣١٨ م . تم إصلاح الخزانات والقنوات التي تقع بين النيل وحصون القاهرة ، وأنشئت سدود جديدة في الجيزة ، استخدم في بنائها أيضا أحجار هرم صغير ، وكذلك أحجار قناة « الظاهر » ، وهذا يعني أن قناة الجيزة التي أنشئت في عهد صلاح الدين على يد قراقوش الأسدي تم إصلاحها وتوسيعها في عهد الظاهر بيبرس « واشترك** في بنائها الأمراء والمحاربون وكان السلطان يراقب العمل بنفسه كما يقول المقرئ (٢٠) .

يروى المقرئ عن أعمال شبيهة في القاهرة ١٣٢٣ م . « واستدعى الأمراء فلاحهم من الأقاليم ، فحضرهم*** هم وثيرانهم وزحافاتهم ، واشتغلوا في إقامة قنطرة بين بولاق ومنية الشيرج (٢١) ، وفي ١٣٢٤ - ١٣٢٥ م . حفرت قناة من القاهرة حتى سيرياقوس ، انتعشت على شواطئها أربعون قرية وازدهر الكثير من الحدائق التي كانت خربة قبل ذلك (٢٢) وتم إنشاء قنوات وجسور عديدة بهدف إمداد ضواحي القاهرة بمياه الري في السنوات التالية (٢٣) .

* واستجدت عليه قرية عرفت بالناصرية فبلغ ما أنشئ عليه زيادة على مائة ألف فدان ونحو ستمائة ساقية وأربعون ... وعمل عليه نحو ألف غيط فصار بعدما كان سباخا سواقي للقصب والقلقاس والسمسسم وغيره (للأسف لم نجد في النسخة التي تحت يدينا .. وانطلقت العصافير من ...) (المترجم) المقرئ سلوك ٢ ح ١ ص ١١٢

** وخرج العسكر جميعه والأمراء بمُضافيهم للعمل في ذلك ... فكان مهما عظيما ... وصار السلطان يركب إليه كل قليل حتى كمل . المقرئ . سلوك ٢ ح ١ ص ١٢٠

*** واستدعى الأمراء فلاحهم من النواحي فحضرهم بالأبقار والجراريف وعمل الجسر من بولاق إلى منية الشيرج - المقرئ سلوك ٢ ح ١ ص ٢٥١

وفى ١٣٢٨ - ١٣٣٩ م . أنشئت قناة بين الجيزة والشرقية ، ساهم فى بنائها إثنا عشر ألف إنسان^(٢٦) وهذه القناة قد خلقت إمكانية بعث الحياة فى الأراضى القاحلة ، التى تحولت بعد ذلك إلى إقطاعات لثلاثمائة محارب^(٢٥) ، وأراضى البحيرة التى صارت مياه الرى تصل إليها والتى لم يكن بها قبل ذلك : « سوى * الكثبان الرملية والحلفاء ، ظهرت فيها المباني والزرع »^(٢٦) وكانت أراض فى فوه أعيدت إليها الحياة ، وأراض أخرى تم إصلاحها^(٢٧) وتحقق الكثير من أعمال الرى فى أقاليم مصر المختلفة^(٢٨) .

ويروى المقرئى أن السلطان الناصر محمد إلى جانب سعيه الدائم** لتوسيع ممتلكاته ، كان يهتم بوضع أراضى الإقطاعات ، وبإمداد ملاك هذه الأراضى بالبذور وغيرها ، وكان « إذا سمع عن جفاف للتربة فى أى من الأقاليم سواء كان فى الضواحي أو فى الريف ؛ هذه القلق داوم السؤال للإقطاعيين عن وضع ضياعهم ، ولا يكف عن هذا الاهتمام حتى يوفر الماء اللازم لهذه الأراضى^(٢٩) .

وهناك أخبار كثيرة يرويها المقرئى ؛ لاتتناول الإقطاع المصرى فحسب ، بل السورى أيضا ، وهو يكتب عن إحدى القرى الفقيرة فى ضواحي الرملة التى ازدهرت فى بداية القرن الرابع عشر وصارت مقرا لأحد الإقطاعيين ، وقال هذا عن كثير من قرى دمشق وحلب والشواطىء البحرية^(٣٠) .

ولا تتضمن مصادرننا إلا القليل من المعلومات عن وضع الجماهير الأساسية من المنتجين المباشرين - (الفلاحين المصريين) ؛ حيث كانت أغلبية هؤلاء الفلاحين خاضعة للملاك الوارثين لإقطاعاتهم والمالكين لأدوات الإنتاج .

أما عن المعلومات الخاصة باقتصاديات الإقطاع فى عهد الدولة الأيوبية فهى لا

* حتى كان الإنسان يتعجب لذلك ، فإنه كان يعهد هذا كله تلال ورمل وحلفاء ، فصار لا يرى فيه قدر نراع إلا وفيه زرع وبناء . المقرئى سلوك ٢ ح ٢ ص ٣٩٥

** وكان إذا سمع (السلطان الناصر محمد - المترجم) بشراقى بلد أو قرية من القرى ؛ أهمه ذلك وسأل المقطع بها عن أحوال القرية المذكورة غير مرة بل كلما وقع بصره عليه ولا يزال يفحص عن ذلك حتى يتوصل إلى ربيها بكل ما تصل قدرته إليه ، المقرئى سلوك ٢ ح ٢ ص ٤٢٥

تحتل أى مكان تقريبا فى هذه المصادر ، ما عدا بعض المعلومات المأخوذة من « تاريخ الفيوم » التى تنوه عن زراعة قصب السكر وعن أراضى بركة بن شكله ، حيث كانت هناك « أراض * تابعة للديوان تروى بالماء المستخرج بالسواقي التى تعمل بواسطة الأبقار المملوكة للديوان ، وكان يتم عزقها وتنجيلها بفؤوس وثيران مملوكة أيضا للديوان » (٢١) .

وأدى انتشار أراضى الإقطاعات إلى تحويل الفلاحين من حائزين على زمام أراضى حكومية إلى قائمين بزراعة الأراضى الخاضعة للإقطاعى ، وتعتبر عن هذه الحقيقة الخاصة بوضع الفلاحين ، كل الأخبار الموجودة فى المصادر تقريبا .

والشكل الاقتصادى لوضع الملكية الإقطاعية للأرض فى مصر ، فى الفترة الخاضعة للدراسة ، كان يتمثل قبل كل شىء فى ضريبة الأرض الحكومية العامة ، التى كانت تسمى « بالخراج » والتى كان يتم جمعها - كما أشرنا سابقا - طبقا للتقويم القمري / الشمسى (٢٢) .

ويتحدد المقياس العام للخراج بمقدار المساحة الكلية المروية بمياه النيل ، وبما يمكن زراعته فيها من أنواع المحاصيل ، مما يعنى أنها كانت نوعا من أنواع « النموذج البيزنطى الساسانى » (٢٣) والمقرىزى يحسب المستوى العام لفيضان النيل بستة عشر ذراعا (بمقياس النيل بالروضة) : « يقال ** إنه إذا زاد هذا المستوى بمقدار ذراع واحد فإن خراج مصر يزيد بمقدار مائة ألف دينار » (٢٤) .

وهناك ملاحظة هامة لابن مماتى تنص على . أن القياس السنوى لمساحة الأرض المروية فى مصر لم يكن دقيقا دائما ، مما يستتبع زيادة الخراج عن عدد الأفدنة التى تساويه (٢٥) .

★ « وكانت هناك أراض تروى بالماء المحمول على أعناق الأبقار بالسواقي الديوانية ، وحرث الأراضى بالأبقار والمحاريث الديوانية » . النابلسى ص ٢٨

★★ « وكان إلى ما بعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة ، وكانوا يقولون إن زاد على ذلك ذراعا واحدا زاد خراج مصر مائة ألف دينار ... فإذا زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا انقص من الخراج لما يستبحر من الأرض المنخفضة » . المقرىزى خطط ١ ص ١١٠

وقياس أراضى الإقطاعات كان يقوم به ممثلو إدارة الإقطاع (ديوان الإقطاع - المترجم) وهم كانوا يطابقون قوائم دافعى الضرائب المحفوظة لدى المقطعين^(٣٦) .
أما الأراضى الحكومية فكان يتم قياسها بواسطة موظفى السلطان ، ثم ترسل السجلات بعد ذلك إلى القاهرة^(٣٧) .

والمصادر لا تتضمن أى معطيات عن قياس أراضى الوقف ؛ ذلك لأنها كانت معفاة من الضريبة الحكومية العامة ، بينما كان الفلاحون الذين يقومون بزراعة هذا النوع من الأرض فى ذلك الوقت ، يتحملون بالفعل نفس الفروض الإقطاعية التى يتحملها فلاحو الأنواع الأخرى من الأرض بما فيها الخراج ، وكانت المشاريع الدينية والمشرفون على أراضى أوقافها هم المستفيدون من هذه الإعفاءات^(٣٨) .

ودفع الخراج كان يتم إما نقداً أو عينا ، والدفع العينى كان هو الشكل السائد فى صعيد مصر ؛ فابن مماتى يروى أنه عند إنشاء سجلات ديوان القاهرة فى ١١٧٦م - ١١٧٧م - كان فدان الفول يدفع خراجاً يتراوح ما بين إردب وإردب وثلاث - أما فدان الحمص فيدفع من ثلثي إردب إلى إردب وثلاث وفدان العدس يدفع ما يتراوح ما بين ثلث إردب ، وإردب وثلاث ، وفدان الكتان كان يدفع فى معظم الأقاليم ثلاثة دنانير وأحياناً أكثر وأحياناً أقل ، ولكن فدان الكتان فى المنوفية ، كان يدفع دينارين وفى ضالاس كان فدان الكتان الواحد يدفع عشرين ديناراً ونصف ، أما فدان القرطم فكان يدفع ديناراً واحداً ، وفدان البصل أو الثوم يدفع دينارين ، أما فدان عنب « الديب » فكان يدفع ديناراً وربع ؛ وكل هذه المحاصيل تعتبر محاصيل شتوية ، أما المحاصيل الصيفية فكان خراج : فدان القصب السورى مقداره دينار واحد ، أما فدان البطيخ أو الشمام أو الفاصوليا فكان يدفع ثلاثة دنانير ، وفدان السمسم أو القطن كان يدفع ديناراً واحداً ، أما فدان قصب السكر الناضج فكان يدفع خمسة دنانير ، ويدفع فدان القلقاس أربعة دنانير ، وفدان نبات النيلة يدفع ثلاثة دنانير ، وفدان الفجل واللفت كان يدفع ديناراً واحداً ، أما فدان الكرنب فيدفع حوالى دينارين ؛ وخراج الأشجار المثمرة كان يختلف حسب نوع الشجر وعمره ؛ ففي السنة الأولى من غرس الأشجار كان الفدان الواحد يدفع ثلاثة دنانير ، وفدان العنب يدفع خمسة دنانير ، وفدان قصب السكر الفارسى كان يدفع حوالى ثلاثة دنانير^(٣٩) .

وإذا كان محصول الفدان من أى نوع من الحبوب غير مرتفع ، فمن الممكن استبدال خراجه ، فمثلا كان إردب القمح يساوى إردبين من الشعير أو إردبا ونصفا من الفول أو إردبا من الحمص أو إردبا ونصف من الجلبان* . وكان إردب الشعير يساوى نصف إردب من القمح أو ثلثي إردب من الفول أو نصف إردب من الحمص أو ثلثي إردب من الجلبان ؛ فبدلا من إردب الفول من الممكن أن يدفع الفدان ثلثي إردب من القمح أو إردبا ونصف من الشعير أو ثلثي إردب من الحمص أو إردبا من الجلبان ، أما إردب الحمص فكان مساويا لإردب من القمح أو لإردبين من الشعير أو لإردب ونصف من الفول أو لإردب ونصف من الجلبان ، وكان إردب الجلبان مساويا لثلي إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلثي إردب من الحمص^(٤٠) .

وتوضح هذه المعطيات ، بكل الاحتمالات ، المعادلات التقريبية للخراج فى كل البلاد ؛ وذلك فى حالة دفعه فى مصر السفلى (الدلتا) بالعين أو النقد ؛ وأعلى العكس من ذلك فى مصر العليا^(٤١) .

والمقارنة النموذجية لمعلومات ابن ممتى مع المعطيات المشابهة لها عن مصر فى القرون الهجرية الأولى تعطينا إمكانية « الحديث » عن تخفيف محدد لبعض الأعباء الضرابئية فى العهد الأيوبي^(٤٢) .

★ حبوب رفيعة كانت تستخدم فى علف الماشية ... المترجم .

★★ وقد ذكر فى قوانين النواوين أن قاعدة البدل ، أن يؤخذ عن القمح بدل كل إردب . من الشعير إردبان ، ومن الفول إردب واحد ونصف ، ومن الحمص إردب ومن الجلبان إردب ونصف . والشعير يؤخذ عن كل إردب منه : نصف إردب من القمح ، أو ثلثا إردب من الفول أو نصف إردب من الحمص أو ثلثا إردب من الجلبان . وفى الفول يؤخذ عن كل إردب منه ثلثا إردب من القمح وإردب ونصف من الشعير ، أو ثلثا إردب من الحمص أو إردب من الجلبان . وفى الحمص يؤخذ عن كل إردب منه : إردب من القمح أو إردبان من الشعير أو إردب ونصف من الفول أو إردب ونصف من الجلبان . وفى الجلبان يؤخذ عن كل إردب منه : ثلثا إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلثا إردب من الحمص . القلقشندى : صبح الأعشى ص ٤٥٠ - ٤٥١ .

ويواصل ابن مماتى قوله عن إنقاص قيمة الخراج عن محاصيل الحبوب الرئيسية فيقول : إنه فى نهاية ١١٧٢ م كان كل فدان من القمح أو الشعير يدفع حوالى ثلاثة أراذب ولكن فى ١١٧٦ م صار يدفع إردين ونصف فقط ^(٤٢) .

وتأكيداً لمثل هذا القول يمكن أن نستخدم النص التالى للمقريزى * « كانت الضريبة على فدان القمح فى مصر العليا فى زمن الفاطميين ثلاثة أراذب ، وفى ٥٧٢ هـ (١١٧٥ - ١١٧٦ م) صار كل فدان يدفع خراجا قدره إردين ونصف ، ولكن بعد ذلك صار الفدان الواحد يدفع إردين فقط » ^(٤٣) .

والضريبة الحكومية العامة الأخرى ، كانت تتمثل فيما يسمى بالزكاة - وكان تحصيلها واسع الانتشار ، حيث كانت تجبى من أصحاب المواشى (الرعاة) ، وبنوه النابلسى عن الزكاة التى كان يدفعها الملاك عن الثيران الحمراء أو الجاموس أو الكباش أو النعاج ؛ ويضيف أن الزكاة عن النعاج البيضاء كانت أكثر من الزكاة عن غيرها ^(٤٤) ونجد عنده أيضاً تنويها عن الزكاة المطلوبة عن أشجار العنب والزيتون والطواحين ^(٤٥) .

ويشير المقريزى إلى أنه كان يوجد فى عهد صلاح الدين فى مصر ديوان يسمى ديوان الزكاة ، وكان تحت إدارة الأمير المعروف . قراقوش الأسدى ^(٤٦) .

وكانت هناك ضريبة على « رعوس الطيور » المنزلية تسمى المراعى * ومقدارها يتراوح من ٢٠ ، ٣٠ ، ٥٠ ، ٧٠ ، ١٠٠ درهم عن كل مائة طائر ^(٤٨) ازداد نمو المبلغ الإجمالى لهذه الضريبة بشكل غير متوقع ، وكانت هناك أيضاً ضريبة على الشمع والعسل يدفعها أصحاب المناحل ^(٤٩) وفيما يبدو فإن هاتين الضريبتين كانت لهما علاقة « بالمكوس » التى سبق التنويه عنها ، وهى نوع من الضرائب كان يُدفع كل شهر قمرى وتسمى (النقود القمرية) .

* المراعى جارى عن مائتين واثنين وأربعين رأساً تسعة وسبعون درهما ونصف وثمان قطع ثلاثين درهما المائة رأس ، عن خمسة وثمانين رأساً خمسة وعشرين درهما ، . النابلسى ص ٢٥ وأيضاً : والمربى بها من الفروج للديوان بما فيه من أجرة التربية ثلاثمائة وعشرون فروجا تفصيله للديوان مائتان وللمقطعية مائة وعشرون ص ٢٨ .

ومن المؤسف أن مصادرنا لا تمتلك معطيات دقيقة عن أسلوب توزيع الربيع الإقطاعي (الخراج) لأنواع ضرائب الزكاة والابتزازات المختلفة من الحكومة والقابضين على الإقطاعات .

أما فيما يتعلق ببعض أنواع أخرى من الابتزازات المجباه من الفلاحين ، فإن المصادر تمتلك حقائق أكثر تحديدا ؛ فابن ممتى يؤكد أن التبن في مصر كان يقسم إلى ثلاثة أقسام . يقدم الفلاح قسما منه ليوضع تحت تصرف الحكومة ، ويأخذ الإقطاعي القسم الثاني ، أما القسم الثالث فيحتفظ به الفلاح لنفسه ، وكان سكان الإقطاعات البعيدة عن النهر يُعفون من تسليم هذه الضريبة ، وتتحملها غالباً القرى التي تقع على النهر حيث لا توجد صعوبات كثيرة في تسليمه^(٥٠) .

ومن المعروف أن صلاح الدين في ١١٨٣ - ١١٨٤م أعفى أهالي البهنساوية من توريد التبن مقابل ألفين من الدينارات ، ولكن في ١٢٣٥م تسلم الديوان السلطاني من إقليم الفيوم ما مقداره ٥١,٦٥٠ حملا من التبن^(٥١) .

وكان هناك تقسيم مصطنع على تقسيم رءوس الطيور إلى ثلاثة أنواع ؛ كان مطبقا في مصر بشكل واسع على امتداد القرون الوسطى ، وبهذا الصدد نجد عند النابلسي بعض الأرقام المناسبة عن معظم قرى الفيوم ، فهو يقول إن قرية استنباط كان يجب عليها أن تقدم ١٢٥٠ طائرا ، يأخذ منها الديوان السلطاني ٤٥٠ طائرا ويأخذ أصحاب الإقطاعات ٨٠٠ طائرا ، أما قرية أبو كسا فكان عليها أن تقدم ١٧٧٠ طائرا ؛ كان نصيب الديوان السلطاني منها ٩٧٠ طائرا ونصيب أصحاب الإقطاعات ٨٠٠ طائرا ، وأما قرية الحمام فكان عليها أن تقدم ٦٠٠ طائرا يقتسمهما الديوان السلطاني والإقطاعي^(٥٢) .

وكان على الفلاحين تجاه الدولة صنوف من الواجبات المفروضة ؛ يشير إليها ابن ممتى في كلامه عن بعض أنواع الزكاة (عن بعض محاصيل الصبوب - المؤلفه) فيقول « هذه الضريبة تجبى من الفلاحين ولا تجبى من ملاك الأراضي ، وهى تكون مناسبة لدخلهم ، إما نقدا وإما عينا ، فإذا وعد أحد الإقطاعين أحد الفلاحين

بإعفائه من هذه الضريبة فعليه أن يتحمل مسئولية سدادها هو ، وعليه فى هذه الحالة أن ينفذ « (٥٣) .

وكان الفلاحون ممنوعين من حيازة أشجار السنط التى تنمو على حدود أراضيهم ، وعليهم فى هذه الحالة أن يقوموا بإمداد الإدارات الحكومية بما تطلبه من أخشاب لازمة لها . (لإقامة المباني أو السفن أو لوازم الوقود أو للبيع — المؤلفه)؛ غير أن المنع لم يكن دائما واجب التنفيذ ، فابن مماتى يقول إن فى زمانه كان فى إقليم البهنساوية ثلاثة عشر ألف فدان من أراضى الإقطاعيين مفسدة بالأشجار ، وكان فى إقليم القوصية ما يساوى مثل هذه المساحة أيضا (٥٤) وعلى النقيض من ذلك يقرر النابلسى أنه طبقا لأوامر السلطان الكامل - بعد ظاهرة اختفاء أشجار السنط فى قليبوب - تم تحريم قطع الأشجار ، وأمر أيضا بضرورة عمل إحصاء لعدد أشجار السنط وغيرها فى إقليم الجيزة وعدد من الأقاليم الأخرى (٥٥) .

وكانت هناك ضريبة أخرى تسمى الكيالة (مقدار معروف من الحبوب) تقدم للحكومة ، وهى ضريبة خاصة للمعينين لحراسة نهر النيل وبعض الموظفين الآخرين ، وهذا مانوه عنه النابلسى (٥٦) .

وعن وجود علاقات مباشرة بين موظفى الحكومة والفلاحين العاملين فى أراضى الإقطاعات نستطيع أن نقدم هذه الحقيقة عن المعونات التى تتمثل فى إمداد موظفى الحكومة للفلاحين بالتقاوى وذلك عندما ترى ضرورة إمدادهم بصنف معين من هذه التقاوى (٥٧) .

وعند تنفيذ بعض أعمال الري ؛ كان على الفلاحين أن يقدموا الدريس اللازم للحيوانات التى تعمل فى هذه المشاريع ، وعليهم أيضا أن يقدموا الجرافات وإلا فعليهم أن يقوموا بدفع إتاوات محددة وأحيانا كانوا يطالبون بدفع هذه الإتاوات وغيرها من الإتاوات مباشرة ؛ إذ إن المصادر عادة عندما تشير إلى مثل هذا النوع من الإتاوات تتكلم عنها كمداخيل للإدارات الحكومية أو لأصحاب الأراضى الإقطاعية .

وهكذا فإن سكان إقليم الفيوم فى ١٢٤٣ - ١٢٤٤م قدموا كضرائب من هذا النوع طبقا لمرسوم السلطان الصالح مائة جُرَافَة^(٥٨)؛ وذلك لإقامة السدود فى الجزيرة والفيوم . وكما سبق القول فإن مساهمات الفلاحين الخاصة ببناء أو إصلاح مشروعات الري كانت بدون شك مساهمات تتم وفق ظروف خاصة بمصر ، وهذا ما جعلها شكلا أساسيا من أشكال السخرة .

وكانت خزانة الدولة تتسلم ، بشكل استثنائى ، ضريبة على النفوس تسمى ضريبة « الجزية » وهى الضريبة التى يتم جبايتها من الراشدين من غير المسلمين (ما عدا النساء) سواء كانوا من الفلاحين أو من أهل الحضر ، وكانت الجزية عادة تعادل دينارين عن الشخص الواحد فى السنة وتدفع للخزانة الحكومية بشكل استثنائى .

« والمبلغ الاجمالى لإيرادات هذه الجزية كان ينقص عاما بعد عام ، بسبب اعتناق الناس للإسلام ، حيث يكتب ابن مماتى عن زيارته فيقرر أن الجزية نقصت إلى نصف ما كانت عليه قبل ذلك^(٥٩) ويوافقه فى هذا المقرئى فى تاريخه عن ١١٩١ م إذ يقول إن كل ماتم جمعه من أموال الجزية فى هذا العام يساوى ثلاثين ألف دينار^(٦٠) .

ونجد عند النابلسى معلومات هامة تتعلق بجباية هذه الضريبة حيث يقول : إن الفيوم بأسره فى ١٢٤٣م ، كان به ، ١١٤٢ من غير المسلمين ، وفى زمن إعداد الوثائق عنهم ؛ تغيب ٢٩٢ فردا ، كان منهم ١٥٣ فردا فى مصر السفلى ، ١٣٩ فى مصر العليا ، وكان من بين هؤلاء المتغييبين ٤١ صيادا من صيادى الصحراء ، ويصرف النظر عن هذا ، فإن جباية هذه الضريبة كان يتم بصورة كاملة ؛ إذ إن إيرادات الفيوم من هذه الضريبة كما تدل وثائق هذا العام نفسه كانت ٢٢٨٤ دينارا^(٦١) . وقد اعتبر « كهن » أن هذه الحقيقة تثبت مبدأ التكافل الاجتماعى ، معتقدا أن مايرويه النابلسى يعتبر دليلا غير مباشر على وجود المشاعة القروية^(٦٢) ، غير أن تحليله هذا يدحضه مايرويه النويرى من أن المسيحيين بشكل خاص هم الذين كانوا يدفعون هذه الجزية حيث يوجدون فى أى مكان^(٦٣) .

وبهذه الصورة فإننا لا نملك أية معطيات مباشرة عن وجود المشاعة القروية في مصر في العهد الأيوبي .

بيد أن المشاعة* القروية الإقليمية ، كانت حتما موجودة ؛ ووجودها يتأكد كواقع سواء كانت قبل هذا العصر أو بعده (٦٤) .

وهناك حقائق مشابهة أيضا تتعلق بالقرون الأولى للإسلام ، وتتعلق أيضا بالعهد المملوكي ؛ وهي تستدعي افتراض أن التبعية الخاصة للفلاحين في العهد الأيوبي قد تقبلت شكل الارتباط بالأرض مما يستطيع خضوع المشاعات للإقطاعيين خضوعا كاملا (٦٥) .

وفيما يتعلق بهذا الموضوع ؛ فإن هناك احتمالا كبيرا يجعل من الممكن الموافقة على تقبل فرضية « بفزير » القائلة : بأن الارتباط بالأرض في مصر ، الذي كان يقترب من الاستيطان قد تحول إلى الاسترقاق الإقطاعي (٦٦) .

وإننا لنجد في مصادر العهد الأيوبي بعض الأصداء التي تتردد عن عملية الانفصال الطبقي في المشاعة القروية ؛ التي كانت بدايتها في التاريخ القديم في مصر (٦٧) .

ولا شك أنها امتدت عبر تاريخها مئات السنين ، حيث بدأ قسم من أهل المشاعة البدائية ؛ يفقد الحق في أن يعمل في فلاحه أرضه ، ففي " تاريخ الفيوم " نجد إلى

* وعنها يحكى القرينى خطط ١ ص ١٤١ ... ثم تجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم ، وخارج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الأرض فدادين لكتائبهم ، وحماياتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فإذا فرغوا نظروا في كل قرية من الصناع والأجراء فقسما عليهم بقدر احتمالهم ، فإذا كانت فيهم جالية قسما عليها بقدر احتمالها وقاما كانت تكون إلا للرجل الشاب أو المتزوج ، ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك على قدر طاقتهم ، فإن عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعموا ما عجز عنه على ثوى الاحتمال ، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فإن تشاحنوا قسما ذلك على عدتهم ، (أثرنا إيراد هذا النص برغم أن المؤلف لم تشر إليه ، وذلك لأنه يلقي الضوء على المشاعة القروية ، .. علاوة على ما نقوله المؤلف في نفس الهامش .. المترجم) .

جانب كلمة "فلاحين" التي تعنى "مزارعين" هذين المصطلحين : المولين والمرابين^(٦٨) وهذان المصطلحان يعنيان بكل الاحتمالات نظام المحاصات ، التي تعنى أن "المحاصة" تعطى لمالك الأرض المستريح ربيع محصولها^(٦٩) .

وعن وجود الفلاحين الذين لا يملكون أرضا ، ويضطرون لاستئجار أراضي الغير ، يقول ابن مماتي : لقد كانت هناك في الغربية قطع معينة من الأرض ، تم تسليمها للايجار وكانت ضمن أراضي الإقطاعات ، ولكنها كانت عسيرة الرى ، وفيما يبدو فإنها لم تكن داخلة في أملاك المشتركة^(٧٠) .

وسوف نستدل بمقارنة وثيقتين هامتين احتفظتا بوضوحهما ، عن الحجم الكلى لاقتصاديات ، البلاد في نهاية القرن الثاني عشر .

الوثيقة الأولى : وقد ضمنها أبو صالح حسب تصوره قائمة بمداخيل أقاليم مصر ، تتعلق بسنة ١٠٩٠ م ، وهذه القائمة تم تأليفها طبقا لأوامر بدر الدين الجمالى وزير الخليفة الفاطمى : المستنصر ، وقام بترجمتها « افئس » مستشهدا بها على مداخيل الضياع^(٧١) (fiefs) وللأسف فإن نشر هذه الوثيقة لم يؤد إلى الاستفادة منها عند موازاتها بالنص العربى ، لانه من الأرجح أن الأصل العربى استخدم مصطلح "الإقطاع" فى هذا المكان من الوثيقة ، ولكن الافتراض بأن كل الأراضي المصرية تقريبا (١٢٧٦ دائرة أوكورة) فى عهد المستنصر ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م قد تحولت إلى إقطاعات وتم منحها للإقطاعيين المحاربين ، افتراض لا يتفق وحقيقة الوضع .

ولذا فالأرجح أن مصطلح الإقطاع فى هذه الحالة قد استخدم بدلا من المعنى الأصلى وهو الالتزام ، ومن ثم فإن هذه الوثيقة تقدم مجمل المداخيل المدفوعة عن التزام الأرض عن السنة المشار إليها .

مصر العليا		مصر السفلى	
الاقليم	جملة الدخل بالدينار	الاقليم	جملة الدخل بالدينار
الشرقية	٦٩٤١٢١	الجيزة	١٢٩٦٤١
المرتاحية	٧٠٣٥٨	أطفيح	٣٩٤٤٩
الدقهلية	٥٣٧٦١	البوصيرية	٣٩٣٩٠
الأبوانية	٤٧٠٠	الفيوم	١٤٥١٦٢
جزيرة قويسنا	١٥٩٦٦٤	البهنساوية	٢٣٤٨٠١
الغربية	٤٣٠٩٥٥	الأشمونين	١٢٧٦٧٦
السمنودية	٢٠٠٦٥٧	أسيوط	٣٠٤٨٣٤
المنوفية	١٤٠٩٣٣		
هوة	٦٠٨٠	جملة مصر العليا (الصعيد)	١٠٢٠٩٥٣
النستراوية	١٤٩١٠	جملة مصر كلها	٣٠٦٠٩٩٣
رشيد	٣٠٠٠		
جزيرة بنى نصر	٦٢٥٠٨		
البحيرة	١٣٩٣١٣		
حوف رمسيس	٥٩٠٨٠		

جملة مصر السفلى (الدلتا) ٢٠٤٠٠٤٠

ويتضح من هذا الجدول أن جملة مداخيل مصر العليا والسفلى تتألف من ٣٠٦٠٩٩٣ ديناراً ومن المعروف أن جملة الضرائب العامة في الإسكندرية ودمياط وتنيس وقوص وأخميم في هذا العام كانت ٦٠ ألف دينار ، ومن ثم تصبح جملة مداخيل الخزانة الفاطمية في ١٠٩٠ م تساوى ٣١٢٠٩٩٣ ديناراً^(٧٣) .

الوثيقة الثانية : ونجدها عند المقرئى نقلا عن القاضى الفاضل ، وهى تقدم تصورا عن حساب مداخل الضياع (العبرة) الموهوبة كإقطاعات فى الأقاليم المصرية والمدن المختلفة ومؤرخة فى ٢١ شعبان ٥٨٥ هـ ١٧ أكتوبر ١١٨٩ م . فبمقدار ما كان نوع الإقطاع (فى معناه الأخير ... المؤلفة) فى هذا الوقت الذى تم فيه توزيع معظم الأراضى المصرية الخاضعة ، بمقدار ما تكون المقارنة نموذجية لهذه القائمة الخاصة بالعصر الفاطمى ، وتتضح تماما مدى مصداقيتها ، بالرغم من أن الحدود الإدارية الرسمية التى جرت فى مصر فى المائة سنة الأخيرة كانت قد تغيرت قليلا كما هو واضح .

مصر السفلى		مصر العليا	
الإقليم	جملة الدخل بالدينار	الإقليم	جملة الدخل بالدينار
الإسكندرية	٨١٨.٣٠	الجيزة	١٥٣٢.٤
رشيد	٢.٠٠	الأطفيحية	٥٩٧٢٨
البحيرة	١١٥٥٧٦	البوصيرية	٦.٤٦٦
حوف رمسيس	٩٢٤.٣	الفيوم	١٥٢٦٣٤
فوة والمزاحمتين	١.٠١٢٥	البهنساوية	٣٥٢٦٣٤
النبراوية	١٥٣.٥	الواحات	٢٥.٠٠
جزيرة بنى نصر	١١٢٦٤٦	الأشمونين	١٤٧٧٣٢
جزيرة قويسنا	١٣.٥٩٢	السيوطية	٧٢٥.٤
الغربية	٦٧٤٦.٥	الأخميمية	١.٨٨١٢
السمنودية	٢٤٥٤٧٩	القوصية	٣.٢٥.٠٠
الدنجاوية	٤٦٢٧٤	أسيوط	٢٥.٠٠
المنوفية	١٤٨٣٤٧		

جملة مصر السفلى (الدلتا) ٢٤١١٣٨٢

جملة مصر العليا (الصعيد) ١٥٢.٢١٤

جملة مصر كلها (٧٣) ٣٩٣١٥٩٦

وبإضافة مداخيل بوش والدقهلية والمرتاحية والشرقية التي تبلغ ١١٩.٩٢٣ ديناراً ،
يكون الإجمالي العام لهذا الإحصاء بهذه الصورة هو : ١٢٢٥١٩ ، ٥ ديناراً (٧٤) .

ويلاحظ المقرئ بوعى أن بيانات مداخيل منفلوط ومنقباد وبعض مصادر الدخل
الأخرى لم يرد عنها شيء ، ومهما كان الأمر ، فإن الدخل الحقيقية لمصر في نهاية
حكم صلاح الدين كانت مرتفعة بشكل حقيقى عن مداخيل مصر في العهد الفاطمى في
نهاية القرن الحادى عشر ؛ نتيجة للتدهور الاقتصادى العميق الذى ميز العقدين
الأخيرين من حكم هذه السلالة .

وعلاوة على هذا ، من الممكن نقل ثلاثة أرقام من مداخيل الفيوم ؛ اثنين منهما
تضمنتهما كتابات أبو صالح أما الثالث فنجدده عند المقرئ بعنوان « خراج » الفيوم (٧٥)

فى ١١٧٣ م ١٣٣٢٧٤ ديناراً

فى ١١٨٠ م ١٠٠٠٤٦ ديناراً

فى ١١٨٩ م ١٥٢٧٠٣ ديناراً

وفى هذه الحالة ، فإن زيادة المداخيل تصبح مؤكدة من المعطيات المقدمة ؛ التى تم
فيها حساب المداخيل النقدية فقط دون أى مساس بالدخول العينية - التى هى وفقاً
لمعطيات « كهن » قد تضاعفت مرتين ونصف فى إقليم الفيوم وحده فى منتصف
القرن الثالث عشر متجاوزة بذلك الدخل النقدية (٧٦) .

وفائض إنتاج المنتجين المباشرين (الفلاحين) ، هو الذى كون القسم الأساسى
من تزايد الدخل الحكومية فى العهد الأيوبي ، وفى رأينا أن هذا لم يكن نتيجة لتطويق
الفلاحين بالنظام الضرائبى ، بل كان نتيجة للارتقاء العام فى قوى الإنتاج ، الذى
اشتراط تغير شكل الملكية الإقطاعية للأرض ؛ وتمثل فى تخفيف بعض القيود الإقطاعية
التي أملت بها الضرورة على الطبقة الحاكمة ؛ للخروج من الأزمة الاقتصادية والسياسية
التي حدثت فى مصر فى أواخر العهد الفاطمى .

• • •

والحقائق عن وضع الفلاحين المصريين فى العهد المملوكى المبكر ، قليلة جداً ، والموجود منها متناثر إلى أبعد الحدود ، وفى رواية النويرى عن الإجراء التقليدى المتبع فى كل عام ، وهى رواية مقدمة منه كشاهد عيان ؛ نجد إشارات صريحة عن وجود الإقطاع فى زمانه ، فهو يسمى الفلاحين : الفلاحين القراريين ، التى تعنى « الفلاحين المرتبطين بالأرض »^(٧٧) وكمأنوهنا سابقاً ، فإن تبعية الفلاحين الخاصة للمملوك المقطع ، كانت تتضمن ، بشكل خاص أيضاً ، ضرورة إمداد الإقطاعى المملوكى بأنواع الأطعمة المختلفة اللازمة له وللمقربين منه ، حتى فى أثناء سفره من الإقطاع المعهود له به^(٧٨) . ولاتوجد فى مصادرنا أية تفصيلات عن أوضاع فلاحى أراضى الحكومة ، عدا ما ذكره الرحالة العربى الشهير : ابن بطوطة عن أيام زيارته الأولى لمصر فى ١٣٢٦ - ١٣٢٧ م . فقد سافر إلى تروجة ، وهى قرية كانت أرضها تحت تصرف الحكومة ، وكانت قريبة من الإسكندرية ، وقد تعجب من الحصار المضروب على سكانها^(٧٩) . ويدل مثل هذا الخبر على مدى استغلال الفلاحين فى مثل هذا النوع من الأرض ذات الأهمية القليلة بالنسبة إلى مساحاتها .

أما فيما يتعلق بفلاحى أراضى الوقف ، فإن مصادر العهد الأيوبى تكاد لا تقترب منه إطلاقاً ، لكننا نجد عند عسند المقرئى ، تحت (١٣٢٩ - ١٣٤٠ م) ، عندما يصف الوقف السلطانى بكلمة « مزارع »^(٨٠) لذلك ، فمن الممكن هنا افتراض وجود نظام « المحاصة » .

وفى نفس الوقت نجد بعض المعطيات القليلة ، التى يمكن أن يستدل منها ، على وجود بعض القيود على الاستغلال الحكومى للفلاحين ، وفى العهد المملوكى الأول ، حيث يقول المقرئى عن ١٣٠٧ م : إن الأمير كراى أثناء وجوده فى مصر العليا استعداداً لسفره إلى السودان - بناء على أمر السلطان - قام باضطهاد الفلاحين فى إقليم إدفو وانتزع منهم قطعان غنمهم . وعندما علم السلطان بهذا الأمر من نائبه ، لم يتوان لحظة فى استدعاء كراى إلى القاهرة .^(٨١) ومن المعروف أنه فى أثناء حكم هذا السلطان نفسه تم عزل بعض عماله فى الأشمونين وبلييس وبعض أقاليم الدلتا الأخرى ، نظراً لتعسفهم الشديد فى إصدار الأوامر^(٨٢) .

وظل الريع الإقطاعي مختلطاً ؛ فعلى سبيل المثال ، هناك رواية للمقريزي عن الأمير سالار يثبت فيها أنه حتى مصادرتة لإقطاع كان موهوباً لأربعين من أمراء الطبلخانات * ، تسلم من إقطاعه في نفس هذا العام ستة آلاف إردب من الحبوب ، وألف دينار مصري^(٨٣) .

كانت السياسة الضريبية في عهد المماليك الأوائل تجاه الفلاحين معتدلة نسبياً بشكل عام ، ففي عهد السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس ، كان مجمل المكوس المجموعة من الفلاحين للموظفين في الدقلية والمرتاحة قليلاً ؛ لكن الجزية كانت أحياناً تُجمع مرتين^(٨٤) .

غير أن هذه الضريبة في ١٢٧٩ م . أي في عهد السلطان قلاوون لم تجمع من المسيحيين إطلاقاً ، وتم جمع ضريبة جديدة من المالكين لأدوات مثل السواقي الدائرة . وفي ١٢٩٠ م . تم جمع الضرائب المتأخرة المستحقة من الخراج .^(٨٥) وكان الإجمالي العام للخراج عالياً جداً وفق معطيات « اشتراوس » ؛ فقد بلغ في ١٢٩٨ م . مايساوي ٨١٦٥٨٤ ، ١٠ ديناراً^(٨٦) وتزايد أيضاً هذا الخراج في عهد السلطان : الناصر محمد .^(٨٧)

والضرائب المجبأة من الفلاحين المصريين وملاك الضياع لضرورة التصدي للغارة المغولية الجديدة ؛ معروف لنا أنه تم جمعها مرة واحدة في ١٣٠٠ م .^(٨٨) ولانجد في مصادرتنا الرئيسية أية إشارة عن هذه الضرائب المجبأة لهذا الغرض في مصر في نهاية القرن الثالث عشر من الفلاحين المصريين ولكننا نجد هذه الضريبة يتم جبايتها من الفلاحين السوريين وفقاً لما يرويهِ ابن عبد الظاهر والمقريزي .^(٨٩)

وبعد إعادة التقسيم الذي قام به الناصر محمد ، فإن ضريبة الجزية من المسيحيين الذين يعيشون في مناطق خاضعة للإقطاعات صارت جبايتها تتم لحساب مالكي الإقطاعات ، وليس للخزانة الحكومية ، ويشير التويري بهذا الصدد إلى دسائس

* وكان قد شكّاه من انكسار خراجه ستة آلاف إردب غلة وألف دينار مصرية .. والأمير سالار يدخل إليه من أجر أملاكه في كل يوم ألف دينار مصرية ومن إقطاعاته وضماناته وحماياته تتمة ألف درهم في اليوم ... وكان إقطاعه أربعين إمرة طبلخانة . المقريزي سلوك ٢ ج ١ ص ٥٨ ، ٩٧ ، ٩٩ .

أقباط مصر وسعيهم بكل الوسائل لتقليل عبء الضريبة المستحقة عليهم والمفروضة على إخوانهم في الدين : فلم يكن بوسع الإقطاعي « أن يفرض رقابة صارمة على انتقال الأهالي ؛ لأن هذا كان من اختصاص موظفي الجهاز الحكومي المتشعب ، وقد سبق الكلام في هذا الموضوع طبقاً لما قاله النابلسي عن أقباط الفيوم .

« عندما كان الجوالي المعينون* من قبل الديوان السلطاني - يواصل النويري - هؤلاء المختصون بجباية هذه الإتاوات ، يتوجهون إلى كافة الأقاليم ويجبون هذه الإتاوات طبقاً للظروف الملأمة ، فإذا كان المسيحي موجوداً في ميناء دمياط وهو من سكان أسوان أو حلب - أو العكس - فإن هؤلاء الجوالي يأخذون منه الجزية في نفس المكان الذي يوجد فيه ، والموظفون سيقومون بالإخبار عنه في إقليمه ، وهناك مع هؤلاء يكون الحساب ، والآن فإن هذا النظام قد تم القضاء عليه » (٩٠) .

أما فيما يتعلق ببناء الحصون الدفاعية ومشروعات الري أيضاً ، فإن ما يسمى (ضريبة استيفاء دين العمل) كانت تلعب دوراً كبيراً ؛ حيث كان عدد من موظفي أمراء الممالك يقومون بجمع هذه الضريبة بالشكل الملأم ، وكانوا يشرفون على أعمال بناء أو إصلاح الخزانات والقنوات السلطانية ، والمصادر تسمى هؤلاء الموظفين « الكاشفين » (٩١) .

وكان السلطان نفسه هو الذي يقوم بتحديد عدد الأشخاص اللأزمين للقيام بالأعمال الكبيرة ، فمن أجل إقامة جسر من قلوب حتى دمياط بهدف الحماية من الهجوم المتوقع من الصليبيين من جهة النيل في ١٣٠٨ - ١٣٠٩ م ؛ تم جمع ثلاثين ألف شخص من الأقاليم المصرية المختلفة ، كما جُمع أيضاً ثلاثمائة زحافة ، وستمائة ثور (٩٢) واستمر العمل بهذا الجسر حوالي شهر ؛ ثم بعد ذلك تم بناء جسر آخر في اتجاه الإسكندرية (٩٣) .

في ١٣٣٧ م استدعى عدد كبير من الفلاحين بهدف تشييد حظيرة مواشى سلطانية ، كانت غاية في الفخامة وكانت تقح في مكان بعيد عن القاهرة « حيث كانت

* لما كانت الجوالي جارية في الخاص السلطاني ، كانت الحشار (المختصون بجباية هذه الإتاوات - المترجم) تسافر إلى سائر البلاد ويستأدونها منسوبة إلى جهاتها ، وإذا وجد نصراني في ثغر دمياط وهو من أهل أسوان أو أهل حلب أو عكس ذلك أخذت منه الجزية في البلد الذي يوجد فيه ويكتب المباشرون لها وصولاً ، فيعتدله ببلده . . . فانقرط ذلك النظام وهي الآن على تقريره ، المقرئى سلوك ٢ ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٤ (وهو هامش بنفس الصفحتين عند النويري) .

الأرض تقسم إلى قطع* يكدح فيها الفلاحون ليلاً ونهاراً فى لهب القيظ دون راحة ، وكان هذا يحدث فى الصيف» (٩٤) .

أما فيما يخص سوريا ، عن وجود رقابة محددة على معدل الاستغلال الإقطاعى للفلاحين ، فإننا نشير إلى وصية الأمير طنكيز المنوه عنه سابقاً ، وكان يعمل حاكماً لدمشق من ١٣١٢ - ١٣٤٠م ، والتي نجدها عند المقرئى معبراً عنها فى المقطع التالى :
« منع** هو الأمراء من استخدام الفلاحين والمزارعين فى الأعمال الإجبارية فى جميع أقاليمهم » (٩٥) .

ونشير مرة أخرى إلى أن المقرئى نوه فى هذا المقطع بمصطلحى « مزارع وفلاح » جنباً إلى جنب ، مما يؤكد أنهما مختلفان فى المعنى .

وطالما أن وصية الأمير طنكيز كانت قائمة على أساس مرسوم السلطان : الناصر محمد ، الخاص بكل سوريا (٩٦) فيمكن أن نستدل منها على أن هذا كان ينطبق على هذين النوعين من الفلاحين ؛ ليس فى دمشق وحدها ؛ بل فى كل أنحاء المناطق السورية .
ومما يقوله المقرئى فى هذا المقطع ، يمكن الافتراض أيضاً : أن هذا كان إشارة لعملية تحلل المشاعة القروية التى كانت فى سوريا كما فى مصر .

والملمح الرئيسى للعمل فى الريف المملوكى ؛ هو خلوه من المحاصصين ، ومن العبيد كما سيجرى الحديث عن ذلك فيما بعد ، ولكن الفلاحين الأقتان هم الذين كانوا موجودين ، ذلك إلى جانب إقطاعية هرمية مركبة ذات سيادة مركزية وإيديولوجية دينية دلت على نضج العلاقات الإقطاعية فى مصر ابتداء من القرن الثانى عشر حتى القرن الرابع عشر .

* وفيها استدعى السلطان من بلاد الصعيد ألفى رأس من الضأن واستدعى من الوجه البحرى بمثلها وشرع فى عمل حوش ... على موضع من قلعة الجبل ورسم لوالى القاهرة بتسخير العامة فقسمت عليهم الأرض قطعاً معينة لكل واحد منهم ، فجدوا فى العمل ليلاً ونهاراً ... ولا مكنهم الأستاذار من الاستراحة ... كان الوقت صيفاً حاراً فهلك كثير منهم فى العمل . المقرئى سلوك ٢ ج ٢ ص ٤٣٣ - ٤٤٤ .

** منع الأمراء من تسخير الفلاحين والمزارعين فى أعمالهم (أقاليمهم - المترجم) . المقرئى سلوك ٢ ج ٢ ص ٥١١ .

هوامش الفصل الخامس

- ١ - انظر على سبيل المثال : T. H. Savelyeva, *Аграрный строй Египта в период Древнего царства*, М., 1962, стр. 36.
- والفيوم كانت مستثناة من نظام الري حيث كان لها وضع خاص . انظر النويرى ٨ ص ٢٤٦ .
- ٢ - ابن معاتى ص ٢٨ - ٢٩ ، والمقرئى (خطط) ١ ص ١٦٢ ، والقلقشندي ٢ ص ٤٥٠ .
- ٤٥٢ - وانظر أيضاً النويرى ٨ ص ٢٤٧ .
- ٣ - المقرئى (خطط) ١ ص ١٦٢ - ١٦٧ .
- ٤ - المقرئى (خطط) ١ ص ١٩٣ ، ٣ ص ١٨٤ ، ٢٤٦ .
- ٥ - المقرئى (سلوك) ١ ج ١ ص ٧٤ ، ٢٤١ ، ج ٢ ص ٣٠٠ ، ٣٤١ .
- والمقرئى (خطط) ١ ص ٣٥٤ وأبو الفدا ٣ ص ١٦٩ .
- ٦ - أبو صالح ص ٢٨١ وينبغي أن نلاحظ باهتمام ، الأخبار المشابهة عند « الحاج » البيزنطى (أيون فوكيه) ، الذى كان يتجول فى فلسطين فى سبعينات القرن الثانى عشر ، وهى تتعلق بالمناطق القاحلة القريبة من أريحا ، حيث كانت هناك عدة أديرة مسيحية « ومع هذا فإن هذه المناطق الآن قد صارت مروية وتحولت إلى بساتين للأديرة القائمة هناك فى هذه الأماكن الصحراوية ، إذ أن هذه الأرض المنهوكة قد تم تقسيمها وتوزيعها على كهان الأديرة ، فأصبحت كلها مغطاه بأشجار العنب ، ولذا فإن الرهبان قد صاروا يقطعون وافر الثمار لأنفسهم » وفوكيه يروى باختصار أيضاً عن المدن والبلاد القريبة الممتدة من أريحا حتى القدس ، وأيضاً سوريا وفينيقية ، وعن الأماكن المقدسة فى فلسطين فى نهاية القرن الثانى عشر « منشورة بنسخة أصلية فى ترجمة روسية فى المقتطفات الأرثوذكسية الفلسطينية مجلد ٨ جزء ٢ - ١٨٨٩ ص ٤٩ .
- ٧ - ابن معاتى ص ٣٧ .
- ٨ - نفس المصدر ص ٣٢ .
- ٩ - المقرئى خطط ١ ص ١٦٣ والقلقشندي ٣ ص ٤٤٩ .
- ١٠ - النابلسي ص ١٥١ ، ١٧٢ .
- ١١ - المقرئى سلوك ١ ج ٦٢ ص ١٥٨ .
- J . Sourdel - Thomine , *Le peuplement de la région des ((villes morte)) (Syrie du Nord)à l'époque ayyubide ((Arabica)) t . I , fasc 2, 1954*
- ١٢ - وحوادث من هذا النوع تبدو بوضوح فى المصادر ، فكما يقول المقرئى عن مصر ، فى بداية حكم صلاح الدين « لقد تزايدت الأضرار الناجمة عن الجراد الذى يلتهم ثمار البلح ، وقصب السكر وثمار الأشجار وكل هذه الأعمال التى نجم عنها هلاك مئات الأفدنة المزروعة بقصب السكر . . . سلوك ١ ج ١ ص ٤٥ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ج ٢ (سلوك) ص ٤٢٢ ، ج ٣ ص ٨١٤ - ٨١٥ .

- ١٣ - عبد اللطيف : ص ٢٦٠ - ٤١٢ ، وأبو شامة ٢ ص ٢٣٩ ، وابن تغريبردى (نجوم) ٦ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، والمقريزى سلوك ١ ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٨ ، والمقريزى (إغاثة) ص ٢٨ - ٣٠ .
- ١٤ - المقريزى (خطط) ٤ ص ٢١٥ .
- ١٥ - ابن عبد الظاهر ص ٢١٠ والمقريزى سلوك ١ ج ٢ ص ٤٤٦ ، ٥١٠ ، ٥٦١ ، ٦٣٩ ، ٢ ج ١ ص ٤٩ ، ١٣٠ وابن الفرات ٧ ص ٨٣ .
- ١٦ - المقريزى (سلوك) ١ ج ٣ ص ٧١٢ ، وأيضاً أبو الفدا ٤ ص ١٧ وابن الفرات ٧ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .
- ١٧ - المقريزى (خطط) ١ ص ٤٠٣ وابن إياس (ما يتعلق بهذه الحقيقة تحت (١٣٢٥ - ١٣٢٦ م) ، (١ - ١٦٤)
- ١٨ - المقريزى (سلوك) ٣ ج ٢ ص ٥٢٨ وأنونم ص ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٩٧ (بالروسية) .
- ١٩ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ١ ص ١١٢ .
- ٢٠ - نفس المصدر ص ١٢٤ ، ١٣٠ .
- ٢١ - نفس المصدر ص ٢٥١ .
- ٢٢ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، ج ٢ ص ٥٣٩ وابن تغريبردى (نجوم) ٩ ص ٢١٨ .
- ٢٣ - ابن دويرار ص ٣٢٠ - ٣٢١ ، وأنونم ص ١٧٥ (بالروسية)
- ٢٤ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .
- ٢٥ - نفس المصدر ص ٥٤١ .
- ٢٦ - المقريزى سلوك ٢ ج ٢ ص ٥٣٩ .
- ٢٧ - ابن تغريبردى نجوم ٩ ص ١٩١ .
- ٢٨ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ١ ص ٢٣١ ، ٣٠٢ ، ٢٠٠ ص ٣٨٥ ، ٤٥١ ، ٥٤١ ج ٣ ص ٩٤٦ وعن تعمير الأراضى الجديدة والأراضى المطمودة التى لم تكن نادرة الحدوث فى هذا العصر والتى يتكلم عنها أكثر من مرة فى حقائقه المقدمة فى :
some notes on the feudal system of the manluks. JRAS , 1937 , pt . 1 . p . 107
- ٢٩ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ٢ ص ٥٤٢ والمقريزى خطط ١ ص ١٤٦ - ١٤٧
- ٣٠ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ٢ ص ٥٤٢ : والمماليك مهدوا السبيل لإنعاش قوى الإنتاج فى المناطق الخاضعة لهم فى أرمينيا الصغرى .. وهكذا ، فإن الناصر محمد قد وضع تحت سلطة نائبه فى دمشق : الأمير طنكيز ثلاث قرى مخربة فى إقليم « سيس » ، وطبقاً لأوامر هذا الأمير توجهت من حماه وحمص وطرابلس قوافل ومعها ٢٠ ألف جوالا من الحبوب لبذرهما هناك ، وأيضاً أخذوا معهم الثيران وغيرها ، وصارت هذه القرى مزروعة بعد ذلك (المقريزى (سلوك) ٢ ج ٢ ص ٤٣٦ ، ٤٦٧)
- ٣١ - النابلسى ص ٢٨ - ٢٩

٢٢ - انظر - Cl . Cahen , contribution à l'étude des impôts dans L'Egypte médiévale, JESHO , V , 1962 , pt 3 , p . 255 .

33 - Cl . Cahen , le régime des impôts ... , p . 14

. ونجد عند النابلسي الإجمالى العام لخراج كافة الأقاليم أو دوائرها المختلفة مستعملاً اصطلاح « ارتفاع » . وبهذا فإن ارتفاع الفيوم فى سنة ١٢٤٢ قد بلغ مجمله ٢٠٧٤٧ يناراً ، ١٤٠٧٣١ إردبا من الحبوب صد ٢٣ ، أما مصطلح « خراج المنجز » الذى يتحدد عند « ك . كين » بالخراج المأخوذ على أراضى الحبوب والفل ، والخراج على حقول العنب وقصب السكر والبساتين « وخراج الراتب » وهو على غير الأعمال الزراعية ، أما خراج « الزرع » فهو ثمار البلح ويسمى خراج النخل . . انظر

Cl. Cahen , contribution à l'étude des impôts . . . pp. 255 - 256.

وعن أنواع الخراج انظر النويرى ٨ صد ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٢٤ - المقرئى (خطط) ١ صد ٩٦ - ٩٧ ، ١٤٢ .

٢٥ - ابن مماتى صد ١٥ وانظر على سبيل المثال عند النابلسي مايقوله من أن مجموع ماأخذ من الثوم كخراج من كل الفيوم ، كان فقط ثلاثة وعشرون قنطاراً بينما ماأنتج منه فى ذلك الوقت فى إقليم واحد فقط وهو « مطر طارس » قد بلغ ٢٠٦٢ قنطاراً . النابلسي (صد ١٥٧) .

٢٦ - القلقشندي ٣ صد ٤٥٨ .

٢٧ - المقرئى (خطط) ١ صد ١٣٨ .

٢٨ - وفى الظروف الاستثنائية ، كان الريع الإقطاعى من أراضى الوقف يتم الاستيلاء عليه لمصلحة الحكومة ، وهكذا فى ١٢٠٠/١١٩٩ تم تحويل مداخل الوقف المخصص للأغراض الدينية فى كل من مكة والمدينة للأغراض الحربية (المقرئى سلوك ١ ج ١ صد ١٥١) .

٢٩ - ابن مماتى صد ٢٩ - ٣١ .

٤٠ - نفس المصدر صد ٣٥ .

٤١ - انظر على سبيل المثال : القلقشندي ٣ صد ٤٥٣ .

42 - C . H. Becker , Beitrage zur Geschichte Agyptens unter dem Islam , H . II , Strassburg , 1903 , S . 116 - 117 .

٤٣ - ابن مماتى صد ٢٩ .

٤٤ - المقرئى (خطط) ١ صد ١٩٣ .

٤٥ - النابلسي صد ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٥ ، ٥٦ إلخ

٤٦ - نفس المصدر صد ٢٤ ، ٦٤ ، ١١٣ ، ١٤٢ ، وابن مماتى ، يكتب عن الزكاة خلاف ماكتبه النابلسي ، فهو يقول إنها لاتؤخذ عن الحيوانات المنزلية (فى المعالف أو الاصطبلات) ولا من قطعان الرعاة الرحل ويقدم الزكاة على أنها « تنازل » عن نسبة محددة من الرعوس طبقاً للحقوق الشرعية

التقليدية صد ١٩ - ٢٠ . ويدون شك فإن المصادر تستخدم هذا النوع (الزكاة) حتى في العصر
الأيوبي . انظر . Cl . Cahen, le régime des impôts pp 20- 21
٤٧ - المقریزی (سلوك) ١ ج ١ صد ١٣١ - ١٣٢ والمقریزی (خطط) ١ صد ١٧٥ . والزكاة
كان يتم جمعها من السكان الرحل في « برقة » - في شمال الهضبة المحاطة بالصحراء الليبية ،
وكانوا يأخذون ما يتناسب مع عدد الأغنام والجمال الموجودة في المرعى في نفس الوقت في البحيرة .
وكان دفع الزكاة تعبيراً أساسياً عن خضوع برقة إلى مصر . (المقریزی سلوك ١ ج ١ صد ٤٨) .

٤٨ - النابلسي ص ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٠ الخ .

٤٩ - نفس المصدر ٢٩ ، ٣٠ الخ وابن مماتي صد ٢٠ .

٥٠ - ابن مماتي صد ١٧ .

٥١ - المقریزی (سلوك) ١ ج ١ صد ٨٥ والنابلسي صد ٢٤ .

٥٢ - النابلسي صد ٣٤ ، ٤٦ ، ٥٣

٥٣ - ابن مماتي صد ٢٠

٥٤ - نفس المصدر صد ١٧ - ١٨ .

55 - CL . Cahen, Quelques aspects de l' administration égyptienne médiévale
vus par un de ses fonctionnaires , p . 110 ; Ch. A. Owen, Scandal in the egyptian
treasury .

A portion of the luma al qawanin of Uthman ibn Ibrahim al Nabulusi.- . Chica-
go , vol . xiv, 1955, No 2 , pp «Journal of Near Eastern Studies» 72 - 73

٥٦ - النابلسي صد ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٧٥ الخ

٥٧ - نفس المصدر صد ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ الخ .

٥٨ - نفس المصدر صد ١٧٨ .

٥٩ - ابن مماتي صد ١٩ وهنا يكتب مرة أخرى عن الجزية ويقول إنما يتم جمعها فقط من
مصر ، والإسكندرية ، وأخميم « والأماكن الأخرى لا يأخذون منها شيئاً » غير أنه بعد ذلك يقدم
أخباراً عن الفيوم تتناقض مع تأكيدات الأولى . انظر أيضاً

Cl . Cahen . Contribution à l'étude des impôts ... , p . 255 .

٦٠ - المقریزی خطط ١ صد ١٧٤ - ١٧٥ .

٦١ - النابلسي صد ٢٤ .

62 - Cl . Cahen , Le régime des impôts ... pp . 21 - 22 .

٦٢ - انظر نهاية هذا الفصل في هذا الكتاب .

٦٤ - المقریزی (خطط) ١ صد ١٢٣ .

يحكى عن الزمن الأول بعد الغزو العربي ، أن توزيع مبالغ ضرائب الأرض لكل الكور كان

يحدث في مركز لحضور رؤساء الجماعات القروية ، ويتم توزيع الضرائب على الدافعين المختلفين من أعضاء الجماعات القروية « وعمرو بن العاص بعد أن وطد وضعه ، أبقى على النظام البيزنطي في فرض الضرائب على القبط ، وكان إجمالي هذه الضريبة يتغير : فإذا كانت القرية أحوالها مزدهرة وعدد سكانها يتزايد ، فإن الضرائب المأخوذة منها تتزايد أيضاً ، أما إذا كان عدد سكانها يتقلص وأناسها يصبحون أقل ، فإن ضرائبها أيضاً تقل ، والموظفون يجتمعون مع شيوخ القرى ليحددوا بكل دقة وضع القرية ، وهل أهلها ميسورون أم مفلسون ، فإذا قرروا زيادة الضرائب فهذا يستتبع أن يقوموا بتوزيعه على مختلف النواثر (الكور) وبعد ذلك يجتمعون مع رؤساء القرى ويوزعون الضرائب بما يتفق وحالات الأهالي ويسر المالكين .

ثم بعد ذلك يجتمع أهالي كل قرية ويحددون نصيب خراج ومساحة الأرض المنزرعة ويخصمون من الإجمالي العام للأرض فدانين يخصصان إما للكنائس أو الصوامع أو السفن ، وبعض من المبالغ أيضاً لضمان حياة المسلمين وعوائلهم - في حالة قنومهم - وفي نهاية الأمر يعدون كم من الأهالي يعملون كحرفيين أو مآجورين ويتحدد عليهم الضرائب وفق قدراتهم ، وإذا كان هناك غريب فإنه يتم تحديد الضريبة عليهم أيضاً بكل دقة ثم بعد ذلك المبلغ الباقي من الخراج ويتم توزيعه بينهم بما يتفق ومساحة الأرض . انظر أيضاً C. Becker , Beiträge ... s . 90 - 91

وغالباً ما نجد عند النابلسي تنويعها بخفراء ونجاري القرى بما يمكن اعتبارهم أشخاصاً موظفين في القرية .. انظر النويري ٨ ص ٢٤٧ .

٦٥ - وفي المخطوطات الإغريقية والعربية للقرون الإسلامية الأولى ما يدل على انتشار « محددات الهويات »

66- C. B. Певзнер, Икта, стр. 179

وليه يتحدث عن أقاليم سوريا وشمال العراق ويقول : إن الضرائب الأساسية على الفلاحين كانت هناك شبيهة بالضرائب المصرية وإن الخضوع المتمثل في التبعية القنية كان متشابهاً هنا وهناك .

ويتأكد بصورة مقنعة وجود « تثبيت للفلاحين في الأرض » في سوريا حتى العصر الأيوبي ، وذلك من خلال المدونات السورية في بداية القرن الحادي عشر ، وأيضاً تكون البطريكيات الدونية ذات الطبيعة الموحدة ، ويظهر هذا أيضاً من معطيات أبو شامة انظر A . Q rkodof ekwi

(ياكوبونسكي : العراق في الميزان بالروسية)

« ملامح النظام الاجتماعي في الخلافة العباسية » ، وأيضاً ، « أعمال الدورة الأولى للعرب » Cl . Cahen , Fiscalité, propriété, antago ١٨٧ - ١٨٦ ص ٤٤ ، وأبو شامة ١ ص ١٩٢٧ nismes sociaux en Haute - mésopotamie au temps des premiers Abbasides d'après Dany de Tell - Mahré - ((Arشbica)) , I , 1954 , fasc. II , pp . 147 - 148; ((Décrets mamelouks de Syrie)) , ((Bulletin d'études Orientales)) , t . II, le Caire , 1932. p . 10 .

- ٦٧ - انظر على سبيل المثال: النظام الاجتماعي في مصر الهيلينية : B. B. Sryve في « قضايا تاريخية » ١٩٦٢ رقم ٢ ص ٧٦ بالروسية (استروفة) .
- ٦٨ - النابلسي ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤١ .
- ٦٩ - انظر ياكوبوفسكي : A. Ю. Якубовский « الإيجارات المستخدمة في العراق في القرن الثامن الميلادي » « الاستشراق السوفيتي » بالروسية مجلد ٤ - الصادر ١٩٤٧ ص ١٧١ - ١٧٢ .
- ٧٠ - ابن ممتي ص ١٦ .
- ٧١ - أبو صالح ص ١٥ .
- ٧٢ - نفس المصدر ص ١٥ .
- ٧٣ - المقرئ (خطط) ١ ص ١٣٩ - ١٤١ ، والإسكندرية ورشيد وبعض الموانئ الكبيرة الأخرى - سواء في البحر المتوسط أو البحر الأحمر - غير منوه عنها هنا ، والقاهرة التي لها حكامها الخصوصيون لا تدخل ضمن تكوين الأقاليم (انظر المقرئ خطط ١ ص ١١٨ - ١١٩) وانظر .
- C. H. Becker , Egypten , - EI , II , S. 12 - 13 .
- وعلى كافة الاحتمالات فإن المقصود هنا بالدينارات هو الدينارات العادية ، إذ أن المصادر تحدد أن مداخيل الأجناد المحاربين في زمن الأيوبيين كان غالباً ما يدل عليها الوحدة النقدية الاصطلاحية التي تسمى بالدنانير الحربية (الدينار الجيوشي ، المقرئ) والتي كانت تساوي الدينارات العادية : انظر Cl. Cahen, le régime des impôts ... p. 12 .
- ويتفق مع هذا ما يقوله ابن ممتي ص ٣٥ عن وجود وحدات نقدية اصطلاحية أخرى ، ولكن ما نوه عنه ابن ممتي لم نجده الا عنده فقط مرة واحدة مستخدماً إياه بشكل محدود جداً ومداخيل فرق الأجناد المحاربين المصريين التي تسمى القاطاني (Gibb, The armies of Saladin - p. 76 كان دينارها مساوياً لنصف الدينار الحربي ، أما مداخيل الفرق المعروفة « بالجوزات » هم ورؤسائهم ، (وكثير منهم على الأرجح من الفرق السودانية التي تم نقلها للعمل بالجيش الأيوبي بعد تسريح الجيش الفاطمي) كان دينارهم يساوي ربع دينار (عادي) ، ومداخيل الفرق البدوية - عدا قبيلة شعر كان دينارها لا يساوي إلا دينار عادي . . انظر القلقشندي ٣ ص ٤٤٣ .
- ٧٤ - المقرئ (خطط) ١ ص ١٣٩ - ١٤٠ ، وفي هذا التعداد يتضح أن هناك معطيات ما إما محرفة أو محذوفة ، إذ أن الإجمالي العام للإحصاء الذي يحدده المقرئ إما ٤,٦٥٣,٢٩ أو (٤٦٥٣,١٩) ديناراً (خطط) ١ ص ١٤٠ - ١٦١ .
- ٧٥ - أبو صالح ص ٢٠٤ ، والمقرئ (خطط) ١ ص ٤٠٣ .
- 76 - C 1. Cahen , Le régime des impôts ... , p. 15 .

٧٧ - النويرى ٨ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

٧٨ - نفس المصدر ص ٢٤٥ .

٧٩ - ابن بطوطة ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، من الممكن أن تتضح الدلالة أكثر ، بالمقارنة مع أملاك الإقطاعات ذات الشكل القاسى للتبعية الفلاحية (الذين يعملون فى الأراضى الحكومية ، ففى الكلمات الآتية للمقريزى والمتعلقة بحاكم الشرقية والغربية الأمير عيد مور الشمسى (المتوفى ١٣٠٢ / ١٣٠٣) « لم يتجاسر أحد من الفلاحين فى الشرقية أو الغربية فى عهده .. أن يرتدى رداء أسود أو أن يركب حصانا أو أن يتمنطق بسيف أو يحمل فى يده عصا ذات رأس حديدية (سلوك) ١ ج ٣ ص ٩٦٨ ٨٠ - المقريزى سلوك ٢ ج ٢ ص ٤٧٣ - ٤٧٤ والمقريزى (خطط) ٣ ص ١٨٥ والنويرى ٨ ص ٢٤٧ ، ٢٥١ .

٨١ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ .

٨٢ - ابن بويدار ص ٢٧٨ .

٨٣ - المقريزى سلوك ٢ ج ١ ص ٥٨ ، ٩٧ - ٩٩ وابن خلدون ٥ ص ٤٢٥ .

٨٤ - المقريزى سلوك ١ ج ٢ ص ٥٣٧ - ٥٣٨ ، ٦٤٠ .

٨٥ - المقريزى سلوك ١ ج ٣ ص ٦٦٤ ، ٧٥٩ .

86 - E . Strauss , prix et salaires ~Al'èpoque Mamlouke , -RÉI , année 1949 , 1950 . p

٢ ص ٥٤٢ ، ٨٧ - المقريزى (سلوك) ٢ ج ٥٠ .

٨٨ - المقريزى (سلوك) ١ ج ٣ ص ٨٩٧ ، ٩٠٦ - ٩٠٧ .

٨٩ - وهكذا ، فإن بيبرس فى ١٢٦٣ ، قد أجبر أهالى المناطق الساحلية السورية على أن يدفعوا له (النقود اللازمة للحياة) نيابة عن مواطنهم الذين قتلوا ، ولم يتبق للورثة شيئاً وأمرهم أيضاً بالكف عن استخدام أية نقود حكومية ، تلك النقود التى كانت منهوية ، على ما يبدو ، من الصليبيين أو من مواطنهم هؤلاء ،

« وبهذه الطريقة استطاع أن يجبى مبلغاً كبيراً الى حد ما من دوائر نابلس والنشواطى » (ابن عبد الظاهر ص ١٧٢ ، والمقريزى سلوك ١ ج ٢ ص ٤٨٨)

وفى ١٢٧٣ فرض بيبرس على فلاحى كل قرية أن ينهضوا لتقديم عدد من الخيالة بقدر ما تستطيعه كل قرية (سلوك) ١ ج ٢ ص ٦١٠ ، وفى ١٢٧٧ - ١٢٧٨ أخذ ضريبة من أهالى أقاليم دمشق بلغت مليون درهم لإمداد الخيالة (نفس المصدر ص ٦٤٠) .

فى ١٢٩٠ وطبقاً لأوامره ، فرض على كل أهالى المريج ، وغوطة دمشق ، وقلاع بعلبك من ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ درهم من كل شخص (سلوك) ١ ج ٣ ص ٧٥٤ ، وكان الابتزاز الباهظ الذى تم جمعه فى ١٣٠٠ (أنونم ص ٨٢ « من السلوك » ١ ج ٢ ص ٩٠٦ - ٩٠٧)

وأيضاً ، فإن الناصر محمد فى بداية تنفيذ مسح الأراضى قد انتزع مكوساً كبيرة ، وبقيّة

- المستحقات عن السنوات الماضية (من ١٢٩٨ إلى ١٣١٤) سلوك ٢ ج ١ ص ١٣٦ .
- ٩٠ - المقرئى (سلوك) ٢ ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٤ ، والنورى ٨ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .
- ٩١ - انظر على سبيل المثال القلقشندى ٤ ص ٦٥ .
- ٩٢ - المقرئى (سلوك) ٢ ج ١ ص ٤٨ .
- ٩٣ - نفس المصدر ٢ ج ١ ص ٤٩ .
- ٩٤ - المقرئى سلوك ٢ ج ٢ ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ، والمعطيات فى مجموعها بجانب الأخباز السابق التنوية عنها عن مشروعات الرى تدحض بكل تأكيد ما يؤكد بولياك عن السخرة فى مصر المملوكية وكونها ظاهرة نادرة الوجود . 252, p. RÉI, X, 1936, ((la féodalité islamique))
- ٩٥ - المقرئى (سلوك) ٢ ج ٢ ص ٥١١ .
- ٩٦ - نفس المصدر ٢ ج ١ ص ١٣٦ .

الفصل السادس
الملكية الإقطاعية في عهد المماليك الأواخر

الفصل السادس

الملكية الإقطاعية في عهد المماليك الأواخر

المرحلة التالية لتطور الملكية الإقطاعية الزراعية في مصر حدثت أساساً ؛ في فترة حكم السلالة المملوكية الثانية ، الذين يسمون عادة بالشراكسة (١٢٨٢ - ١٥١٧ م) . ففي هذه الفترة صارت الفئة الإقطاعية الحاكمة المتمتعة برعاية السلاطين ، تتكون - على الأغلب من العبيد السابقين ذى الأصل (الأديجي / الشركسي) . فإفقار السهوب الصيدية جعلها قبل كل شيء المصدر الأساسي لتصدير العبيد ، وبسبب الحروب التى دارت بين الحكام المغوليين المعروفين « بالموت الأسود » (١٢٤٦ - ١٢٤٧ م) وبسبب غزوات تيمور التى دفعت مغول القرن الذهبى (ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر فى شبه جزيرة القرم) إلى اختطاف سكان شمال غرب القوقاز وتحويلهم إلى عبيد ، ليس فقط بسبب خراب هذه الأقاليم ، ولكن لأنهم كانوا أيضاً واقعين تحت سيطرتهم فى ذلك الوقت ^(١)

ولم تتعرض الهرمية الحربية الزراعية المملوكية ، حتى هذا الوقت لأية تغييرات خاصة ، وينبغى ملاحظة أن المصادر ابتداء من نهاية القرن الرابع عشر فقط بدأت تميز مجموعة المماليك السلاطين وتطلق عليهم « المماليك القرانيس » . (إ . هامر يسميهم بالقراصنة) ^(٢) ولكن أغلب الباحثين يوافقون على استخدام صفة الكرانيص ؛ لأنها تعنى المماليك الخبراء فى الأعمال الحربية والممتلكين للدخول الكبيرة ، والذين ألوا للسلطان الحاكم بعد ماكانوا لأسلافه ^(٣) .

ولقب الأمير - يعنى قبل كل شيء : الارتباط بشغل وظيفه رئاسية سواء فى الجيش أو فى امتلاك الأراضى ، ومنذ ذلك الوقت صار هذا اللقب يرتبط عادة بمن له وظيفة محددة فى البلاط . أما الوظائف الإدارية الأقل أهمية فقد ظلت أساساً فى يد السكان الأصليين من القبط « أهل القلم والعلم » ^(٤) .

ومن الضرورى أيضاً أن نشير إلى ظهور نوعين جديدين من الملكية الزراعية الإقطاعية فى نهاية القرن الرابع عشر ؛ أحدهما هو مااستتبع وجود أراضى تخص الخلفاء العباسيين ، فحتى ذلك الوقت ، كانت مصادر حياة الخليفة وعائلته تتحدد

بمنحة نقدية وجراية دورية تستقطع من الخزانة السلطانية (٥) .

وماخصص للخليفة من أرض ، كان في جوهره شبيها بالوقف ، غير أن هذه الأرض تسمى في المصادر « إقطاع » (٦) لأن هذين النوعين من الملكية الإقطاعية : الوقف وأراضى الخلفاء يتشابهان مع الإقطاع على الأرجح في كونهما يتضمنان نظريا عدم قابلية كل منهما لنقل الملكية ، واشتراطهما ريعاً محدداً .

وتخصيص أراضى للخلفاء ، كان بمثابة إظهار ولاء السلاطين الحكام لهم ، بهدف ضمان تعضيدهم إياهم ، إذ إن الخلفاء قاموا بدور فعال في صراع جماعات الممالك من أجل السلطة ، فمعروف أنه بعد موت السلطان : الناصر فرج ١٤١٢ م تم مبايعة الخليفة : أبو الفضل المستعين ، فتولى العرش لمدة نصف عام (٧) .

وكان النوع الثانى الجديد من الإقطاع الذى ظهر فى هذه الفترة يتمثل فى أراضى الرزق (جمع رزقة) وكانت الرزقة فى مصادر الفترة المبكرة تعنى راتباً نقدياً أو عينياً يتم دفعه للموظفين ، وأحياناً كان اصطلاح رزقة يطابق فى حقيقة الأمر اصطلاح وقف وأحباس ، وكنموذج لهذا مايرويه ابن إياس فى أخباره * عن ١٣٥٧ - ١٣٥٨ م ، فيما يتعلق بمصادرة أجزاء محددة من ملكيات الهيئات الدينية المسيحية وجعلها تابعة لموظفى الحكومة (٨) . أما مصادر نهاية القرن الرابع عشر والخامس عشر فتتكلم عن الرزق باعتبار أن غالبيتها رزق حربية : مما يعنى أنها صارت عبارة عن قطع من الأرض تم تسليمها من الحكومة للممالك المرضى أو الشيوخ أو أطفالهم أو أراملهم (٩) .

وكانت ملكية هذه الأراضى تمنح طوال حياة المستفيد منها وليس من النادر أن تكون لورثته ، ولاتنزع ملكية هذه الأراضى بأية صورة كانت ولايتم جناية ضرائب حكومية عنها ، وهى ليست مرتبطة بوظيفة حربية .

* ومن الحوادث فى هذه السنة (٧٥٩ هـ) كثرة الأوقاف الأحباسية على الديورة والكنائس حتى بلغ قدر ذلك فى ديوان الأحباس ٢٥ ألف فدان بين النصارى - فرسم السلطان بإخراج تلك الرزق جميعها وفرقها على الأمراء بمربعات زيادة على إقطاعاتهم وأبطل الأوقاف التى كانت على السديورة والكنائس بيد النصارى . ابن إياس طبعة الشعب ج ٩ ص ٩ (أوردنا هذا النص الذى أشارت إليه المؤلفة لأهميته - المترجم .

وبهذه الصورة ، من الممكن أن نقارن تطور أنواع الملكية الزراعية الإقطاعية ؛
علماً بأن الديوان الحربى هو الذى كان مختصاً بتوزيع هذه الرزق^(١٠) .



يقدم لنا ابن الجعيان تصوراً فى غاية الوضوح عن الأساليب الملموسة فى العملية
المعقدة والمتناقضة لتطور الملكية الزراعية الإقطاعية فى عهد المماليك الأواخر وذلك فى
وصفة التفصيلى الذى يصف فيه ابن الجعيان الأقاليم المختلفة ، علاوة على إبرازه
المدن الكبرى وضواحيها بشكل خاص ، وهو فى البداية يشير إلى اسم الدائرة
(الكورة) ثم الإقليم التابعة له ، ومساحة أرضه بالفدان وبعد ذلك يوضح أنواع الأرض
المملوكة فيه وذلك فى الثلث الأخير من القرن الرابع عشر ، وأحياناً يشير إلى أسماء
الملاك ، وبعد ذلك يوضح أنواع الملكية فى زمن وضع قائمته التفصيلية ، وعند نهاية
القرن الخامس عشر يوضح دخل كل دائرة بالدينار .

والوصف التالى لأحد الدوائر فى القليوبية يمكن أن يعطينا مثلاً نموذجياً لكتابات
« المساحة » : ٢٣٦ فداناً ، من بينها ٢١ فداناً « رزقة » وكانت هذه الدائرة فى عداد
الملكية الخاصة للأشرف شعبان وصارت الآن وقفاً للأمير قانى بك الحسنى^(١١) .
وكان تقديمه لمقدار مساحة الأراضى المنزرعة بشكل إجمالى فى كل دائرة ؛ دون
توضيح لأنواع ملكية الأرض - باستثناء أراضى الرزقة - سبباً فى تعقيد عملية
التحليل لكتاباته .

الأراضى السلطانية :

قبل الانتقال إلى تفحص معطيات المساحات التفصيلية لأراضى السلاطين ينبغى
الإشارة إلى مايقوله المقرئى^(١٢) عن مرسوم « الروك الناصرى » ** وهو يحتفظ بكل
قوته من الناحية الوصفية عن زمانه ، فالمساحة الحقيقية للممتلكات السلطانية فى
الفترة من : ١٣١٥ / ١٣١٦ م . إلى سبعينات القرن الرابع عشر أى إلى حين وجود
المعطيات التفصيلية - كانت تواصل انخفاضها . وفى عهد الأشرف شعبان كانت

★ كان « الخزان » ومساحته ٢٣٦ فداناً وبه رزق ٢١ فدان ، كان من جملة أملاك الأشرف شعبان
والآن وقف الأمير قانى بك الحسنى . ابن الجعيان : التحفة السنية ص ٨ .

★ ★ هو إعادة تقسيم للأراضى المصرية قام بها السلطان الناصر فرج ١٣١٦م (المترجم)

نسبة مساحة الأراضي السلطانية إلى الإقطاع تعادل ٤ : ٢٠ بينما طبقاً لرسوم إعادة التوزيع في عهد الناصر قرع والذي يسمى الروك الناصري يجب أن تكون هذه النسبة ١٠ : ١٤ (١٣) .

والجدول رقم (١) يوضح التغيرات التي حدثت في وضع أراضي السلاطين في المائة سنة التالية والكتابات التفصيلية عن الوحدات الإدارية ، لم تسجل مقاييس دقيقة لكل الأراضي السلطانية بل اكتفت بالإشارة إلى النسبة (ضواحي القاهرة $\frac{1}{6}$ ، والفيوم $\frac{1}{6}$ ، والجيزة $\frac{1}{6}$ والبحيرة والأشمونين وقوص $\frac{1}{6}$ ، وفي نفس الوقت فإن هذه الكتابات تشير أحياناً إلى مداخل هذه الأراضي ومساحاتها ، وبمقارنة هذه الدخول في كل إقليم مع مساحة أراضيه .

نستطيع أن نحدد متوسط دخل الفدان الواحد ؛ ففي ضواحي القاهرة كان الفدان يعطى مايساوى ٩ دنانير في السنة ، وكان يعطى في الجيزة ٤ دنانير ، وفي فوة والبحيرة والفيوم ٢,٥ دينار ، وفي القليوبية ٤,٥ دينار وذلك كما يؤكد ابن دقماق (١٤) ويتحدد متوسط دخل الفدان ، يصبح لدينا إمكانية تحديد المساحة الدقيقة للأراضي السلطانية كما في الجدول الموضح (١٥) .

جدول (١)

الأراضي السلطانية من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر (بالفدان) .

الوحدات الإدارية	مساحة الأراضي السلطانية في نهاية القرن الرابع عشر	الأراضي السلطانية باختلاف أنواعها					مساحة الأراضي العامة
		إقطاع	ملك	وقف	رزقة	ملكية مختلطة	
ضواحي القاهرة	٩٧٦٣,٥ *	٤١٠	-	-	-	٢٠٨٧,٥	٧٢٦٦
القليوبية	٢٧٢٢٨	١٠٢٦٣	-	٢٨٠٦,٥	-	٤١٢٩	١٨٣٥٩,٥
الشرقية	٨٠٠٠	٤٥١٥,٧	-	٦٥٢,٣	-	١٥٩٠	٤١٤٠,٥
المنيا والمرتاحية	٨٢٢٧	٤٨٦٧	-	٤١٥	-	-	١٣٥٢٥
الغربية	٤٨٠٧٩	١٨٧٨٦	-	٥٣٠	-	١٤٦٦٣	٦٠٥٩٥,٢
المنوفية	٥٠٨٠	١٩٥٩	-	-	-	٣١٢١	١٦٣٦٠
أبيار وجندي نصر	١٥٠٨٧ *	-	-	-	-	١١٦٢	٢٦٣٦٩
البحيرة	٣٣٤٥٧ *	٨٥٧	-	-	-	-	١٠٨١٠٩
المنيا	١٩٩٠٠ *	-	-	-	-	-	٣٢٩٠٠
قوة والمزاحمتين	٤١٤٠ *	-	-	-	-	-	٣٥٤٠
الجيزة	١٠١٠٠٧ *	٥٣١٥	-	٧٧٨٩	١٣٠	٧٠١١	٨٦٠١٢
الفيوم	٥٢٩٦٣ *	٢٦٤٧٦	-	١٠٠٨١	-	٣٢٥٢	٢٧٥٦٤
المنيا	٣٣٢٠٦,٥	٤٦٦٨	١٧٠	-	٢٠٠٠	١٠٥١٠	١٣٦٠١٣
المنيا	٣٢٧٢٩ *	٧٨٠٢	-	٣١٢٦	-	١٥٤٧	٦٨٣٥١
منيا	-	-	-	-	-	-	٢٣٤٥
أسيوط	١٩٥٥٧	١١٩٧٠	-	٧٥٨٧	-	-	٢٤٥٨٩
أخميم	٣١٥٥٨	-	-	-	-	-	٤٨٩٤٣
قوص	٧٨٩٦٣ *	٢٨٩٦٣	-	-	-	-	٩٧٦٥٢
جـمـلـة	٥٢٦٩٤٥	١٢٦٥٢,٧	١٧٠	٣٢٩٨٦,٨	٢١٣٠	٤٩٠٧٢,٥	٨١٠١٩٨,٢

* أن المعطيات الموضوعة في هذا الجدول ليست بشكل مباشر كما أوضحنا هذه العلامة توضح .

أما بخصوص أراضي ضواحي الإسكندرية وأطفيح في نهاية القرن الرابع عشر ، كانت تابعة للأراضي السلطانية ، فإن الكتابات التفصيلية لم تتضمن أية معلومات عنها ماعدا ذكر حقيقة وجودها ، وفي نفس الوقت ينبغي أيضاً ملاحظة مايتعلق بأمالك السلطان في القليوبية ومنفلوط .

وبهذه الصورة تبلغ مساحة الأراضي السلطانية ٥٢٧٠٠٠ فداناً في الثالث الأخير من نهاية القرن الرابع عشر ؛ علاوة على بعض الأراضي التي تستحق الاعتبار في كل من الجيزة وقوص والفيوم والغربية ، ومنذ عهد السلطان الشركسي الأول : الظاهر برقوق ؛ الذي ألغى الوزارات ، صارت الأراضي السلطانية خاضعة لثلاث إدارات ، وفيما يبدو ، فإن هذا النظام كان مرتبطاً بضرورة الإمداد الأفضل لممالك السلطان التي ازداد عددها في عهده بشكل محسوس حتى بلغ خمسة آلاف . وأول هذه الإدارات كان يحمل إسم ديوان « المفرد » وطبقاً لما يرويه القلقشندي كان هناك ديوان بنفس الاسم في العصر الفاطمي وإعادة السلطان برقوق فقط في عصره^(١٦) .

أما الإدارة الثانية ، فكانت تحمل اسم « ديوان الأملاك » وظهرت أيضاً فقط في عهد برقوق^(١٧) . والإدارة الثالثة كانت تسمى الديوان « الخاص » وقد شهدت المصادر بوجوده - على الأقل - منذ عهد صلاح الدين^(١٨) .

يتضمن الوصف التفصيلي لمساحات الأراضي ، معلومات عن انتقال أملاك سلطانية خاصة إلى وحدات من الأراضي متباينة الأنواع ، وذلك دون الإشارة مرة أخرى - إلى مساحة كل قطعة من هذه الأراضي ؛ فمثلاً تحولت وحدات سلطانية إلى أراض من نوع : الإقطاع والوقف والملك منها : ثلاث ضياع سلطانية؛ الأولى في القليوبية ومساحتها (١٥٢٥ فداناً) والثانية في الغربية ، ومساحتها (٣٦٣ فداناً) ، والثالثة في المنوفية ومساحتها (٣١٢١ فداناً)

وتحولت أيضاً ثلاث ضياع في ضواحي القاهرة جملة مساحتها (٢٠٨٧,٥ فداناً) إلى أراض من نوع : الملك والوقف والرزق . وتحولت أيضاً ثلاث ضياع سلطانية ؛ [واحدة في الجيزة ومساحتها (١١٩٠ فداناً) والثانية في القليوبية ومساحتها (٢٦٠٤ فداناً) والثالثة في أبار ومساحتها (١١٦٢ فداناً)] . من أراضي من نوع

الرزق إلى أراض من نوع الإقطاع أو الوقف وتحولت قطعتان من أراضى الشرقية والفيوم مساحتها (١٩٨٩ فداناً) من أراضى إقطاعات إلى أراضى للوقف . . . الخ . وبلغت المساحة العامة للأراضى الشبيهة بهذا النوع (٤٩٠٠٠ فداناً) وذلك كما يتضح من الجدول رقم (١) ، تحول من مساحتها إلى ملكيات للهيئات الدينية أى إلى وقف ١٥ ٪ .

وينبغى هنا ملاحظة الزيادة الفعلية لأراضى الملك ؛ غير أن معظم هذه الأراضى (حوالى ٦٠ ٪) قد خرج من أملاك السلطان وتحول إلى إقطاع أدى بدوره إلى تغيرات كيفية .

ومع هذا فإن مساحة الأراضى المحددة ، التى ارتبطت بالملكية السلطانية على امتداد القرن الخامس عشر بلغت حوالى (٤٩٥٠٠٠ فداناً) تقريباً . وهذا كان بشكل خاص على حساب أراضى أقاليم الغربية وبنى سويف والبحيرة والشرقية والأشمونين ، وعلاوة على هذا ، انضمت إلى أملاك السلطان ؛ فى الغربية بعض أجزاء من خمس ضياع ؛ كانت تخص ملاكاً آخرين قبل هذا ، وانتقلت أيضاً أربع ضياع فى الشرقية وثلاث فى الفيوم واثنان فى قوص .

وبهذه الصورة تبلغ مساحة الأراضى الخاضعة للدواوين السلطانية حوالى ٨١١ ألف فدان تقريباً ؛ هذا فى زمن الكتابات التفصيلية المنوه عنها سابقاً .

وحقيقة تزايد الأراضى المملوكة للسلطين تعطينا أساساً للزعم ، بأن السلطين الشراكسة مثلهم مثل السلطين الأتراك سعوا إلى تركيز ملكية الأرض ، ويعتد الشكل القديم لاستغلال الفلاحين بواسطة الجهاز الحكومى مباشرة .

وهذا ما تؤكد المعطيات المأخوذة من المصادر ، غير أن هذا السعى لم يحقق نجاحاً ملحوظاً ؛ إذ إن الأراضى التى كانت توضع تحت يد الحكومة لأى سبب كان ، سرعان ما كانت تعود مرة أخرى إلى الملاك المستقلين . ونجد العديد من الملاحظات عن هذا الموضوع عند ابن تغرى بدى فى أخباره عن ١٤٦٠ - ١٤٦١ م أى فيما يتعلق بالسلطان : المؤيد أحمد شهاب الدين . إذ يقول بأن مصادرة السلطان لإقطاعات أسلافه المماليك ، راکمت الكثير من هذه الإقطاعات ووضعها تحت تصرف دواوينه ومن

بينها الديوان المفرد . غير أنه عندما شرع في توزيع هذه الإقطاعات على المقربين منه لم تكفهم كل هذه الأراضي « وعند ما لم تنق لديه [★] ضياع مصرية . . . صار يستولى على القرى السورية ويوزعها على أمراء المصريين ومحاربيهم (١٩) » ومن الصعب القول ، ما إذا كان هذا قد انعكس في السجلات التفصيلية لابن الجعيان التي كتبت في عهد السلطان : قايتباي في أغسطس ١٤٩٢ م . في كلامه عن توزيع أعداد كبيرة من قطع أراضي الإقطاع على الممالك ؛ والتي يجرى الحديث عنها أيضاً عند ابن إياس ، ولكن بدون أدنى شك ، كانت هذه الأراضي خارجة من مجمل الأراضي السلطانية وتم توزيعها بمثابة إقطاعات (٢٠) بعد ولاء الطاعون في هذا العام .

ومعروف أنه بعد ذلك ، أي في عهد السلطان : الناصر محمد (ابن ووريث قايتباي ١٤٩٦ - ١٤٩٨ م تم توزيع الإقطاعات المتبقية الداخلة تحت يد السلطان على الممالك ، بعد موت السلطان : قايتباي وكانت تبلغ حوالى الألف (٢١) .

وحدث أيضاً في عهد السلطان : قنصوه الغوري (٢٢) توزيع للإقطاعات .

وبهذه الصورة يبدو أن تلك الأراضي المدونة في السجلات التفصيلية على أنها أراض حكومية مباشرة صار معظمها عند نهاية القرن الخامس عشر ملكيات خاصة لممالك إقطاعيين مستقلين ؛ وتستمرت عملية نمو الملكية الزراعية الإقطاعية الخاصة - كما في عهد الممالك الأوائل - وراء التزايد الواضح للأراضي السلطانية في القرن الخامس عشر .

الوقف :

كانت أراضي الوقف في عهد السلاطين الأتراك الأواخر موجودة في كل أقاليم مصر ماعدا النستراوية ، وبلغت سبعين ألف فدان ؛ علاوة على أن ١٦٦ دائرة من مجموع الدوائر الكلية البالغ عددها ٢٢٩٤ دائرة في السجلات التفصيلية ، كان بها قطع من أراضي الوقف ؛ لم تتضح مساحاتها .

★ ولما قل ماعنده من الضياع بالدبار المصرية مديده إلى ضياع البلاد الشامية ففرق منها على أمراء مصر وأجنادهم ماشاء الله أن يفرق : أبو شاعة : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٦٩٢ - ٦٩٣ .

والنقصان الملحوظ لمساحة أراضي الوقف الكلية في بداية السبعينيات من القرن الرابع عشر بالمقارنة مع المعطيات الأولية لخمسينيات نفس القرن ؛ يوضح - على الأرجح - ما حدث من مصادرات لأموال الهيئات الدينية المسيحية ، وهذا ما يؤكد ابن إياس فيما قاله وسبق التنويه عنه (٢٣) .

وعلى امتداد القرن الخامس عشر ؛ خضعت أراضي الوقف لتغيرات كانت تحدث باستمرار كما يوضح الجدولان ٢ ، ٣ .

وعلى هذا النمو ، يتضح أن مساحة الأراضي المتحولة - بشكل كامل - إلى أراضي الوقف قد تزايدت من ١٧٦,٥ ألف فدان حتى بلغت ٢٣٧ ألف فدان ، وأن عدد الدوائر التابعة للوقف بما فيها الدوائر التي يمتلك فيها الوقف قطعاً صغيرة تزايدت أيضاً حتى وصلت إلى ٦٦٧ دائرة .

وهذا التزايد في مساحة أراضي الوقف نلاحظه بشكل خاص في أراضي مصر السفلى (القليوبية - الدقهلية - البحيرة) وأيضاً في الفيوم . وكانت هذه الزيادة تتم بناء على منح السلاطين الشراكسة هذه الأراضي للهيئات الدينية السنية بهدف ضمان تأييدها لهم ؛ شأنهم في ذلك شأن أسلافهم ، وعدد كبير من هذه الضياع مُنح كهبات في شكل وقف في عهد السلطان قايتباي في الشرقية والبحيرة بلغت مساحته (٥١٥,٣ فداناً) (٢٤) .

جدول (٢)

أراضي الوقف من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر (بالفدان) *

الوحدات الإدارية	مساحة أراضي الوقف المستوية على دوائر كاملة حتى نهاية القرن ١٤	مساحة أملاك الوقف المتحولة إلى أنواع أخرى من الملكية على أمتداد القرن ١٥	مساحة الأملاك المتحولة إلى وقف بالمكامل ، على امتداد القرن ١٥	مساحة أراضي الوقف المستوية عليها ملكية كاملة عند نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	١٦٠٥,٥ *	٢١٠ (إقطاع)	١٠٢٠	٢٢٨٥,٥
ضواحي دمياط	٢١٥٠ *	-	٤٢٠	٢٥٧٠
القليوبية	٦٤٠٩ *	-	٨٢٠,٢	١٤٦٠,٢
الشرقية	٨٠٦٤ *	٢٢٢٢ (إقطاع وملك)	٩٣٩٢	١٥٠٤٣
الدقهية والمرثانية	١٨٨٧	-	١١٤٦٢	١٢٣٤٩
المنوفية	٨٧٩٧ *	٢٤٥٤ (للخزانة)	٣٦٢٦٤	٤٢٧٠٧
المتوفى	١٢٣٠	-	٤٦٨١	٥٩١١
أبيار جزدني نصر	١٦٤٦	-	٣١٧٩	٤٨٢٥
البحرية	٩٨٠٠ *	٢١٢٨ (للخزانة)	١٠٥٩٠	١٨٢٥٢
السوة والمراحمين	٢٨٠	-	-	٢٨٠
ضواحي الإسكندرية	٣٤٢٩	-	-	٣٤٢٩
الجيزة	٢٠٣٢ *	-	١٠٨٠٢	١٣٨٢٤
الفيوم	١١١٩٤ *	١٨٢٤ (إقطاع وخزانة)	٤١٤١٧	٥٠٧٧٧
المنيا	٣٦٤٩ *	-	١٤١٨٨	١٧٨٢٧
الأشمان	١٤٢٩	٣٢٢ (إقطاع)	٧٤٨١	٨٥٩٧
أسسيوط	-	-	١٣٠١٨	١٣٠١٨
أخميم	-	-	٤٣٢٩	٤٣٢٩
قويس	٥٣٤٤ *	-	-	٥٣٤٤
جـ مـ جـ	٦٩٩٦٥,٥	٩٤٢٢	١٧٦٤٧٣,٢	٢٣٧٠١٦,٧

* المعطيات في المساحات التفصيلية « دقيقة إلى حد كبير ! عن مساحات أراضي الوقف والإقطاع في نهاية القرن ١٤ (ماعدا أطيح) وكان من النادر جداً ضرورة إجراء حسابات « غير مباشرة » ، فبالنسبة للفيوم أجريت هذه الحسابات على ثلاث دوائر ، وفي الأقاليم الباقية المعروفة أجريت على دائرة أو اثنتين ، وكانت إطيح قد ضمت إلى أراضي الوقف أربع دوائر كاملة في نهاية القرن ١٤ ، ولكن في ظل الغياب الكامل تقريباً للمعطيات المقارنة عن دخول ومساحات الأرض أصبح من غير الممكن تحديد مساحة هذه الأراضي في أطيح .

* * انظر ما سبق عن الأراضي السلطانية .

جدول (٣)

أراضي الوقف من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر

الوحدات الإدارية	العند الكلى للنواثر	عدد النواثر التى كان بها قطع تابعة لأراضى الوقف فى نهاية القرن ١٤	عدد الدوائر المنقولة للملكية الوقف بشكل كامل حتى نهاية القرن ١٥	عدد الدوائر الداخلة فى عداد الوقف حتى نهاية القرن ١٥
خسواحي القمامرة	٢٦	—	٢	٦
دمياط	١٤	٤	١	٩
القليوبية	٦٩	٢	٤	١٩
الشرقية	٢٨٢	١٩	١٢	١٢٢
المنيا والمرتاحية	٢١٤	١٩	٢٤	٨٩
الغربية	٤٧٥	٤٧	٥٠	٢٠٧
الدقهلية	١٢٢	٢٨	٥	٦٥
أبيارى جزينى نصر	٤٨	٧	٢	١٤
البحرية	٢٣١	١٤	١٥	٤٠
فسوة والمزاحمتين	١٦	١	—	١
خسواحي الإسكندرية	١٤	—	—	٢
المنيا	١٥٨	١٠	٨	١٥
أطراف البح	٥٢	١	١	٦
القليوبية	١٠١	١	٢٢	٦
الهندسة	١٥٥	٢	١٦	٢١
الأشمونين	١٠٢	—	٥	١٦
مركز الوط	٥	—	—	١
أسبسيوط	٢٢	—	٤	٥
أخميم	٢٤	—	٢	١
قويس	٤٢	—	—	١
جـمـلـة	٢٢٨٨	١٦٦	١٧٦	٦٦٧

وفى عهد السلطان : بارسيباى بلغت مساحة تلك الأراضى فى الجيزة والغربية والفيوم والمنوفية والبهنساوية (٨٢٥٣ فداناً) ، وفى عهد السلطان إينال تحولت ضيعتان فى الدقهلية إلى الوقف مساحة إحداهما (١٥٨٦ فداناً) ولم تعط المصادر مساحة الضيعة الثانية .

وتزايد أراضى الوقف كان يحدث أساساً لحساب الإقطاع : فالمالكون كانوا يهبون ضياعهم بشكل كلى أو جزئى للهيئات الدينية : حيث كانت هذه الأراضى تخضع لحماية القوانين الأخيرة : (إذ إن الإمكانية القانونية لتسليم مداخل هذه الضياع للورثة أصبحت موجودة) . وكان هذا نتيجة للصراع المتسارع بين المجموعات المملوكية المختلفة للطبقة الحاكمة : الذى يعتبر ملمحاً مميزاً للقرن الخامس عشر . وهذا كان أيضاً سبباً جوهرياً فى أن مجمل ريعهم الإقطاعى كان متناقصاً ، ونستطيع أن نقدم هنا على سبيل المثال تمردات المماليك فى عهد السلطان : الظاهر برقوق وصراع الأمراء فيما بينهم ، والعصيان الحادث على الحدود طوال عهد السلطان : الناصر فرج ، والصدامات الدائمة بين مماليك « المؤيد » وإينال وبارسيباى « (بين أنصار السلطان المؤيد شهاب الدين أحمد وأنصار إينال وبارسيباى) ثم بعد ذلك التمردات التى حدثت فى عهد السلطان خوشقدم (١٤٦١ - ١٤٦٧ م .) وصراع أنصار قنصوره الغورى وأنصار أجبرد فى عهد قاتيباى (٢٥) .

ويلاحظ فى نفس الوقت ، بعض الظواهر المضادة للاتجاه الأساسى فى نمو أراضى الوقف .

فلقد ظل قسم من الأرض ، بشكل رسمى ، على هيئة وقف ، ولكن هذه الملكية فى الحقيقة فقدت طابعها الدينى على امتداد القرن الخامس عشر ، فالمقرىزى يكتب عن ملكية الأحباس فى عصره فيقول : إنها * خرجت فى غالبيتها من الديوان ، إما

* . . . جميع هذه الرزق أخرجها الديوان بالبراطيل ، والتقرب إلى الأمراء والحكام ، وأكثرها بأيدي الناس من فقهاء الأرياف لا يدرون الفقة ، ويسمون أنفسهم الخطباء ولا يعرفون كيف يخطبون ، ولا يقرأون القرآن . . . وكثير منها بأسماء مساجد وزوايا معطلة وخراب . . . المقرىزى خطط ٣ ص ١٩٦ .

بطريق الرشوة وإما بطريق النوال ووضعت تحت تصرف الأمراء والقضاة - أولئك الذين يسمون بالفقهاء ، وهم لا يعرفون ماهو الفقة ، والوعاظ الذين لا يدرون كيف يعظون ولاحتى يرتلون القرآن ومعظم أراضيهم (الأحباس) مسجلة على مساجد مخربة وزوايا معطلة » (٢٦) .

ويكتب المقرئى أيضاً عن عهد السلطان : الظاهر برقوق فيقول إنه قد ظهر بين الأمراء المماليك المصريين والسوريين من يستولى عادة على ريع من فلاحى أراضى الوقف أعلى بكثير من ريع فلاحى الأراضى المائلة لها .

وكان مالكو هذه الأرض ، أى الهيئات الدينية يتسلمون من دخل هذه الأرض فى أحسن الأحوال ما يساوى $\frac{1}{10}$ الدخل . وكثيرا ما كانوا لا يأخذون شيئاً ، وفى الحقيقة فإن ملكية هذه الأرض قد صارت للأمراء (٢٧) .

وكان هناك قسم من أراضى الوقف التابعة للسلطين ، قد تحول إلى إقطاع ، وفى ١٤٢٢ م . وزع السلطان بار سيباى على مماليكه قرى الفيوم على شكل إقطاعات كانت حتى عهده وقفاً لمدرسة ، أما فى عهد السلطان : المؤيد أحمد فإن الأراضى الموزعة كإقطاعات على أقربائه وأصهاره والمقرئين إليه كانت قبل ذلك موهوبة كوقف من سلفه إينال (٢٨) .

والمقرئى يشير إلى مصادرة موظفى الحكومة لبعض الأراضى التى تسمى بالوقف العائلى (تلك التى كانت موضوعة تحت إدارة ورثة واهبيها) (٢٩) .

وبالرغم من أنه لا يوجد فى مصادرنا صورة كاملة تبلغ مرتبة الحقيقة التى لا يرقى إليها الشك ، إلا أن المصادرة الواسعة النطاق لأراضى الوقف الخاص بالهيئات الدينية غير الإسلامية كانت نتيجة لاحتدام الصراعات الدينية ، وبالرغم من هذا فإن كل هذه الأعمال لم تغير من الاتجاه العام لتطور أراضى الوقف فى القرن الخامس عشر (٣٠) .

وأراضى الوقف الخاص بالخليفة ، لم تبق هى أيضاً بعيدة المنال ، وفى عهد السلطان قايتباى ١٤٦٨ م . تم نزع قرية إنبابه من الخليفة : المستجد بالله

يوسف ، وكانت ممنوحة له من قبل السلطان : إينال ١٤٦١ م ، وتم منح هذا الوقف لأحد المقربين من السلطان قايتباي .

وتم أيضاً نزع جزر ابن صابون وكانت وقفاً داخلاً في ممتلكات الخلفاء من ١٤٢٨ م . ووزعت كإقطاعات على بعض الممالك (٣١) . .

ومن بين حوادث ١٤٥٤ م . نجد عند ابن تغريبردي ما يدل على البيع غير القانوني (المحرم - المترجم) لأراضي الوقف الخاص بمدرسة وهيئات دينية أخرى لاستادار السلطان المسمى زين الدين (٣٢) .

ويتحدث ابن إياس عن تسلم القاضي شمس الدين لثلاثة آلاف دينار ثمناً لبيع وقف كان ممنوحاً له في عهد السلطان قنصوه الغوري ، ويشير أيضاً إلى بيع الوقف الخاص بمدرسة جدة (٣٣) .

وبسبب حاجة الخزانة الملحة للنقود في عهد السلطان المملوكي الأخير طومانباي ؛ تم بيع معظم الأوقاف السلطانية ؛ فاكتملت نتيجة لذلك طابع الملك (٣٤) . وهذه الأعمال المحرمة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية خففت من الخسائر الناجمة عن تزايد مساحات الأراضي غير الخاضعة للتعبئة (٣٥) .

الرزقة :

هذا النوع من الأراضي ، كان موجوداً في كل أقاليم مصر في بداية القرن الخامس عشر ، ماعد التستراوية . لكنه كان واسع الانتشار في كل من : الشرقية والبحيرة .

جدول (٤)

أراضي الرزق من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية الخامس عشر

الوحدات الإدارية	العدد الكلى للدوائر	عدد دوائر الرزق فى نهاية القرن ١٤	عدد دوائر التى كانت بها رزق فى نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	٢٦	١٣	١٧
ضواحي دمياط	١٤	٦	٧
القليوبية	٦١	٣٨	٤٧
الشرقية	٣٨٣	٢٥٩	٢٩٤
القليوبية والمرتاحية	٢١٤	١٣٤	١٧٤
الفيوم	٤٧٥	٣٦٥	٤٣٢
المنوفية	١٣٣	١١٤	١٢١
أبيارو جزينى نصر	٤٨	٤	٩
البحرية	٢٣١	١٣٠	١٧٦
قوة والمزاحمتين	١٦	٤	٥
ضواحي الإسكندرية	١٤	١	٢
الجيزة	١٥٨	١١	٢٠
أطفيح	٥٣	٢	١٢
الفيوم	١٠١	١١	٢١
البحرية	١٥٥	٧٣	١٠٨
الأشمونين	١٠٢	٤٧	٨٣
منفوط	٥	٢	٣
أسسيوط	٣٢	٢٠	٢٦
أخميم	٢٤	١١	١٣
قوص	٤٣	١٧	١٨
جـ مـ لـ	٢٢٨٨	١٢٦٢	١٦٠٦

وكان نادر الوجود فى كل من أطفيح والفيوم ومن الممكن تتبع تزايد عدد الدوائر التابعة لأراضى الرزق من الجدول رقم (٤) ، فقد كانت مساحة أراضى الرزق داخل كل إقليم تتراوح ما بين ٢٥ : ٥٠ فداناً ونادراً ما كانت تتجاوز المائة فدان .

وبالإضافة إلى المعلومات التى يقدمها جدول (٤) فإنه من الضرورى الإشارة إلى أن قطع الرزق الموجودة بالدوائر ، تتحول أحياناً بعد ذلك إلى دائرة رزق بالكامل ؛ ففي الغربية ؛ كانت هناك قطع رزق تحولت إلى دوائر رزق وفى البحيرة تحولت خمس قطع وفى الدقهلية ثلاث قطع . . . إلخ

وتزايد أراضى الرزق كان يتم لحساب الإقطاع بشكل عام ولكنه أحياناً كان يحدث على حساب الأملاك السلطانية ؛ ففي نهاية القرن قفز عدد الدوائر التى بها رزق من ١٢٦٢ إلى ١٦٠٦ دائرة .

وكما سنوضح فيما بعد ، فإن إعادة توزيع ملكية الأراضى الزراعية بما فيها أراضى الرزق الذى تم فى عهد السلطان قنصوه الغورى كان يتم لصالح الممالك الجلب (٣٦) .

والحقائق عن وضع أراضى الرزق فى القرن الخامس عشر جد متواضعة ، بل ومتضاربة ، وعن حقيقة إعفاء أجزاء من أراضى الرزق من الضرائب ؛ يمكننا الاستشهاد بمخطوط عن قوص مؤرخ فى ١٧ ربيع الثانى ٨٨٣ هـ أى فى ١٨ يولية ١٤٧٨ م . ، ويقال فيه إن الأمير يشبك « الذى كان يعمل وقتئذ دفتر دار وأسطى دار وكاشفا لمصر العليا » قد أمر بإعفاء أراضى الرزق الموجودة فى قوص تحت ملاكها من القضاة وأمناء المحاكم والموظفين والأرامل واليتامى والأغنياء والبؤساء والكبار والصغار ، وحال دون أن يدفع المظلومون المتعبون أية ضرائب ولو كانت درهما واحدا « (٣٧)

غير أن ابن تغربردى يكتب عن سنة ١٤٤٠ - ١٤٤١ م ، أن أراضى الرزق الحربية شأنها فى ذلك شأن أراضى الرزق الأخرى التابعة للهيئات الدينية فى إقليم الجيزة ، كانت تدفع ضرائب عن الفدان الواحد مائة درهم (على ما يبدو فى كل عام) وهذه الضرائب ظلت موجودة حتى كتابة النجوم أى حتى نهاية الستينيات من القرن الخامس عشر (٣٨) . وعن جباية الضرائب من ملاك أراضى الرزق يحكى أيضاً ابن

إياس* عن ١٥٠١ - ١٥٠٢ م ، ١٥٠٤ - ١٥٠٥ (٣٩)

أما عن ضعف تدخل السلطة المركزية في العلاقة بين الإقطاعيين والفلاحين ، وما نجم عن ذلك من استغلال ملاك الرزق ، نستشهد بالحادثة التالية و المأخوذة من ابن إياس عن ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ - ١٥٢١) والتي حدثت في أحد أقاليم مصر الشمالية : « تقدم الفلاحون العاملون في أراضي الرزق إلى عامل** السلطان بالإقليم راجين إياه أن يعطى أمرا لسيدهم بإنقاص الابتزازات المأخوذة منهم ؛ لكن هذا الإقطاعي أعلن أنه ليس لأحد الحق في التدخل في العلاقة بينه وبين أتباعه^(٤٠) .

إن ظهور أراضي من نوع الرزق بل وتزايدها ؛ كان أحد المظاهر الجوهرية التي أدت إلى تفسخ نظام الإقطاع .

الملك :

على امتداد الفترة من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر تزايدت مساحة أراضي هذا النوع بشكل ملموس كما يتضح من الجدول رقم (٥) . وفي المساحات التفصيلية لابن الجعفيان كما في مصادر العهد السابق فإن أراضي الملك لاتعنى الفلاحين ولكنها تعنى الإقطاعيات والضيايع (أو جزء منها) التي تخص الإقطاعيين .

وبهذه الصورة فإن أراضي الملك في نهاية القرن الرابع عشر لم تزد عن ١٦٠ دائرة ولكنها وصلت في نهاية القرن الخامس عشر إلى ٦١٦ دائرة ، وفي بعض الأحيان كان تزايد أراضي الملك يحدث نتيجة لبيع الخزانة للأراضي الحكومية .

* . . على جهات رزق النساء من الحوندات والأعيان من الستات . . . وأطلق في الناس جمر نار المصادر ، وصادر كل منهم في أليم الغمرات..... ابن إبياس* ج ٤ ص ١٦ ورد أيضاً في نفس المصدر ص ٢٢٧ ... ووضع يده على رزق الناس وأوقافهم واستخرج خراجهم وضاعت على الناس حقوقهم وحصل منه الضرر الشامل والأمر لله ، [وما يشبه هذا كثير جداً . . . المترجم]

** فتضرر الفلاحون من ذلك ، فوقفوا إلى مالك الأمراء وشكوا له . . فأرسل إليه ملك الأمراء يقول له : انظر في حالهم ولاتجور عليهم . . فقال مالك الرزقة سيدي عمر وإيش كان ملك الأمراء يدخل بيني وبين فلاحيني في شيء لاله فيه شغل . ابن إياس ج ٤ ص ٤٠٠

ويلاحظ أن هناك ٩ دوائر قد بيعت على هذا النحو ، منها أربع دوائر فى ضواحي القاهرة واثنان فى كل من الغربية والجيزة وواحدة فى البهنساوية (٤١) .

والمساحات التفصيلية تنوه أيضاً بالتحويلات الحادثة فى أراضي الملك المملوكة للبدو [من المحتمل أن تكون هذه الأراضي نوعاً من الإقطاع] (٤٢) وتزايد أراضي الملك أيضاً كان يتم لحساب أراضي الإقطاع ، ومن المؤسف أننا لانجد عند ابن الجعيان فى أى مكان مثلاً واحداً عن انتقال أراضي الإقطاع لأراضي الملك ولم يشر حتى إلى مداخيلها .

وكما لاحظنا سابقاً فإنه فى عهد سلاطين المماليك الأتراك ، انتشر بيع ملكيات الإقطاع لسكان المدن ، وفقدت هذه القطع من الأراض طبيعة ملكيتها التقليدية واقتربت بشكل حقيقى من نوع الملك (٤٣) . غير أنه لا توجد فى مصادرنا أية معلومات تفصيلية تتعلق بهذا النوع من الملكية (ملكية سكان المدن للأراضي) .

وكان تزايد أراضي الملك مظهراً واضحاً لأبعد الحدود لدى تفسخ نظام الإقطاع .

الإقطاع :

طبقاً للمساحات التفصيلية لابن الجعيان ، فإن ممتلكات الإقطاع فى عهد الأشرف شعبان .

جدول (٥)

أراضي الملك « من نهاية القرن ١٤ حتى القرن ١٥

الوحدات الإدارية	العدد الكلى للدوائر	عدد الدوائر التى بها أراضي ملك نهاية القرن ١٤	عدد الدوائر التى بها أراضي ملك فى نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	٢٦	—	٥
ضواحي دمياط	١٤	٢	٧
القليوبية	٦١	٢	١٤
الشرقية	٣٨٣	٩	١٠٦
الدقهلية والمرتاحية	٢١٤	١٩	٨٦
الغربية	٤٧٥	٤٢	١٩٧
المنوفية	١٣٣	٤١	٦٨
أبيارو جزينى نصر	٤٨	٧	١٦
البحيرة	٢٣١	١٤	٣٦
النسبة	٦	١	١
قوة والمزاحمة	١٦	٢	٣
ضواحي الإسكندرية	١٤	—	١
الجيزة	١٥٨	١١	١٧
أطفيح	٥٣	١	٥
الفيوم	١٠١	١	٧
البحرية	١٥٥	٤	٢٢
الأشمونين	١٠٢	٢	١٧
منفوط	٥	—	١
أسسيوط	٣٢	١	٥
أخميم	٢٤	—	١
قوص	٤٣	١	١
جملة	٢٢٩٤	١٦٠	٦١٦

كانت هذه الأراضى تشغل مامساحته تقريباً ٢٢٤٧ ألف فدان ، وكانت معظم هذه المساحة على وجه الخصوص فى كل من : الشرقية والغربية والبهنساوية والدقهلية .

وكما كان الوضع فى العهد الماضى ؛ كان إقطاع أى وجيه من الأعيان الذى يتضمن كل أراضيه الموضوعة تحت تصرفه لابد أن تكون كل أراضيه - موزعة بشكل متعمد فى أنحاء البلاد ، وهكذا كان إقطاع حاكم بنى سويف مثلاً موجوداً قسم منه فى أسيوط وقسم فى أطفح وأخر فى أخميم . أما حاكم البحيرة فكان إقطاعه موزعاً على بنى سويف والفيوم ، وكان إقطاع حاكم الغربية موزعاً فى البحيرة والدقهلية والمنوفية والشرقية . ، وإقطاع حاكم الدقهلية كان موزعاً فى أطفح والأشمونين وأخميم . أما حاكم القاهرة القديمة (الفسطاط) فكان إقطاعه موجوداً فى أطفح وحاكم القليوبية كان إقطاعه فى المنوفية أما حاكم المنوفية فكان إقطاعه فى أبيار والدقهلية والفيوم ، وحاكم الفيوم كان إقطاعه فى أطفح وأسيوط وقوص وكان إقطاع حاكم الشرقية فى الدقهلية (٤٤) .

والدخل الرسمى للإقطاع (وتسميه المصادر العبرة - المترجم) ظل فى نهاية القرن الرابع عشر كما كان تماماً فى عهد الناصر . كما يقول القلقشندى : فإن * دخل (عبرة) الأمراء الكبار كان يتراوح ما بين ٨٠ - ٢٠٠ ألف دينار حربى فى السنة . وإقطاع هؤلاء كان يملك مساحات هائلة تصل أحياناً إلى عشرة دوائر . أما أمراء الأربعة فكان مجمل دخل الواحد منهم فى النسبة من إقطاعاته يتراوح ما بين ٢٣ - ٣٠ ألف دينار حربى ، وأمراء العشرة كان مجمل دخل الواحد منهم من إقطاعه يبلغ حوالى ٩ آلاف دينار حربى ، أما إقطاع ممالك السلطان فلم يكن كبيراً ، فقد كان من المعتاد أن يقتسم اثنان منهم دائرة واحدة وقلماً كان واحد منهم يضع يده على دائرة كاملة . وممالك الأمراء كما أسلفنا كان دخلهم ليس كبيراً ويتناسب مع مساحات إقطاعاتهم .

* ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمى الحلقة إلى ١٥٠٠ دينار وكذلك أعيان جنود الحلقة إلى ٢٥٠ دينار : القلقشندى صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء ، جزء ص ٥٠ .

إقطاع الحلقة :

وهو عادة مايكون إحلال دائرة واحدة لعدد من المحاربين ويعطى دخلا يتراوح ما بين ٢٥٠ إلى ١٥٠٠ دينار (٤٥) .

غير أن الدخل الحقيقي للإقطاع ، كان يقل كثيراً عن الدخل الإسمى أو التقديرى له . ويتحدث ابن الفرات عن هذا فى ١٣٩٣ م . عند استعراض فرق الحلقة الجارى فى القاهرة ، وعندما أجاب أحد الجنود على نائب السلطان حينما سأل عما يُدره عليه إقطاعه من دخل قائلاً لنائب السلطان إن إقطاعه الممنوح له يعطيه دخلاً (عبرة) يساوى ٦٠٠ دينار

(على الأغلب يقصد دينارا عاديا *) ولكن فى الواقع كان إقطاع الحلقة يعطى دخلاً يقدر بثلاثة آلاف درهم فى السنة ، تأخذ الخزانة الحكومية منها ألفى درهم كضريبة (مغارم **) - أما المقطع نفسه فيتبقى له ألف درهم « والشكل النموذجى للإجابة على هذا السؤال قدمه محارب آخر من الحلقة بعد انتهاء الاستعراض (٤٦) .

ومن دراسة العشر سنوات الأولى من حكم المماليك الشراكة (المماليك البحرية) يتبين لنا أن العلاقة بين الدينار العادى والدراهم كانت بكل تأكيد بنسبة ١ : ٢٠ (٤٧) وبالتالي فإن الدخل الحقيقى للإقطاع المنوه عنه يساوى ١٥٠ دينار (١٠٠ دينار حربى) ويخصم ١٠٠ دينار للخزانة كما سبق يتبقى للمقطع خمسون دينارا أى (٣٤ دينار جيشياً وهذا يعادل $\frac{1}{12}$ من الدخل الاسمى أو التقديرى للإقطاع ، وفى ذلك الوقت كما فى بداية القرن الرابع عشر ، كان كل مايتبقى للمحارب يقل عن $\frac{1}{10}$.

* ويسميه المقرئى دينار جيوشى ، وابن تغربرى دينار جيشى فى صفحات كثيرة من كتاب كل منهما . . . المترجم .

** وفى يوم السبت أول يوم من صفر - ابتدأ الأمير سودون نايب السلطنة بالديار المصرية بعرض أجناد الحلقة فعرض منهم عشرين نفرأ وسألهم عن عبرة إقطاعاتهم ومتحصل خراجهم فذكر بعضهم أن عبرة الذهب ستمائة دينار فى كل سنة ومتحصل الخراج فى كل سنة ثلاثة آلاف درهم يخرج من ذلك ألفين درهم مغارم ويفضل ليده ألف درهم . . وذكر بعضهم قريب من ذلك فامتنع عند ذلك من عرض الباقي وقال حتى أخبر السلطان وأشاوره . ابن الفرات ٩ ج ٢ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ مطبعة الجامعة الأمريكية بيروت . سلسلة العلوم الشرقية - الحلقة العاشرة .

العبارة^(٤٨) أو الدخل .

والجدول (٦) يقدم تصورا عن التغير الذي حدث للإقطاع على امتداد القرن الخامس عشر .

وفي خلال هذا القرن (الخامس عشر) تقلصت المساحة العامة لأراضي الإقطاع إلى حد كبير حيث إن جزءاً ، كان من أراضي دوائر الإقطاع في بداية القرن تحول بالكامل إلى أراضي للوقف ؛ ففي ضواحي دمياط بلغت مساحة هذه الأراضي ١٥ ٪ من مجمل مساحة أراضي الإقطاع المتحولة إلى أنواع أخرى من الملكية ، وفي الدقهلية كانت النسبة ١١ ٪ ، وكانت في الفيوم ٢٦٦٥٤ فدانا أي ما يوازي ٥٠ ٪ تقريباً .

وتحول قسم من أراضي الإقطاع تحولا كلياً إلى أراضي الرزق ؛ فعلى سبيل المثال تحولت في البحيرة أربع دوائر جملة مساحتها ٢٥٤١ فدانا وفي الدقهلية ثمانى دوائر جملة مساحتها ٣٣٦٦ فدانا إلخ .

وأغلبية الدوائر التي كانت ملكيات إقطاعية في نهاية القرن الرابع عشر تحولت إلى ملكيات مختلطة الأنواع في نهاية القرن الخامس عشر ؛ أي أنها صارت تتكون من قطع تختلف فيها نوعيات الملكية ، وفي مقدمتها نوع « الملك » وللأسف فإن مساحة كل نوع من هذه الأنواع لم تشر إليه المساحات التفصيلية .

جدول (٦)

أراضي الإقطاع من نهاية القرن ١٤ حتى نهاية القرن ١٥ * (بالفدان)

الوحدات الإدارية	مساحة الأراضي التابعة للإقطاع حتى نهاية القرن ١٤	مساحة الأراضي الإقطاعية المتحولة إل أنواع أخرى من الملكية خلال القرن ١٥	مساحة الملكيات المتحولة إلى إقطاعات	المساحة الكلية للأراضي الإقطاعية في نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	٦٢٥	٢٨	٧٥٠	١٣٤٧
ضواحي دمياط	* * ٤٣٤٨	٤٣٤٨	-	-
القليوبية	* * ٥٤٧٩٦	١٧٩٠١	٦٠٨٢	٤٢٩٧٧
الشرقية	* * ٢٨٨٦٠١	٢١٩٩٦٤	٧٠٧٣	٧٥٧١٠
الدقهلية والمنيا	١٣٥٥٨٤	١٠١٠٤٩,٥	٣٤١٢	٣٧٩٤٦,٥
الغربية	* * ٣٦٠٢٥٧,٨	٢٥٧٤٥٢,٣	١٦٦٠٦	١١٩٤١١,٥
المنوفية	* * ٩٠٧٢٦	٥٢٩٠٠	١٩٥٩	٣٩٧٨٥
بيمارى جزينى نصر	٦٢٠١٧	٤٦٢٠٨	-	١٥٨٠٩
البحيرة	* * ٢٣٣٦٨٩,٥	١٦٦٦١٩	٩٧٣٨	٧٦٨٠٨,٥
المنيا	١٤٠٠٠	١٣٠٠٠	-	١٠٠٠
نوة والمزاحمة	* * ١٠٣٦٠	٣٤٨٠	-	٦٨٨٠
ضواحي الإسكندرية	١١٥٧	١١٥٧	-	-
الجيزة	* * ٢٢٦٢٣	١٣٢٨٠	٦٣٦٥	١٥٧٠٨
الفيوم	* * ١٠٣٦١٧	٥٨٦٢٣	٣١١٣٨,٦	٧٦١٢٣,٦
البحيرة	* * ٣٠٥٠٤٩,٥	٢٠٨١٠٩	٧٦٨٨	١٠٤٦٢٨,٥
الاشمونين	* * ١٤٧١٧٣	٩١٣٦٠	٩٢٧٦	٦٥٠٨٩
بنى نوافل	١٨٢٣٣	١٢٨٧٣	-	٥٣٦٠
المنيا	* * ١١٥٥٨١	٥٥١٥٩	١٥١٤٠	٧٥٥٦٢
المنيا	* * ٨١٩٥٦	٢٨٢٧٣	٢٠٣٥	٤٦٧١٨
المنيا	٢٢٣٥٠٩	٥٠٠١٩	٤٠٨٧٤	٢١٤٣٦٤
جساسة	٢,٢٧٢٩١٢,٨	١,٤١١,٨٢٢,٨	١٥٩,١٣٦,٦	١٠,٢١٢٣٦,٦

* بطريق إجراء الحسابات غير المباشرة تم تحديد مساحة ست دوائر في الشرقية رفوة ، وخمس دوائر في الأشمونين ، وأربع في القليوبية . وفي باقى الأقاليم تم الحساب غير المباشر لدائرة أو إثنين أو ثلاث وتحديد مساحة أراضي الإقطاع في أطيح في نهاية القرن ١٤ كان غير ممكن بسبب غياب المعطيات الضرورية لكل دوائره ماعدا واحدة منها (مساحتها ٤٧ فداناً) ، ويشار في المساحات التفصيلية إلى أن معظم إقطاعات هذا الإقليم نقلت لإحدى جزر النيل في نهاية القرن ١٥ [فيما يبدو بسبب كسح النيل لها (أو ما يسمى بطرح البحر - المترجم) وبسبب غياب المعطيات المقارنة أيضاً أصبح غير ممكن تحديد مساحة إقطاعين في ضواحي الإسكندرية

* * أنظر ما سبق عن الأراضي السلطانية .

وفى وصف كل إقليم فى المساحات التفصيلية لابن الجعيان نجد أخباراً مشابهة للآتى : « (مساحة الدائرة) - ١٥٠ فدانا ، ودخلها - ٢٠٠ دينار ، وهى كانت تابعة لإقطاعى - ، وصارت الآن ملك - ، وقف (٤٩) » .

وفى القليوبية على سبيل المثال حدثت مثل هذه التغيرات فى ١٧ دائرة من ٢٢ دائرة ، وفى الشرقية حدثت فى ١١٨ دائرة من ١٤٧ ، وفى الغربية حدثت فى ١٨٠ دائرة من ٢٥٢ دائرة . . . إلخ .

وكما لاحظنا سابقاً ، فإن عملية تحول إقطاعات الحلقة إلى الملاك المدينيين كانت تواصل سيرها . وهكذا سمح السلطان الشركى الأول : الظاهر برقوق لأجناد الحلقة فى القاهرة ، أن يقيموا خارج حدود حصونهم ، مما سهل لهم الاندماج الكامل بالناس وهياً لهم الاتصال بإقطاعاتهم .

« هم هجروا الحصون * واقتربوا بنساء المدينة واستمروا الحياة السهلة ، وغفلوا عن عاداتهم السابقة » (٥٠) هكذا كتب المقرئى عنهم ورغب الممالك - غير الراضين عن نقصان ريع ضياعهم - (٥١) فى بيع هذه القطع من الإقطاعات ، واجدين الربح الأكبر فى أعمال الحرف والتجارة حيث يستطيعون تحقيق مزايا جديدة . وكما يقول المقرئى (٥٢) ، وصار ** الآن مالكو إقطاع الحلقة حرفيين تقريباً . (أو رؤساء ورش حرفية - المؤلف) وعلاوة على الاشتغال بالحرف ، فإن أراضى الإقطاع انتقلت إلى أيدي التجار أيضاً . ونجد عند ابن تغريبرى (٥٣) فى ١٤٥٧ - ١٤٥٨ م حقائق عن مثل هذه الأوضاع . والحقائق كثيرة عن حوادث أراضى بيع الإقطاعات ، فى القرن الخامس عشر ، لامن أجناد الحلقة فقط بل من أمراء الممالك (٥٤) .

والقلقشندي يقول إنه ليس من النادر أن تتحول إقطاعات الحلقة إلى الهيئات الدينية وإلى الناس غير المحاربين (٥٥) »

* فلما عاد إلى المملكة (الظاهر برقوق - المترجم) رخص للممالك فى سكنى القاهرة وفى التزويج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخذوا إلى البطالة ونسوا تلك العوايد . . . المقرئى - ٣ خطط ص ١٣٧ ، مطبعة الفرقان ، بيروت .

** حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات - ج ٣ ص ٢٥٥ طبعة النيل المقرئى خطط .

والمصادر تعطى بعض الإمكانات لتتبع وضع أراضى الإقطاعات وتشكلها ، واحتفاظها من الناحية الشكلية بطبيعتها ذات التبعية المشروطة .

ونجد فى هذه المصادر كثيراً من الإشارات فى القرن الخامس عشر عن ظهور المجموعات -المنوه عنها سابقاً - من الممالك السلطانية المعروفين* باسم الجلب (من جلب أى استورد - المؤلفة) . فالسلطين الشراكسة لم يكونوا غافلين عن حماية حياتهم وسلطتهم .

ولذا أحاطوا أنفسهم بالممالك المجلوبيين ليواجهوا الممالك الآخرين^(٥٦) وكان الممالك الجلب يتسلمون منحاً نقدية أكبر من غيرهم من الممالك الآخرين ، ولايرسلون إلى الحملات الحربية الخطيرة . وابن إياس وابن تغربردى ، وهما من المؤيدين لأعيان الممالك القدامى ، - يكتبان عن التصرفات الفظيعة لهؤلاء الجلب تجاه السكان المسلمين^(٥٧) .

ومعظم الإقطاعات الأساسية فى نهاية هذا القرن ، تركزت فى أيدي هؤلاء الممالك الجلب ، حيث منحهم السلطان : المؤيد أحمد فى ١٤٦١ م . إقطاعات أنصار إينال^(٥٨) . وعن ضمان المرتبة الأولى لممالك الجلب ، يتحدث ابن إياس عن ١٤٩٢ م . ، عن توزيع السلطان قايتباى للإقطاعات فى تلك السنة فيقول « فى ** ذى القعدة . . بدأ السلطان

★ ويسميه ابن إياس بالممالك الجلبان - المترجم .

★★ وفى ذى القعدة ابتداء السلطان بتفرقه الأقطاع المتوفرة عن مات بالطاعون فى السنة المذكورة فصار يفرق إقطاع كل من توفى من الطباق لأهل طبقته ، ولايخرج من ذلك شيئاً لغير أهل طبقته ، وكانت أغوات الأطباق والممالك الجلبان يتراصون مع بعضهم بالنوبة ويحضرون ويعرضون ذلك على السلطان فينعم لهم بذلك ، فمنهم من يكون طبقته فيها كثيرة متوفرة ومنهم من يكون فيها شيء قليل ، فتأخر من الممالك الجلبان جماعة بلا أقطاع . . . فعرضهم السلطان فيما بعد وأخرج لهم أقطاع كانت متوفرة فى الذخيرة ففرقها على الممالك الذين لم يخصهم شيء من الإقطاعات المتوفرة من الطاعون ... وصار الديوان يستدعيهم بأسمائهم ، والسلطان يعطيهم ، ويكتب حتى لم يبق من جلبان قايتباى أحد بلا إقطاع إلا الذين استجدوا من بعد الفصل ، وكانت الإقطاعات التى فرقت أكثرها ثلاثون ألفاً وأقلها خمسة عشر ألف درهم والإقطاعات التى توفرت من جماعة الممالك الإينالية فرقها على خشداشينهم الإينالية فوق إقطاعاتهم والتى توفرت من الصغدمية أعطاها لخشداشينهم من الخشقدمية وأعطى بعض خشداشينه وبعض أولاد الناس ممن كان منزلاً بالديوان وهو بالطريقة إقطاعات خفيفة واستمرت تفرقة الإقطاعات مدة ثلاثة أشهر . ابن إياس طبعة الشعب ص ٥٧٣ (وسقطت من طبعة الهيئة العامة وأضيقت فى الهامش فى الجزء الثالث ص ٢٩٢ - ٢٩٣ — المترجم .

بتوزيع إقطاعات من ماتوا في الطاعون (في السنة المذكورة سابقاً) فوهب إقطاع الميت من أى قشلاق إلى زملائه في نفس القشلاق وليس لأحد آخر ، واصطف رؤساء هذه القشلاقات والممالك الجلب أمام السلطان بانتظام وهو يوزع على كل منهم ما يخصه من إقطاع قشلاقة ، والكثير منهم صار لديه إقطاعه ، وبعضهم كان إقطاعه صغيراً ، وبعض الممالك الجلب بقوادون إقطاعات ، ولكن في نهاية هذا العام استدعى السلطان هؤلاء الجلب ووزع عليهم إقطاعات كانت ماتزال تابعة للخزانة بعد الطاعون ، أما الممالك الذين لم يتسلموا أى شيء ، فقد « استدعاهم السلطان بأسمائهم إلى الديوان ، ولم يبق من ممالك قايتباي الجلب من ليس له إقطاع باستثناء من تواجد بعد هذا التوزيع - وقسم كبير من هذه الإقطاعات الموزعة كان يدر ريعاً كبيراً يقدر بحوالى ثلاثين ألف درهم ، وقسم صغير منها ، كان يدر ريعاً يقدر بخمسة عشر ألف درهم ، أما الإقطاعات المتبقية من ممالك إينال فقد منحها لزملائهم الإيناليين علاوة على إقطاعاتهم ، والإقطاعات التي بقيت من ممالك خوشقدم قد ذهبت إلى زملائهم وأولاد* الناس « أولئك المقيدون في سجلات الديوان ويمتلكون إقطاعات صغيرة ، واستمر توزيع هذه الإقطاعات ثلاثة شهور » (٥٩) .

ونشاط السلطان الغوري في ١٥٠٨ - ١٥٠٩ م في انتزاع أراضي الرزق والإقطاعات من غالبية « أولاد الناس » كان يهدف من ورائه إشباع رغبات الممالك الجلب (٦٠) .

وفي سعى هؤلاء الممالك الجلب لزيادة أملاكهم ، اتجهوا إلى النهب مباشرة ، فابن إياس يروي في ١٥١٤ م عن اغتيال هؤلاء الممالك لأحد الممالك القرانيس في القاهرة بهدف الاستيلاء على إقطاعه ويستمر في قوله « إنهم كانوا يقومون بأعمال من هذا القبيل تجاه أعداد كبيرة من الممالك القرانيس للاستيلاء على إقطاعاتهم . . . وكان الوضع مرعباً للغاية في هذه الأيام وكان الممالك يقتلون من يريدون أخذ إقطاعه (٦١) ** » .

* هم اليتامى من أبناء أمراء الممالك أو مرضاهم أو شيوخهم - المترجم .

** وقد فعلوا ذلك بجماعة كثيرة من الممالك القرانصة بسبب إقطاعاتهم فقتلوا ولم تنتطح في ذلك شاتان . . . وقد اضطربت الأحوال في هذه الأيام إلى الغاية ، وصار الممالك يقتلون من يلوح لهم عليه مضرب لأجل إقطاعه . ابن إياس ج ٤ ص ٢٥٨ (الهيئة العامة) .

ومن المعروف أنه في عهد السلاطين الأتراك ، كان قسم من مداخل أملاك الممالك تأخذ الخزائن الحكومية على هيئة ضريبة ، وفيما يبدو ظلت هذه السياسة العملية باقية بشكل ما ، في العشر سنوات الأولى من القرن الخامس عشر ويستدل على ذلك من التعليمات العديدة الموجهة للموظفين الحكوميين المشرفين على الملكيات الخاصة للأراضي الزراعية في عهد السلطان . الظاهر برقوق ؛ وتحدث هذه التعليمات عن ضرورة تطبيق النظام . رم تجاه الوجهاء (الأعيان) الذين يخلون بالتزاماتهم وعهودهم ، وذلك بضرورة التوجه لملكاتهم المعهود لهم بها والمستأمنين عليها ، والعمل على فحص وتحقيق مداخلها ، مع ضرورة جباية الضرائب الحكومية عنها في نفس الوقت (٦٢) .

وظل مندوبوا الحكومة القائمون بالاشراف على جمع الضرائب الحكومية مثل سابقهم « يسمون بالكاشفين ، وهم * من كان يعينهم السلطان بنفسه عادة ، وتتفاوت أوضاعهم ما بين رئيس ومراء وس ، علاوة على أن عدد دوائر كل منهم ومجال اختصاصاته ظل كما كان في السابق دون تغير، (٦٣) .

أما في عهد الممالك الشراكسة ، فكانت المطالبة بأصبية السلطة المركزية من دخول الإقطاعات نادرة جدا . ، وعندما كانت تطالب بها كانت لا تحقق وفق مطالبها (٦٤) فقد صار الإقطاعي ، هو صاحب التصرف في ضياعه كما يريد (٦٥) .

والإقطاعيون المصريون ظلوا حتى القرن الخامس عشر تارة يستطيعون أن ينقلوا أملاكهم لورثتهم وتارة لا يستطيعون ، ولكن حيازتهم للأرض كانت مرتبطة بشكل حتمي بمدى تأديتهم لأعباء وظائفهم الحربية ، لكن النزعة إلى توريث الإقطاعات تزايدت في القرن الخامس عشر ، وهذا مايسجله ابن إياس في عهد السلطان الظاهر سيف الدين

* وأما الكشاف فكانوا قديما ثلاثة ؛ كاشف الوجه القبلى ، وله الولاء من الجيزة إلى الجندل ويولى من تحته سبع ولاة بأقاليم الوجه القبلى وكاشف بالوجه البحرى يولى من تحت أمره سبعة ولاة بأقاليم الوجه البحرى وهما من مقدمى الألوف ، والآن ربما يكون بالوجه القبلى ثلاثة كشاف أحدهم بالفيوم والآخر بالصعيد الأدنى وربما يكون أيضاً بالوجه البحرى كاشفان أحدهما بالشرقية والآخر بالغربية وكاشف البحيرة على عادته - الظاهرى : زبدة كشف الممالك . . . ص ١٢٩ - ١٣٠ .

جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٤ م) لا يخرج* إقطاع من له ولد إلى أى شخص آخر إلا ولده (٦٦) وواجبات القيام بالوظائف الحربية ذاتها لم تكن تتم بشكل دقيق تماماً ، فقد كان هناك نقصان حاد فى أعداد المماليك الفرسان فى نهاية القرن الخامس عشر ، وديوان الجند نفسه لم يكن لديه تعداد حقيقى عن القوات المحاربة فى مصر ، ودخل فى قوائمه - كما أشرنا سابقاً الكثير من الأشخاص غير المحاربين (٦٧) .

ونتوقف أمام التفصيلات الكافية عن الإحصاء العام لقوات المماليك فى عهد السلطان الظاهر . . . ولكن كما لاحظ د . أيا لون بحق (٦٨) ، أنها بعيدة كل البعد عن الحقيقة ؛ إذ لا يمكن أن نعرف منها عن أى زمن نتكلم . . . وكيف يكتبها السلطان الظاهر بنفسه ؛ ومن المحتمل أنها كانت ردّاً على مبعوث القائد المغولى للقوات المتأهبة للهجوم على مصر ، وذلك بهدف إرهاب العدو - وهذا مما يوضح طبيعتها المغالية فى الوصف (٦٩) . وما يقوله المقرئ من مختلف أقسام الجيش المصرى ، أقرب بكثير من الحقيقة . « منذ ذلك الوقت (أى فى عهد السلطان : الناصر محمد - المؤلفة) صار ** عدد قوات

★ وكان السلطان جقمق . . . لا يخرج إقطاع أحد من الجند وله ولد ، إلا إلى ولده . . . ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٩ طبعة الهيئة المصرية العامة .

★★ فكتبت جرائد من جيش الديار المصرية بأسماء أجناد الحلقة وعدتها أربعة وعشرون ألفاً ، والمماليك السلطانية عشرة آلاف ومماليك الأمراء ثمانية آلاف وأجناد الحلقة بدمشق المحروسة اثنا عشر ألفاً ومماليك وكافلها والأمراء بها ثلاثة آلاف وأجناد الحلقة بحلب المحروسة ستة آلاف ومماليك كافلها والأمراء بها ألفان ، وأجناد الحلقة بطرابلس المحروسة أربعة آلاف ومماليك كافلها والأمراء بها ألف وأجناد الحلقة بصغد ألف ومماليك كافلها والأمراء بها ألف وأجناد الحلقة بغزة ومماليك كافلها والأمراء بها ألف ، وحُصرت عدة المدن بالبلاد الشامية والديار المصرية معاتقدم ذكرها قريب ستين مدينة وضبط ما فى المدن من أجنادها ومن هو بخدمة نوابها من الخيالة فكانت ستين ألفاً .

ثم كتبت قبائل العربان فول مابداً آل فضل وهم بنو نعيم أربعة وعشرون ألفاً ثم عرب الحجاز بكاملة أربعة وعشرون ألفاً ثم آل علي ألفان وعرب العراق ألفان وعرب يلمم ألفان وعرب الجزيرة ألفان وعرب متروك ألف وعرب جرم ألف وعرب بنى عقبة وبنى مهدى ألف وعرب محارب ألف ، وعرب قتيل ألف و عرب قطاب ألف وعربان متفرقة (طوائف عديدة) بالديار المصرية كل طائفة تشتمل على ما ينيف عن مائة خيال وتقدر جعلتها ثلاثة آلاف وعرب هواة جريدتها فى الزمان المتقدم أربعة وعشرون ألفاً ثم كتبت طوائف التركمان من غزة إلى ديار بكر مثل ابن (قطبكلو) وابن كبك وابن سقلسير وابن دلجادر وابن رمضان والأوزارية ويكدلو والبازاتية ويوزجالولار والمرعشكولار والأراكية وأوج أخلو ويوزا خلو والإينالية والخربندلية والكندولية والقنجولية . . . وهؤلاء ينقسمون فرقاً كثيرة وأصل جريدة الجميع مائة ألف وثمانون ألف خيال . . . ثم حسب جميع الأكراد وماعهم من المقدمين فجاءت عدتهم قديماً ما يزيد على عشرين ألفاً . . . إلخ الظاهرى ص ١٠٤ - ١٠٥ .

الحلقة يتناقص ، وصار عددهم الآن قليل . . . وسواء كانت ألفا أو أكثر . . . فهي لا تنفع ولا تضر .

وأما الممالك السلطانية* الآن فهي أيضاً غير كبيرة العدد وهي لا تكاد تبلغ خمسة آلاف فارس ما يصلح منها للقتال إلا ألفا أو أقل (٧٠) .

ويلاحظ ابن تغربردى أيضاً غياب الانضباط « العسكرية » والشهامة ، وانعدام كفاءة المجموعات الحربية عند الممالك في زمنه . ثم بعد ذلك يمتدح بسالة صلاح الدين الكامل وبيرس في مقابل ضعف سلاطين عصره (٧١) .

في نهاية القرن الخامس عشر وطبقاً لأرقام د. إيالون عدد أمراء المائة خمسة عشر ، وكان عدد أمراء الأربعين عشرة ، وأما أمراء العشرة فكان عددهم ستين ، وكان عدد ممالك حاشية السلطان لا يتجاوز ثمانمائة (٧٢) وحتى في حالة ما إذا كان تحت تصرف كل أمير عدد غير قليل من الممالك الخاضعين له ، فإذا هذا يدل على أن مالكي الإقطاعات القائمين بوظائف حربية ، كانت جملة عدد المحاربين الحقيقيين منهم ليست كبيرة .

وبهذه الصورة ، يتضح أن امتلاك الإقطاعات الذي ظل من الناحية الاسمية محتفظاً بالارتباط بالوظيفة الحربية صار ينتقل بالوارثة ويفتقد الارتباط بالوظيفة الحربية ويقترب بملامحه في الحقيقة إلى طبيعة الملك وكان كل هذا مجتمعاً هو الذي أدى إلى التفسخ الكامل للنظام الإقطاعي .

وفي حقيقة الأمر : كان أحد أشكال ملكية الأرض في ذلك العصر قد ظهر في تأجير الإقطاعيين للأرض ، (ريع الأرض) ومثال ذلك ما قدمناه سالفاً ، فيما يتعلق بأراضي الوقف .

★ وأكثر ما كانت أجناد الحلقة في أيام الناصر محمد بن قلاوون فإنها قد بلغت ٢٤ ألفاً ثم ما زالت تنقص حتى صارت اليوم مع قلة عددها سواء منها الألف والواحد فإنها لا تنفع ولا تضر . . .
وأما الممالك السلطانية فإنها اليوم قليل عددها بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع الممالك السلطانية لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس ، يصلح منها أن يباشر القتال ألف أو دونها المقرئى خطط ١ ص ١٧٥ .

والنموذج الثانى للربع الإقطاعى يقدمه ابن تفريردى حيث يقول إن السلطان جقمق أمر أن يسجن من يدعى ابن كويز حتى يدفع أربعة آلاف دينار عن الأرض التى اشتراها فى الدقهلية من مالكاها السابق قرقماس* . ، ويقول بعد ذلك ، وإن ابن كويز قبل أن يشتري هذه الأرض كان يقوم باستئجارها طوال عامين سابقين نظير مبلغ نقدى كبير (٧٣) وهذا ما يقدمه السخاوى أيضاً ، (٧٤) وهذه العلاقات الإيجارية أدت فى مثل هذه الظروف إلى ترابط ممثلى الطبقة الحاكمة .

ويشير قانون نامة ومصر إلى أن بعض الناس الميسورين (دون أدنى شك ليس هم الفلاحون البسطاء - المؤلفة) كانوا يستأجرون أراضى قريتين أو ثلاث (٧٥) ويبدو أنه من الممكن الاستدلال على وجود أنماط مشابهة للعلاقات الإيجارية ، من بعض الإشارات عن ريع المستأجرات الذى كان يدفعه « الأعيان » مثلما كان الوضع فى عهد المماليك الأوائل حيث كان يجرى القول عن ديوان المستأجرات كأحد الإدارات السلطانية (٧٦) .

ولكن المعلومات المشابهة التى تبرز قيام الإقطاعيين بتأجير أراضيهـم فى القرن الخامس لا تملك انتشارا واسعا فى مصادرنا وعلى كل فإن تأسيس الإيجارات كان يمثل جانبا من الجوانب الرئيسية لتطور الملكية الإقطاعية الزراعية فى ذلك العهد - عهد الانحلال الجذرى لنظام الإقطاع .

* طلب السلطان الزينى بن كويز ورسم بالترسيم عليه تمريغا حتى يرد لقرقماس الأشرفى ماأخذه منه من ثمن قرية ابتاعها قرقماس منه فى الدقهلية تسمى منية العرايا . . . وهو أربعة آلاف دينار ، وكان لأبـاعها الزينى للمذكور استأجرها منه سنتين بمبلغ هائل فلما انقضت المدة واستولى عليها مالكاها لم يجدها تقى بالمبلغ المعين من الخراج . . ابن تفريردى حوادث ص ١٢٦ - ١٢٧

هوامش الفصل السادس

١ - انظر

A.Poliak .Le caractère colonial de l'État mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'Or, p.241 ; D.Ayalon (Neustadt) . The Circassians in the Mamluk Kingdom - JAOS . vol . 69 , 1949 . No 3 , p . 136 , W.Popper , Egypt and Syria ... pp . 1 - 12

وعن تربية وتعليم المماليك انظر -

D.Ayalon. L'esclavage du mamelouk , Jerusalem , 1951

J . Hammer , Geschichte des Osmanischen Reiches , Bd انظر ٢

VII , Pest , 1831 , S . 470

3 - Silvestre de Sacy , Sur La nature ... , p . 245 ; A. Poliak , Le caractère colonial de l'État mamelouk dans ses rapports avec La Horde d'Or , p . 242 ; D . Ayalon (Neu-stadt) ,The Circassians in the Mamluk kingdom , p . 146 ; W. Popper , Egypt and Syria p. 88 .

وعلى إبراهيم حسن ص ٢٦٦

٤ - والوظائف الرئيسية للحاشية السلطانية غالباً ما يتم عنها التنوية في المصادر بأسمائها القديمة :

فكبير الأكابر يسمى " حاجب الحجاب " ، وهو كان يقوم ببعض الأعمال القضائية إلى جانب استقبال ومقابلة المبعوثين إلى السلطان ، " دوا دار " وهو المسئول عن الكاتبات السلطانية ، " وأسقادر " كان مسئولاً عن الموظفين والخدم بالقصر السلطاني ، علاوة على تولية قيادة الوظائف الأقل في ديوان المفرد ، " خازندار " وهو رئيس المحاسبين وتحت رعايته المخازن السلطانية ، وكان هناك أيضاً رئيس للاصطبلات يسمى سراخوار * ، وهذه الوظائف عادة كان يشغلها أمراء المائة ، ومساعدهم كانوا من الأمراء ذوي المرتب الأقل ، ومن الوظائف " المنظورة " في القصر أيضاً ، كان كبير الطواشي يسمى " زمامدار " أما حامل الأسلحة فيسمى " سلاحدار " وأمير البردراية ويسمى " أمير طير " وهو يحمل الطير ** السلطاني في الظروف المهيبة ويقود الموكب السلطاني ، " وأمير علم " وهو قائد فرق الطبالين ، وناظر المباني ويسمى " شد العماثر " وهو يلاحظ المنشآت والتجديدات لجدران القصور السلطانية والقلاع ... الخ .

وتاجر المماليك السلطانية ويسمى " تاجر المماليك " . وهذه الوظائف كان يشغلها عادة أمراء الأربعين أو أمراء العشرة . (انظر M . W . Popper Egypt and Syria ... pp . 92 - 96 , Caude Froy - Demombynes . La Syrie ... , PP .LVII - LXI)

* ص ١٨٤ النجوم ص ٧ ابن تغريبردي .

** سلاح على هيئة فأس - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى - محمد قنديل البقلى ص ٤٥ .
الهيئة العامة ١٩٨٤ (المترجم) .

٥ - انظر على سبيل المثال أنونم ص ٢٠٧ ، وعن حياة الخلفاء العباسيين في مصر انظر الجزء الأخير المكرس لذلك من كتاب : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين - القاهرة ١٨٨٧ .

٦ - انظر على سبيل المثال : ابن دقماق ٥ ص ١٢٨ .

٧ - انظر على سبيل المثال : ابن إياس ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٩ .

٨ - ابن إياس ١ ص ٢٠٦ هـ وفي هذا العام قد أحيل إلى الأمير " سار جتميش " دفتر تسجيل " الأحباس " (نوع من أراضي الوقف) الخاص بالكنائس والأديرة المسيحية ، فوجد فيه أن مساحة مابه من قطع من الأرض يساوي ٢٥ ألف فدان ، كانت موضوعة تحت أيدي المسيحيين ،

وعندما علم الأمير "سار جتميش" بهذا الأمر ، تملكه الغضب وهب مسرعاً إلى القلعة ، وأخبر السلطان بذلك ، فأمر السلطان أن تنزع هذه الأرض من أيدي المسيحيين وكتب وثيقة لتوزيعها على الأمراء كزيادات على إقطاعاتهم ، ووزع هذه الوثيقة الغراء على الأمراء فانتزعوا كل هذه الأراضي التي كانت تحت أيدي المسيحيين " من رزقهم " انظر أيضاً : القلقشندي ٤ ص ٥١ وينبغي الانتباه إلى ما حدث بمناسبة هذا في نفس هذا العام من إصدار قانون لتنظيم ميراث الأملاك غير ملانم للمسيحيين (A . Perlmann Notes on anti - christian propaganda in the mamluk empire , p . 855) 9 - Poliak , Feudalism ... p . 25

10 - Silvestre de Sacy , Sur la nature ... pp . 61 , 69

١١ - ابن الجعيان ص ٨ .

١٢ - المقرئزي (خطط) ١ ص ١٤٦ ، ونجد عند ابن الفرات تنويها مختصرا عن " الروك " (إعادة تقسيم الأرض) زعموا أن هذا قد حدث في عهد الظاهر برقوق ، وعن هذا يقال إن الأرض التي كانت خاضعة لأربعة وعشرين أميرا من أمراء المائة (في بداية الأمر ..) انظر ٩ ح ١ ص ١٠٩ .

وفيما يبدو فإنه هنا يقصد واحداً من إعادة التوزيع الجزئي الذي لم يغير من الوضع المعقد في ذلك الوقت ، وكان ذا أهمية قليلة لا نجد لها صدق في المصادر الأخرى المعروفة لنا . ويتطابق هذا ما يقوله القلقشندي من أن عدد أمراء المائة في عهد الظاهر برقوق لم يكن ٢٤ بل كان من ١٨ - ٢٠ أميرا (٤ ص ١٤)

١٣ - انظر جدول ٦ ، والإقطاعات المباعة في عهد السلطان الأشرف شعبان ، هي بكل الاحتمالات غير محسوبة في الأماكن المناسبة لها في الإحصاء التفصيلي ، إذا أنها كانت مقتناة بصورة شخصية وأحصيت في تكوين الجيش .

١٤ - ابن دقماق ص ١٩ ، ٢٢ - ٢٤ ، ٢٩ ، ٥٠ .

١٥ - وهنا تم استخدام نفس أسلوب جدول ٢ ، ٦ .

١٦ - القلقشندى ٣ ص ٤٥٧ .

١٧ - نفس المصدر ص ٤٥٧ .

١٨ - انظر على سبيل المثال المقرئى (خط ط) ١ ص ١٤١ ، وفى ارتباط بهذا يعتقد القلقشندى كما لو أن هذا الديوان ظهر فقط فى عهد الناصر محمد . ثم يعترف بعد ذلك بأن هذا غير دقيق (٣ ص ٤٥٦) .

١٩ - ابن تغرى بدى (نجوم) ٧ إصدار بوير ص ٦٩٢ - ٦٩٣ .

٢٠ - انظر فى هذا الكتاب الجزء الأخير من هذا الفصل .

21 - Silvestre de Sacy, Sur la nature ..., p. 251

٢٢ - ابن إياس ٤ ص ٥٠ .

٢٣ - انظر ما قبله " فى هذا الفصل " .

٢٤ - وعن تأسيس أوقاف " قايتباى " انظر ابن إياس ٢ ص ١٩٤ ، وأيضاً

CIA , I , p. 495 " Le voyage d' outremer (Egypte , Mont Sinay , Palestine)

de Jean Thénault gardien du couvent des cordeliers d , Angoulême suivi de la relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du sultan d'Egypte (1512) " publié et annoté par Ch . Schefer , Paris , 1864 , p . XXXIII .

٢٥ - من المعروف أن " بار سيبائى " قد قبل هذه القياسات لتلافى تمرد مماليك القاهرة ، ثم بعد ذلك قسمهم إلى سبع مجموعات ، غير أن ما يؤكد المقرئى ، كان على خلاف ذلك " فكل طائفة منها مبانة لجمعها ، فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدتهم ، وأمنت على السلطان غائلتهم ، ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وإن كانوا مجتمعين ، وتباينهم وإن كانوا فى الظاهر متفقين (ص ١٧٣ ح١ خطط من طبعتنا - المترجم ، ص ١٥٣ عند المؤلف . وهذه القياسات لم تحقق نتائجها المرجوة) .

٢٦ - المقرئى (خط ط) ٤ ص ٨٦ .

٢٧ - المقرئى (خط ط) ٤ ص ٨٦ وينبغى ملاحظة أن الحكومة سعت بكل جهدها للوقوف ضد مثل هذه السياسات ، ويستدل من نقش على واحد من جوامع طرابلس يتعلق بحوادث ١٤٧٥ ويتم فيه التعريض بمرسوم " قايتباى " عن ضرورة تسليم ريع الأراضى الداخلة فى الوقف الممنوح لمسجد ، (ليس للأشخاص ذوى المكانة العالية المتمتعين بالسلطة) ولكنه كان مسجداً للملاك البسطاء

CIA , II . PP . 129 - 130 .

وكما لاحظ " بيكر " فإن هذا المرسوم ، يستدعى إلى الذهن إدراك أن الناس الميسورين كانوا أكثر إصراراً على استعادة الريع ، وقد فازوا بعودة الأرض لهم .

("Islamstudien" I, S. 268)

٢٨ - المقرئى (خطط) ٤ ص ١٩٤ ، وابن تغرىبرى (حوادث) ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ، وابن تغرىبرى (نجوم) (إصدار بوبر) ص ٦٩٢ ، ص ١٦٦ .

٢٩ - المقرئى (خطط) ٤ ص ٨٦ ، Silvestre de Sacy , Sur la nature ... p . 56 .

٣٠ - انظر ، N. Abbot , The monasteries of the Fayyum , Chicago ,

1937, pp . 60 - 61

٣١ - ابن إياس ٢ ص ٩٦ ، وابن تغرىبرى (حوادث) ص ٦٣٣ ، وعن أراضى الخلافة ، انظر أيضاً ابن تغرىبرى نجوم ٧ إصدار بوبر ص ٦ ، ٣٨٠ ، ٤٦١ ، ٦٤٦ ، وأيضاً السخاوى ص ٤٢٣ - ٤٢٤ . A. Schimmel, kalif und Kadi im , spatmittelalterischen Aegypten .- ٤٢٤ - ٤٢٣ "Die, Welt des Islams ". Berlin - Leipzig - Leiden , Bd 24 , 1943 , S . 20

٣٢ - ابن تغرىبرى (حوادث) ص ٢٠٢ .

٣٣ - ابن إياس ١ ص ١١٧ ، ٢ ص ٣٠٥ .

٣٤ - انظر ، Silvestre de Sacy , Sur la nature ... p. 73 .

٣٥ - انظر ، Becker, Islamstudien , I , s. 206 . وينبغى الانتباه إلى أن مبدأ إعفاء أراضى الوقف من الضرائب فى العهد المملوكى المبكر لم يكن يتم مطلقاً بشكل دائم ، وهكذا فإن السلطان الناصر خرج قبل توجهه إلى سوريا للصراع مع تيمور ، أخذ من الوقف المصرى مبلغاً إجمالياً وفق معطيات ابن إياس (انظر ١ ص ٣٣٠ .

ومبلغاً شهرياً وفق معطيات ابن الفرات ٤ ص ١٠ - ١١ وتطويق الوقف بالضرائب حدث أيضاً فى عهد قايتباى وفى عهد قنصوة الغورى للاستعداد للصراع ضد الأتراك انظر ابن إياس ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ .

٣٦ - ابن إياس ٤ ص ٥٠ ، ١٣٦ : ٣ ص ٦٠ .

٣٧ - CIA , I , comp 720 وعلى كافة الاحتمالات ، فإن الحديث هنا يدور عن الخراج فى شكله النقدى أو عما يسمى بالابتزاز " غير الشرعى " أو غير القانونى الذى كانت تتم جبايته فى عهود أسلاف يشبك .

٣٨ - ابن تغرىبرى (نجوم) ٧ إصدار (بوبر) ص ١١٦ .

٣٩ - ابن إياس ، ص ١٥ - ١٦ ، ٧٣ .

٤٠ - انظر ، Poliak , Feudalism ... P . 64

وهذه الحقائق المقدمة من بولياك مأخوذة على الأرجح من محفوظات ابن إياس التى لم تتضمنها كتبه المطبوعة .

وعن توجه الفلاحين عديم الجدوى إلى السلطة المركزية برحاء تقليل الابتزازات فإن ابن إياس، يتكلم عنه تحت سنة ٩٢٣ هـ (ابن إياس ٣ ص ٢٩٣) .

٤١ - انظر على سبيل المثال ابن الجعفيان ص ١١ ، ١٣٩ ، وابن تغربردي (نجوم) ٢ ص ٢١٦ ، والحقائق المتعلقة ببيع الأراضي الخراجية الحكومية بواسطة الخزانة معروفة ، لفترات المبكرة من تاريخ مصر (خطط ١ ص ١٥٦) ، وسعى بولياك لتوضيح أن هذه السياسة العملية في العصر المملوكي كانت استثناء تم تحت التأثير بظروف التركستان (الذي ظهر في نفس الوقت بشكل جزئي عند قبيلة القرن الذهبي) يبدو لنا تعليلاً غير مقنع إطلاقاً ،

انظر ، Poliak, Feudalism pp. 36 - 37 , n. 7

٤٢ - ابن الجعفيان ص ١٣٤ .

٤٣ - القلقشندي ٣ ص ٤٩٢ .

٤٤ - ابن الجعفيان ص ٢٢ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩ - ١٩٣ .

وابن دقماق ٥ ص ٤ ، ٧ - ١٠ ، ١٦ .

٤٥ - القلقشندي ٣ ص ٤٥٧ ، جلال الدين السيوطي - كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٢ ص ١١٠ .

٤٦ - ابن الفرات ٩ ح ٢ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ، وأيضاً القلقشندي ٣ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

٤٧ - انظر D. Ayalon , The system of payment in mamluk military Society
- JESHO. vol. I, 1957, pt 1, p . 47

٤٨ - المقرئزي (خطط) ٣ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، وانظر أيضاً ،

A. Darrag , L'Égypte sous Le règne de Barsbay ... p . 61

٤٩ - الجعفيان ص ٦٢ ، وانظر أيضاً ص ٣٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٨٥ ، ٨٩ ... الخ .
ي (خطط) ٣ ص ٣٥٥ .

٥١ - مكذا فقد أصبح المؤيد شيخ (١٤١٢ - ١٤٢١) ، بسبب الدخول القليلة لإقطاعات الحلقة مضطراً لتوحيد إقطاعات كل أربع محاربين في هذه الظروف ، ويصير إقطاعهم في حالات الضرورة لواحد منهم ، انظر M Gaudefroy - Demomombynes , La Syrie ... , P . XXX V

وانظر أيضاً ابن إياس ١ ص ٣٣١

٥٢ - المقرئزي (خطط) ٣ ص ٣٥٥ وانظر

Maqrizi , Le traité des famines , trad . par G.Wiet -JESHO , vol . V , 1962 ,pt I , p . 38 , n .1

- ٥٢ - ابن تغريبدى (حوادث) ص ٢٦٤ - ٢٦٥
- ٥٤ - ابن الجعيان ص ١٠٩ ، ١٣٩ .
- ٥٥ - القلقشندي ٤ ص ١٦ ، وانظر أيضاً ابن تغريبدى (نجوم) ٧ إصدار (بوير) ص ٦٩ .
- ٥٦ - تحديد هذه المجاميع على أنها ممالك للسلطان الحاكم ، تم لأول مرة بواسطة سيلفستر دي ساسي انظر Silvestre de Sacy , Sur la nature ... , p. 244
- ٥٧ - وعن هذا انظر على سبيل المثال : ابن تغريبدى (نجوم) ٧ (إصدار بوير) ص ٢٠٥ ، ٤٦٧ - ٤٧٦ ، ٤٩١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٧١٦ ، ٧١٨ - ٧١٩ ، ٧٦١ - ٧٦٢ ، ٨٣٩ ، ٨٦٠ - ٨٦٢ ،
- وأيضاً ابن إياس ٣ ص ١٣ ، ١٩ ، ٨٠ - ٨٢ .
- ٥٨ - ابن تغريبدى (حوادث) ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، (نجوم) ٧ (إصدار بوير ص ٥٣٦ .
- ٥٩ - ابن إياس ٢ ص ٢٧٧ .
- ٦٠ - ابن إياس ٢ ص ٢٤١ ، ٣ ص ٦٠ ، ٤ ص ٥٠ . وكان قد تم نزع الإقطاعات ، وعند ابن إياس " وأنا من جملة من وقع له ذلك وخرج إقطاعي (ابن إياس) لأربعة من الممالك ولكن أعان الله تعالى ورجع إلى إقطاعي وله الحمد " ابن إياس ٤ ص ١٣٦ من طبعتنا .
- ٦١ - ابن إياس ٤ ص ٣٥٨ .
- ٦٢ - الظاهري ص ٥٩ ، ٩٤ .
- ٦٣ - وهكذا ، فبعض كلمات الظاهري « في الزمن السابق كان يتوجه ثلاثة من الكشاف ، إذ أن واحدا منهم كان يتوجه للجنوب ، من إقليم الجيزة وحتى الجنادل وتحت سيطرته سبعة أقاليم ، وواحدا إلى الشمال وكان تحت سيطرته أيضاً سبعة أقاليم ، والثالث كان واحدا من الأمراء المقدمين للآلاف أو أمراء الجماعات . والآن يتوجه إلى الجنوب ثلاثة كشاف ، واحد إلى الفيوم والثاني إلى الصعيد القريب والثالث إلى الصعيد البعيد ، وإلى الشمال يتوجه اثنان ، واحد إلى الشرقية والآخر إلى الغربية وأيضاً حسب الظروف يذهب واحد إلى البحيرة ص ١٢٩ .
- ٦٤ - انظر على سبيل المثال ابن إياس ٢ ص ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٤ ص ٧٣ ، ٢٢٨ ، ٢٨٢ ، ٣٣٣ .
- ٦٥ - القلقشندي ٤ ص ٥٠ . وهذا الخبر يأتي من سياق حديث المؤلف نفسه ، فيما يتعلق بنهاية القرن الرابع عشر أو بداية القرن الخامس عشر ، ومن ثم فغير ممكن تأكيد هذا الوضع : وهو وجود حصانة صرايبية متطورة في مصر في ذلك الوقت ولا حتى في القرن الثالث عشر كما يقول

«Икта», стр ٢٥ (G. Б.Певанер وللبرهنة على فكرته اعتمد بفرزير على المقرئى (خطط ٢)

غير أننا نجد أن الحديث - عند المقرئى - يدور عن تصرف المقطع فى دخل صناعة ، وعن ، استخلاص الضريبة بواسطة الأمير المملوكى نفسه من خلال ديوانه الخاص أو القائم عليه ... قارن بأخبار ابن معاتى ص ٨٧) .

٦٦ - ابن إياس ٢ ص ٣٤ وأيضاً انظر ابن تفربرى (حوادث) ص ٣٦١ ، وابن تفربرى (م) ٧ (إصدار بوير) ص ٣٧٥ ، ٤٧٢ .
٦٧ - القلقشندى ٤ ص ١٦ وانظر أيضاً

Gaudefroy -Demombynes , La Syrie ... PP . XXXIV - XXXV .

68 - D. Ayalon, Gunpowder and firearms in the mamluk kingdom,

London ,1956, pp. 72 - 73 .

٦٩ - وطبقاً لما يقوله الظاهرى : من أن أجناد الحلقة فى مصر كان عددهم ٢٤ ألفاً ، والمماليك انية - ١٠ آلاف ، ومماليك الأمراء - ثمانية آلاف ، وعلاوة على ذلك فإن أجناد الحلقة فى ن كان عددهم ١٢ ألفاً ، ومماليك نائب السلطان والأمراء فى دمشق - ثلاثة آلاف ، وأجناد فى حلب كان عددهم ستة آلاف ، ومماليك نائب السلطان والأمراء فى حلب - ألفان ، وفى ن كان مماليك نائب السلطان والأمراء عددهم أربعة آلاف ، وأما أجناد الحلقة فكان عددهم ألفاً صفد كان لنائب السلطان والأمراء ألف من المماليك ومن أجناد الحلقة ، وعدد أمراء النائب اء فى غزة كان ألفاً ، وفوق ذلك ، فإن قبائل مختلف البدو فى مصر وفى سوريا كانت تقدم ، كامل ، ٦٨ ألفاً من الخيالة ، وقبائل التركمان الرحل فيما بين غزة وديار بكر كانت تقدم ١٨٠ ، الخيالة ، أما الكرد فكان عددهم ٢٠ ألفاً (ص ١٠٤ - ١٠٥) .

يطبقاً لأخبار المقدس الألمانى : برنارد برايدن والذى زار القاهرة فى ١٤٨٣ يبدو كما لو أن المملوكى فى ذلك الوقت قد بلغ عدده / ٢٢ ألفاً ويبدو أنه يبالغ أيضاً انظر

<< Les saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach(1423) >> te trad. annotée par F . Larrivaz , Le Caire , 1904, P. 55

٧٠ - المقرئى (خطط) ١ ص ١٥٣ .

٧١ - ابن تفربرى (نجوم) ٧ (إصدار بوير) ص ٣٢٨ - ٣٢٩ : ١٢ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٧٢ - والمحطاط المهارات الحربية للجيش المصرى ، كان نتيجة لظروف المماليك الخاصة ، التى ن مقاومتهم إدخال الأسلحة النارية ، وكان هذا سبباً فى التغيرات الجذرية التى حدثت بشكل

حتمى واضح فى بناء الجيش وحرمت خيالة المماليك من تفوقهم الواضح .
وهناك دلالة محددة أيضاً لأولئك السلاطين الشراكة الذين قاموا بترقية الكثير من الأمراء
المماليك فى هذه الرتب الكبيرة ، فورد وصولهم مباشرة إلى مصر ، وهم مازالوا فى سن البلوغ ، دون
أن يلحقوهم بأية مدارس حربية .

انظر D. Ayalon ,Gunpowder and firearms in the mamluk kingdom, P 46

وانظر أيضاً

D. Ayalon (Neustadt) , The circassians in the mamluk kingdom , P. 144 .

٧٣ - ابن تغريبردى (حوادث) ص ١٢٦ - ١٢٧ .

٧٤ - السخاوى ص ٢٨٦ .

٧٥ - قانون نامة ومصر ص ١٠٩ .

٧٦ - انظر على سبيل المثال ابن تغريبردى (نجوم) ص ٨ ، ٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٣١ والظاهرى ص

٥٧ ، والسخاوى ص ٢٨٤ .

الفصل السابع

الفلاحون فى عهد المماليك الاواخر

الفصل السابع

الفلاحون فى عهد المماليك الاواخر

المعلومات التى توضح وضع الفلاحين فى مصر فى عهد المماليك الشراكسة لا تتوافر لدينا أيضاً بقدر كبير ، شأنها فى ذلك شأن المعلومات عن العهد السابق .

ومعروف أن حالة القدهور الاقتصادى ، وإقفار بعض الأقاليم بالكامل ، أدت إلى بعض التطورات فى الاستئجار الفلاحى الفردى . فطبقاً لما يرويه المقرئى عن بداية القرن الخامس عشر ، وذلك بعد موت السلطان : الظاهر برقوق « واستولى المقرئون * من الأمراء على الأراضى التى كانت مقطعة لهم ، واستدعوا مستأجريها من الفلاحين ، وزادوا من قيمة إيجاراتها » (١)

ويتحدث ابن إياس عن الفلاحين الذين يتعرضون للعقوبة لعدم استيفائهم المتأخرات الإيجارية ، وذلك فى نهاية حكم السلالة الشركسية مستخدماً اصطلاح مزارع ؛ الذى يعنى فى بداية القرون الوسيطى نظام المحاصة (٢)

ويمكننا الاستدلال على وجود نظام إيجار الأراضى الزراعية من نصوص " قانون نامه ومصر " ؛ ذلك التشريع الخاص ببداية الحكم التركى (٣) .

ويتضح منه أن الملكية العامة للأرض الزراعية ، ظلت كما هى للأتراك الغالبين ، بالرغم من أن المعلومات عنها جد متواضعة ؛ كانت القرية تعتبر وحدة مالية أمام سياسة ابتزاز الأموال الباهظة .

والأراضى التى كانت تروى رياً دائماً وكانت بمثابة ملكية فردية للفلاحين ، تم وضعها تحت إشراف السلطات العامة (٤) . ويتحدث قانون نامه ومصر أيضاً عن شيوخ القرية (شيوخ البلد) وهم مسئولون فى نصوصه عن صيانة الرى أمام السلطات (٥)

كانت الغالبية العظمى من الفلاحين - كما كانت سابقاً - تحت السيطرة

* وذلك أن قوما ترقوا فى خدم الأمراء .. فأحبوا مزيد القرية منهم ولا وسيلة أقرب إليهم من المال فتعدوا إلى الأراضى الجارية فى إقطاعات الأمراء وأحضروا مستأجريها من الفلاحين وزادوا فى مقادير الأجر ... المقرئى إغاثة الأمة ص ٤٥ طبعة دار ابن الوليد ، دمشق .

الإقطاعية التي مارست في هذه الفترة ، خاصة ، أشكالاً قاسية ، فالمقریزی يكتب عن عصره .

« إن * . الفلاح الذي يعيش في الريف والمرتبط بالأرض ، وكما يسميه هو الفلاح القراري ، كان عبداً لصاحب الإقطاع المالك لهذا الإقليم ، فهو لا يستطيع أن يأمل في أي شيء فهو لا يبيع ولا يتحرر بل ، على العكس ، بقي عبداً وكذلك كان أولاده (٦) .
وكان تكثيف استغلال الفلاحين نتيجة لنمو استهلاك الإقطاعيين ، الذي ارتبط بالتطور الواسع المدى للعلاقات التجارية النقدية .

ووجدت التبعية الإقطاعية شكلها النهائي القانوني في قانون ثامة ومصر ، المنوه عنه سابقاً ، وهو قد رسخ كل التفاصيل الجزئية في الواقع العملي التي كانت في عهد المماليك الشراكسة . وإحدى مواد تنص على أنه إذا هجر فلاح قطعة أرضه المسندة إليه ، فلا بد أن يجبر على العودة إليها ، وتتم معاقبته ، وعلى مشايخ البلد أن يتعقبوا أولئك الفلاحين الهاربين من موطنهم الأصلي ويأتون بهم من مكان هروبهم إلى موطنهم القديم . أما الفلاحون الهاربون من القرية أثناء جباية الضرائب فيتعرضون لعقوبة الموت شتقاً إذا ما تم القبض عليهم .

فمعروف أن السلطان : المؤيد شيخ حكم بالإعدام في ١٤١٧ م على مجموعة من الفلاحين بأحد الأقاليم المصرية بعد أن تم القبض عليهم وترحيلهم من قراهم ، ولكن بفضل شفاعاة أحد المقرين من السلطان ، أمر السلطان بتحويلهم إلى عبيد بعد أن عطف على حالهم (٧) .

وكان الخراج ، هو الضريبة الأساسية الحكومية العامة في ذلك العهد كما كان في العهد السابق ، وكان في هذا العهد يجمع أساساً لأصحاب الإقطاعات . ويخبرنا ابن إياس أنه في عهد السلطان قنصوه الفوري ، خصم كاشف الشرقية من الخراج المجموع من الأهالي مبلغاً محدداً على هيئة ضرائب غير عادية ، وبنص كلمات هذا المؤرخ نفسه « سببت خسائر كبيرة لأصحاب الإقطاعات »

* ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قراراً ، فيصير عبداً لنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق بل هو قن مابقى ومن ولد له كذلك - المقریزی ... خطط ص ١٥٧ .

ومن هنا نستطيع أن نستدل على أن الخراج كقاعدة عامة وصل إلى أقصى مدى له في ذلك العهد (٨) والتصور النموذجي عن المقدار العام للخراج في نهاية القرن الرابع عشر ، يمكن أن يوضحه لنا دليل . مداخل الأقاليم المصرية الذي يقدره لنا ابن الجعيان في بداية تسجيله الوصفى المؤرخ في شوال ٧٧٧ هـ (مارس ١٣٧٦ م) ويكل الاحتمالات ، فإن هذا الدليل شبيه بما قدمناه سابقاً من سجلات القاضي الفاضل ، إذ إنه يثبت فيه مدى تفوق أراضي الإقطاع ، على عكس السجلات الأيوبية عند ابن الجعيان التي يوضح فيها أرقام الخراج بالدنانير الحربية (وهو يساوى كما أسلفنا ثلثي الدينار العادي) (٩)

مصر السفلى

المبلغ بالدينار	الأقليم
١٥٣٠٧٥	ضواحي القاهرة
٤١٩٨٥٠	القليوبية
١٤١١٨٧٥	الشرقية
٥٩٦٠٧١	الدقهلية
١١١٠٠	ضواحي دمياط
١٨٤٤٠٨٠	الغربية
٥٧٤٦٢٩ ^١ / _٣	المنوفية
١٠٠٣٣٢ ^٢ / _٣	أبيار وجزيرة بني ناصر
٧٤١٢٩٤ ^٢ / _٣	البحيرة
٥٦٨٤٦ ^١ / _٢	فوة والمزاحمتين
٤٣٥٠٠	نستراوية
١١٠٠٠	ضواحي الإسكندرية
٦٢٠٠٠	الجيزة *

٦٠٢٥٥٥٣,٥

جملة

* الجيزة (عبرة بلادها المقتطعة خارجا عن بلاد الديوان) : ابن الجعيان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ص ٣ - ٤ . هكذا وردت - المترجم

مصر العليا

المبلغ بالدينار

الأقليم

١٤٣٩٩٧	١	الأطيمية
١٦٤٠٥٠	٢	الفيوم
١٣٠٢٦٤٢	١	البهنساوية
٧٦٢٠٤٠	٢	الأشمونين
٣٢٣٩٢٠		الأسبوطية
٢٤٣٩٢٥	$\frac{1}{3}$	الأخميمية
٤١٤٦٦٣	$\frac{1}{2}$	القوصية
٢٣٥٥٨٠٨	$\frac{5}{6}$	جملة
٩٣٨٠٧٠٢		الإجمالي الكلى *

وبهذه الصورة ، يتضح أن مداخل أراضي الإقطاع تشكل القسم الرئيسى من الخراج فى نهاية القرن الرابع عشر ، وتقدر بمبلغ ٩,٤ مليون دينار حربى ، أى ما يعادل ٦,٢٦ ديناراً عادياً ، والأرقام العالية - إلى حد ما - عن إيرادات الدخل العام لهذا العهد - على عكس العهد الأيوبي - لاتدل مطلقاً على تزايد رخاء المنتجين المباشرين بل إنها على عكس ذلك تماماً ، تدل على تكثيف استغلالهم ، فبمقارنة هاتين الوثيقتين ينبغى حساب النقصان الملحوظ للقيمة الحقيقية للدينار خلال الثلاثة قرون الماضية :

* وفى الأرقام هنا بعض الاختلاف ، فالإجمالى عند ابن الجعيان ٩٥٨٤٢٦ ٤٠ ديناراً حربياً وهو كما أسفنا كان الدينار العادى ، التحفة السنوية بأسماء البلاد المصرية : الشيخ الإمام شرف الدين يحيى بن المقر بن الجعيان ص ٢ - ٤

وما يعنيه هذا من نقص لقوته الشرائية . (١٠) علاوة على العيوب الموجودة في السجلات الأيوبية .

وطبقاً لما يرويه القلقشندي ، فإن خراج الفدان في نهاية القرن الرابع عشر ، كان يتراوح عادة ما بين إردبين إلى ثلاثة أرادب من الحبوب أو البقول . وكما أسلفنا ، فإن جمع الخراج كان يتم في مصر السفلى نقداً بينما كانت جبايته في مصر العليا عينا ، وكان ثمن الإردب يتراوح ما بين درهم وثلاثة دراهم .

وفي عهد السلطان : الظاهر برقوق ، فإن الأراضي " الباء " في معظم القرى المصرية -- وهي أراض تغمرها مياه النيل في أوقات الفيضان ، وكانت إلى حد كبير أسهل أنواع الأرض في الفلاحة -- كانت تدفع خراجاً قدره أربعون درهماً عن كل فدان . وأراضي " الباروبيا " وهي أيضاً أراض تغمرها مياه الفيضان ، لكنها كانت أسوأ قليلاً من سابقتها -- كانت تدفع خراجاً قدره ثلاثون درهماً . غير أن مقدار الخراج قد زاد بعد ذلك ، فصار خراج الفدان عن الأرض " الباء " مائة درهم ، وعن الأرض " الباروبيا " ثمانين درهماً ، أما أراضي " البرش " -- وهي طبقاً لما يقوله القلقشندي كانت لا تحتاج قبل بذورها إلى حراثة -- كانت تدفع خراجاً عن الفدان الواحد مائتي درهم تقريباً . ولكن في عهدي السلطانين : الناصر فرج ، والمنصور عز الدين أبو العز ، أي في العشرة الأولى من القرن الخامس عشر ؛ صار خراج الفدان : من الأرض الباء ٤٠٠ درهماً ، وإذا ما كانت عالية الجودة كان خراجها يرتفع إلى ٦٠٠ درهماً ، أما أراضي الباروبيا فكانت تدفع أقل من ذلك . (١١)

وأدى تزايد الربح الإقطاعي إلى تدهور ملحوظ في نوع العملة المصرية . (١٢)

حيث يلاحظ اشتراوس أن جملة الخراج المحصل في مصر في ١٥٢٠م ، أي بعد الغزو التركي بثلاثة أعوام قد هبط إلى ١٨٠٠ ألف دينار (١٣) وتفاهة حجم المداخل هذه توضح بالدرجة الأولى مدى إفلاس الفلاحين المصريين في عهد السلاطين الشراكسة الأواخر ، وتوضح أيضاً تزايد أراضي : الملك والوقف والرزقة ، وهي أراض غير خاضعة لجباية الضرائب المنتظمة ، وهذا بدوره أدى إلى خروج الإقطاعيات من تحت السيطرة الحكومية .

وكان الذين لا يدفعون الخراج فى الوقت المحدد يتعرضون للعقاب ، إذا كانوا غير قادرين على الهرب مثل الأطفال والشيوخ . ويروى ابن إياس عن " حادث لا نظير له " فى ١٥١٣ م حيث كان الهاربون من دفع الخراج فى مواعده ، من فلاحى مصر العليا ، يسيرون فى شوارع القاهرة أحرارا غير معرضين للعقاب . (١٤)

وكان الأهالى غير المسلمين فى مصر يدفعون الجزية كما أوضحنا سابقاً ، وجملة حصيلتها كانت ١١٤٠٠ ديناراً فى ١٤١٣ - ١٤١٤ م . وهذا المبلغ يزيد قليلاً عن السنوات السابقة . (١٥)

" والفلاحون كما أسلفنا كانوا مجبرين على المشاركة فى إصلاح وشق منشآت الري ، وفيما يتعلق بالأعمال الضخمة من هذا النوع ما نجده بالتفصيل الدقيق عند الظاهري » فى ربيع نفس السنة ؛ كان عدد من الأمراء الأمرين (أمراء المائة) يتوجهون إلى كل إقليم لمصادرة الحصص المقررة على كل إقليم من الجواريف والزحافات ، وكانت توزع على الفلاحين الذين يشتغلون طبقاً لأوامر الحكومة ، التى تحدد لهم أماكن الحفر ، * وتطهير مجارى القنوات ، وعليهم أن ينقلوا التراب المتجمع من هذه الأعمال إلى أماكن السدود السلطانية بواسطة الزحافات ، وكان يتم جمع مبلغ من كل إقليم حيث يتوجه الناس للعمل بهذه المشروعات . » (١٦) وكان على الفلاحين الذين يقومون بفلاحة الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان تماماً كل عام أن يدفعوا ضعف ما يدفعه غيرهم . (١٧)

لكن الأعمال فى مشروعات الري فى نهاية القرن الخامس عشر غير معروفة تماماً . والمصادر لا تنوه إلا ببعض السدود والقنوات والمشاريع فى عهد السلطان برقوق والسلطان جقمق ، وبعض إصلاحات السدود التى تمت فى عهد السلطان بارسىباي ، ثم القناة الكبيرة التى أنشئت فى عهد السلطان قنصوه الغورى . (١٨)

* أما كشف التراب فيتعينون فى كل سنة مرة من الأمراء مقدمى الألف ، إلى كل إقليم أمير فى زمان الربيع لاستخراج ما يتعين على البلاد من الحفير والجرافة ، أما الحفير فإنه يتعلق بالدولة ، ويعرف بأماكن معلومة بحفرها لجريان المياه ، والجواريف التى يجرف بها التراب تستخرج من جميع البلاد مبلغ ورجالة بسبب ذلك : الظاهري . . زبدة كشف الممالك ص ١٢٩

أما أشغال الري ومشروعاته ، ذات الأهمية المحلية ، التي كان يجب على مالكي أراضي الإقطاعات أن ينفذوها بمبادراتهم الشخصية ، فالمعلومات الخاصة عنها غير موجودة نهائياً في مصادر القرن الخامس عشر ، عدا إشارة من القلقشندي إلى أن السدود السلطانية شأنها شأن السدود الخاصة بمالكي الإقطاعات قد تعرضت للإهمال في زمنه . (١٩) وكانت دناءات موظفي الحكومة ، هي الملمح المميز للعشر سنين الأخيرة في النظام المملوكي ، فعن عبد الله التركماني يقول ابن جبير ، «> إنه قد سبب الأذى للخلق بشره وخبثه ، وكان عبد الله هذا يعمل كاشفاً للشرقية في عهد السلطان : الظاهر جقمق ، وكان يعامل ، بشكل خاص ، أهالي بلبيس وفلاحى الشرقية معاملة أخبث من > معاملة إبليس ، مما دفعهم للشكوى عدة مرات للملك الظاهر جقمق ، لكنهم لم يجدوا عنده أبداً أذناً صاغية * ... >» (٢٠)

ومن بين الابتزازات الإضافية الكثيرة التي يتم جمعها من الفلاحين ، كانت هناك ضريبة تسمى ضريبة الحماية ، وأ . بولياك ، هو الذى حدد أنها صارت في عهد المماليك المتأخرين ضريبة لحماية الإقطاعيين بواسطة الأمراء والسلطان غالباً ، وكان يقوم بجباية هذه الضريبة عدد من الدواوين الخاصة وعلى رأسها ديوان الحماية . (٢١) غير أن جباية هذه الضريبة في الواقع ، خاصة في عهد المماليك الشراكسة لم تضمن أية حماية أو رعاية ، وهل كان من الممكن أن يحدث هذا في ظل هذه الأوضاع الاقتصادية المتدهورة ؟ علاوة على الصراعات الحربية الدائمة ، والتسلط الدائم للأمراء الكبار ، بل على العكس ، فإن استمرار جباية هذه الضريبة أدى إلى إضعاف الإقطاعيين الصغار وإملاق الفلاحين ، وابن تغربردى يعتقد أن هذه الضريبة كانت سبباً من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى مزيد من التدهور في أوضاع البلاد . (٢٢)

* عبد الله التركماني : كان كاشف الشرقية بالوجه البحرى ... فلما تسلطن (جقمق) ولاه كشف الشرقية فلما ولى ماكف عن قبيح ولا عف عن حرام إلا فعلها ، فساعت سيرته في ولايته وحصل للناس منه شذائد لاسيما أهل بلبيس وفلاحى الشرقية فإنه كان عليهم أشر من إبليس وشكاه غير واحد مرات عديدة إلى الملك الظاهر جقمق فلم يسمع فيه كلاماً ، وبالجمله فإنه كان من أوحاش الظلمة - ألا لعنة الله على الظالمين - ابن تغربردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٢٧ .

وعن الضرائب الحربية الخاصة ، الباهظة للغاية يتكلم ابن إياس بالآتى : جمع السلطان (قنصوة الغورى - المؤلفة) شيوخ العرب والكشافين وأمرهم أن يقوموا بإعاشة خمسمائة * من الفرسان ، وفيما يقول آخرون « خمسة آلاف من الفرسان . فانطلق الشيوخ والكشافون فى كل ناحية من نواحي البلاد ، فارضين على العباد فى كل قرية صغيرة أعباء ما يكفى لإعاشة فارسين ، مقدرين ذلك بمائة دينار ، أما القرية الكبيرة فعليها أن تقدم ما يضمن إعاشة أربعة فرسان وذلك ما يساوى مائتى دينار . وعندما سمع بهذا الفلاحون فى أقاليمهم ، تسحبوا من قراهم وهجروا محاصيلهم .. وهربوا .. وصار عدد كبير من القرى مهجوراً بسبب هذا الهروب » (٢٣)

وفى القرن الخامس عشر ، ساهم انتشار الطاعون إلى تقلص الرقابة الحكومية ، بسبب عدم الأمان مما أدى إلى خراب الزراعة (٢٤) ونتج عن هذا كله حدة الصراع الطبقي التى كانت هجرة الفلاحين لقراهم ، كما أسلفنا ، أحد أشكال هذا الصراع .

ومن أخبار ابن تغربردى عن ١٤٥١ م ما يؤكد أن الفلاحين قد تركوا قراهم البائسة واتجهوا إلى المدن « تزايد عدد حشود الصعاليك فى القاهرة ، وتراكمت أعدادهم على الطرقات ، والكثيرون منهم ماتوا من شدة الجوع » (٢٥) فأرض مصر اقتربت من الخراب ... وخربت ** منها قرى عديدة » (٢٦)

* ورد النص وبه بعض النقص فى طبعة الهيئة المصرية ج ٥ ص ٢١ ولكنه ورد كما أوردته المؤلفة فى طبعة دار الشعب كتاب رقم ١٢١ ص ١٠٠٥ وهو الآتى : أحضر السلطان مشايخ العرب والكشاف وأفرد عليهم نحو خمسمائة خيال وقيل خمسة آلاف خيال ، فنزلوا إلى البلاد قاطبة وصاروا يفرون على كل بلد خياليين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة بمائتى دينار ، فلما سمع أهل النواحي من الفلاحين بذلك الأمر ، أدخلوا البلاد وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا وخرّب بعض بلاد فى هذه الحركة .

** أشرفت القاهرة غير القاهرة ، وجرّ عنها خلائق كثيرة من أهلها لاتدخل تحت الحصر إلى البلاد الشامية وورد عليها من أهل القرى والأعراب أمثال من خرج منها ، وكثرت الفقراء منهم فى القاهرة حتى صاروا أفواجا أفواجا فى الطرقات ومات منهم خلائق كثيرة من شدة القحط . ابن تغربردى . حوادث ص ١٠٨ - ١٠٩ ، وأيضاً .. فأرض مصر اختفت من الخراب وختل غالب القرى من أهلها - ابن تغربردى حوادث ص ١١٠ .

طالب السلطان قنصوة الغورى مالكى الإقطاعات بضرورة التعاون فى إعادة الفلاحين الهاربين ، بأسرع ما يمكن ، إلى أماكنهم القديمة ، ولكن الإقطاعيين لم يكن باستطاعتهم أن يوقفوا هرب الفلاحين من قراهم (٢٧) وصار شيوخ القرى بعد ذلك هم المكلفون بإرجاع الهاربين من الفلاحين إلى قراهم . (٢٨)

وكانت هناك أشكال أخرى فى النضال أكثر فاعلية ، وتتمثل فى الصدام المباشر مع الممالك من الفلاحين الذين يحملون إلى العاصمة حبوب محاصيلهم لبيعها ، فكان الممالك يجبرونهم على بيع قمحهم بأسعار زهيدة حيث يأخذونه هم ويتاجرون فيه . ولهذا السبب اندلعت المعارك فى بولاق - الميناء الرئيسى للقاهرة . (٢٩)

وأخيرا كانت الهبات الفلاحية العلنية المعروفة ، وواحدة منها قد حدثت فى ١٤٦٢ م فى قرية طوطية القريبة من القاهرة ، واتخذت لنفسها نظرية ذات صيغة دينية * ، ملائمة لذلك العصر ، وابن تغربردى يسمى هؤلاء المتمردين بالملاحدة (زنادقة) ويشير إلى أن أحدهم قد ادعى النبوة وأن « سواد الناس قد انضموا إليه وأعطوه ثقتهم » (٣٠) وقام الكاشف بالقبض على أربعة عشر ثائراً منهم . ثم بعد ذلك أرسل السلطان : الظاهر سيف ** الدين خوشقدم إلى هذه القرية كبير قضاة المالكية وأمير الخزانة ليتفحصا أسباب هذه النكبة (٣١) ولم يعرف ماذا كان مصير هذه الهبة بعد .

أما ابن إياس فيروى فى حوادث ١٤٨٥ ، عن الاضطرابات التى حدثت بين الجوعى البائسين سواء فى أقاليم الشرقية أو الغربية بسبب سوء المحاصيل والغلاء الفاحش للأسعار ، وبسبب فظاعات الممالك الذين يستليون الناس جيادهم ويغالهم . (٣٢)

* ورد الخبر .. فى قرية طوطية ... أن جماعة زنادقة وفيهم من ادعى الأنوهمية ومنهم من ادعى النبوة وانضم عليهم جماعة كثيرون من أوياش الناس ومالوا إلى معتقدتهم ووقعت منهم أمور شنيعة . حوادث ص ٤١٩ .

** وأن الكاشف أمسك منهم نحو أربعة عشر نفرا فأرسل السلطان إليهم القاضى محيي الدين عبد القادر عبد الوارث والخازندار لينظر فى حقيقة أمرهم ويفعل فيهم مقتضى الشرع حوادث ص ٤١٩

ومن الممكن أن تكون هذه الهبات صدى للحروب الفلاحية الكبيرة التي قادها : المشعشع في العراق والتي تحتل مكاناً هاماً في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في العراق ، ومصادرنا تحتوي على بعض المعلومات عن هذه الحروب ؛ وأهم هذه المعلومات خاص بالتأريخ لسنة ٨٥٩ هـ الموافق ١٤٥٤ - ١٤٥٥ م حيث يروي ابن إياس عن حوادث هذا العام فيقول : ورد * إلينا خبر يعلن أن إنساناً يدعى المشعشع وهو ابن فلاح ... ارتعد من أفعاله وإلى دمشق >> (٣٣)

وانتقلت أخبار المشعشع من العراق إلى سوريا ، فمن أخبار ابن إياس عن ٨٦٠ هـ (١٤٥٥ - ١٤٥٦ م) « لم ** يستطع أحد من العراق أن يقوى فريضة الحج هذا العام خوفاً من المشعشع » (٣٤)

وكانت هذه الهبات تمتلك طبيعة الحركات الفلاحية في العصور الوسطى في الشرق العربي ، حيث كانت العقيدة الشيعية وتصوراتها عن مجئ المهدي المنتظر ، وإقامة العدالة المطلقة . (٣٥)

وكانت هذه الهبات من القوة لدرجة أن السلطان : إينال اضطر للتحالف مع حكام ولايتي : أقيون ، وقارقيون لكي ينجح في قمعها . وبفضل تحالف هؤلاء الحكام الثلاثة في ١٤٥٧ م تمت الهزيمة الساحقة لهذه الهبات التي كانت تتخفى في إقليم البصرة ، وجزر الخليج الفارسي ، حيث نجد ابن تغربردي يغالى في ذلك فيقول إنه كان لديهم ما يزيد عن ثلاثمائة مركب . (٣٦)

وبالرغم من ذلك ، ظلت هذه الحركات - فيما يبدو مستمرة على امتداد السنوات التالية إذ نجد ابن تغربردي ينوه عنها مرة ثانية في ١٤٦٧ م ، وحتى ابن إياس نفسه يشير إليها في ١٥١٣ م (٣٧) .

* وفيه جاءت الأخبار .. بأن قد ظهر شخص يقال له ابن الفلاح المشعشع ، وقد حصل منه غاية الفساد ... وأعيا أمره نائب الشام فانزعج السلطان لهذا الخبر» ابن إياس ص ٢٥١ من الجزء رقم ٩٦ من مطبوعات الشعب : بدائع الزهور ... (وللأسف الشديد لم نجد هذا النص في طبعة الهيئة العامة لهذا الكتاب في المكان المحدد له . المترجم) .

** لم يحج في هذه السنة أحد من العراق ، خوفاً من المشعشع الذي ظهر منه الفساد وقد شاع خبره . ابن إياس ص ٢٣٩ طبعة الهيئة العامة .

والرعايا الفقراء ، المجبرين على دفع الضرائب بأنواعها للحكومة المملوكية ؛
انتظروا طويلا تخفيف هذه الضرائب على يد أعداء ظالمهم . ففي عهد السلطان
قايتباي ، قام المماليك بغزوات على حدود آسيا الصغرى أثناء صراعهم مع أمير
تركماني من سلالة نولجاير يدعى شاه سوار ، وموانئه التابعة ، واستطاع شاه
سوار أن يوجه عدة هزائم للمماليك ، واستولى على جزء من سوريا ، لكنهم بعد ذلك
استطاعوا أن يهزموه تماما . ويصف لنا ابن إياس إحدى حوادث هذا الصراع الطويل
بالمقطع التالي : « كان القتل نصيب كثير من الأمراء حيث تم انكسارهم ثلاث مرات
وأوشك دحرهم أن يكون قريبا ، واهتزت كرامة السلطان أمام قياصرة الشرق الآخرين
، مما دفع الفلاحين لأن يتشوقوا للأتراك .. وكادت * السلطة أن تقلت من يد
الشراكسة » (٣٨)

في نهاية ١٥١٦ عشية غزو الجيش التركي لمصر ، رفض الفلاحون دفع الضرائب
للمماليك ، قائلين « نحن لن ندفع الخراج في مثل هذه الظروف ، إذ أنقم (الشراكسة -
المؤلفة) لم توضحوا لنا ما إذا كانت البلاد في أيديكم أم في أيدي بني عثمان (الترك
- المؤلفة) ونحن ** لانستطيع أن ندفع الخراج مرتين » (٣٩)

* وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن ، بعد ما ذهب عليه من أموال وأرواح ، وقُتل جماعة كثيرة من
الأمراء ، وكُسِر العسكر ثلاث مرات ونهبت برُكهم ، وقد انتهت حرمة سلطان مصر عند ملوك
الشرق وغيرها ، حتى الفلاحين طمعوا في الترك " وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من
سوار ، وكادت أن تخرج الملكة من الجراكسة . ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨ طبعة
الهيئة المصرية .

** وثبت عند الناس أن دولة الأتراك قد آلت إلى الانفراض ... وصار جماعة من الفلاحين إذا
أتاهم قاصد يقولون : ما نعطي خراج حتى يتبين لنا إن كانت البلاد لكم أولابن عثمان ، فنبقى
نوزن الخراج مرتين .. » ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٣٣

هوامش الفصل السابع

- ١ - المقریزی (إغاثة) ص ٤٥٥
- ٢ - ابن إياس ، ص ٢٣٢ : وانظر A. Ю. Якубовский ,
عن الربيع المستخدم في العراق في القرن الثامن : مطبوعات الاستشراق السوفييتي ١٩٤٧ رقم
٤ ص ١٧٢ (بالروسية)
- ٣ - قانون نامة ومصر ص ١٣٠ - ١٣٢ .
- 4 - A . Poliak , Feudalism pp 69 - 70
- ٥ - قانون نامة ومصر ص ١٠١ ، ١٢٢ .
- ٦ - المقریزی (خطط) ١ ص ١٣٨ .
- ٧ - قانون نامة ومصر ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- وانظر A. Darrag , L ' Égypte sous le règne de Barsbay ... p . 62
- ٨ - ابن إياس ص ٤٩
- ٩ - ابن الجعفيان ص ٣ - ٤
- ١٠ - أنظر : R.É.I , année E . Strauss , Prix et salaires à L'époque Mamlouke ,
1949 , 1950 , p . 70 .
- ١١ - القلقشندي ٣ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ والمقریزی (إغاثة) ص ٤٦ .
- ١٢ - كانت الوحدات النقدية الأساسية عند الممالك في مصر ، هي الدينار الذهبي ، والدرهم
الفضي ، الذي كان يتم صكهما في القاهرة والإسكندرية ، وكان الذهب يستخرج من على حدود
الدولة نفسها أما الفضة المستخدمة في النقود فكانت تأتي من أوروبا .
في نهاية القرن الرابع عشر قل نقل الذهب إلى مصر ، ويبدو أن ذلك كان بسبب تزايد الطلب
على المعادن الثمينة في أوروبا نفسها ، ومنذ هذا الوقت صارت مصر تصك كميات كبيرة من " القلوس
" - (نقود نحاسية) وكانت تختلف في الوزن والحجم ، وإصدار الدراهم الفضية قل بشكل ملحوظ .
وإلى جانب هذا ، فإن السلاطين الشراكسة بدأوا بانتظام يقللون وزن الدينار والمدرهم
ويختصرون ما تحتويه من ذهب أو فضة وذلك بزيادة كميات النحاس فيها
Ф. И. Михалевский, *Очерки истории денег и денежного обращения*,
т. I, М., 1948, стр. 127—130;
والقلقشندي ٣ ص ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، والمقریزی (خطط) ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٨٢ ، وابن إياس ٢
ص ٢٧ ، ١٠١ ، ١٥٧ ، ١٩٦ ، ٢١٠ ، ٣٣٩ ، وانظر
(A . Poliak. Feudalism p . 66)

وفي زمن الناصر محمد صار الذهب المصري لايمتلك الصلاية المطلوبة للنقود ، فصار الأهالي يفضلون النقود الأجنبية مرتفعة القيمة ، مثل القروش الأسبانية ، والنقود الألمانية وبشكل أخص اللوكات الفينيسية ، ومحاولات السلاطين : الناصر فرج ، والمؤيد شيخ ، وبارسباي، وجقمق ، إعادة القيمة الكاملة للنظام النقدي لم يتحقق لها النجاح انظر

A . R Van Gennep , Le ducat vénitien en Égypte: son influence sur le monnayage de l'or dans ce pays au commencement du XV siecle - <<Revue numismatique >> t . I , Parism, 1897 .

و أيضاً A. S. Ehrenkretuz , Contribution to the knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages , - BSOAS , vol . XVI , 1954 , pt 3, p . 514

و أيضاً : L . Sobhi, Geld und Kredit: Studien zur Wirtschafts - geschichte Aegyptens im Mittelalter , - JESHO ,

vol . II , 1959, pt 3 , pp. 230 - 234 .

13 - E.Strauss, prix et salaires à l'époque Mamlouke ,p . 50

١٤ - ابن إياس ٤ ص ٣٢٧ .

15 - Silvestre de Sacy . Sur la nature... , p . 185 .

١٦ - الظاهري : ص ١٢٩ .

١٧ - ابن إياس ٢ ص ٣٤ .

١٨ - ابن إياس ١ ص ٣١٥ ، ٢ ص ١٧ ، ٢٢٣ ، ٣ ص ١٣ ، ٣٢ ، وابن تغربردي (حوادث)

ص ٦٧٣ ، . A . Darrag, 1 Égypte sous le règne de Barsbay ... pp . 87 - 88 .

١٩ - القلقشندي ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

٢٠ - ابن تغربردي (نجوم) ٧ (إصدار بوير) ص ٦٣٤

وعن تعسف " الكاشفين " في أداء وظائفهم نجد عند الظاهري : « وغالباً ما كان الكاشفون " يتوجهون ناحية البحر (إلى الشمال) : فواحد يتجه إلى الأقاليم الشرقية ، والآخر يتجه إلى الأقاليم الغربية ، وكان من عادات الكشاف في مناطق النيل ... أن ينتهكوا حقوق المواطنين ، فيعيشون في القرى في أبهة لانظير لها ، وسواء كانوا في الجنوب أو الشمال من إقليم مصر ، تكون حصّة الواحد منهم في الليلة الواحدة تقدر بالآف من الدينارات .. (نفس المصدر ص ١٣٠)

واحتفظت مدافن داوراق (من أقاليم حلب) بنقوش يستدل منها على محاولات الحكومة في الحد من جور السلطات المحلية وذلك عن طريق تنظيم المداخيل . (نقش مؤرخ في ١٤٨٦)

(CIA III , p.95) وفى نقش على المدرسة الشمسية فى طرابلس ويتناول ١٥٠٣ م ، يجرى الحديث عن اضطهاد قواد قلاع طرابلس للمسيحيين القاطنين فى ضواحي طرابلس ؛ العاملين فى أراضي الوقف المخصص للمسجد المكي ، وعلى ما يبدو فإن العمل هنا كان إجبارياً بسبب توقفهم عن أداء الجزية (الضريبة المقررة) والتي كانت على الأرجح مساوية لقيمة الخراج .

CIA II, pp . 81 - 82

21 - A . Poliak, Feudalism ..., p . 25 ' A. Darrag, l'Égypte sous le r'gne de Barsbay ... p. 62 .

ومن المهم ، أن نجد عند ابن الفرات فى (١٣٧٩) أخباراً شنيعة عن تحريم السلطان الصالح صلاح الدين حاجى " حماية " الفلاحين من جانب القائمين بالإشراف على ضياع الأمراء والأجناد المحاربين ، وعلى ما يبدو فإن الحديث هنا يدور عن جباية الابتزازات المقررة ، بواسطة هؤلاء الأشخاص (المشرفون) من فلاحى الأقاليم فى إقطاعات هؤلاء الأمراء المنوه عنهم (٩ ح ٢ ص ٤١٢) .

٢٢ - ابن تغرى بردى (نجوم) ٧ (إصدار بوير) ص ٥٦١

٢٣ - ابن إياس ٤ ص ١٠٤ ، ٣ ص ٦٠ ، ٤ ص ٧٣ ، ٤٠٨

وهناك ابتزازات خاصة يتم جمعها لضمان حياة الفرق المأجورة والتي ظهرت فى مصر فى عهد السلاطين الشراكسة الأواخر انظر

(D' . Ayalon. Gunpowder and firearms in the Mamluk kingdom, p . 71)

وينبغى الانتباه إلى أن جنود المشاة من غير المماليك قد تم التنبؤ عنهم فى نقش على أحد المساجد فى دمشق متعلق بالربع الأخير من القرن الخامس عشر

" Décrets mamelouks " .. I , p. 24 .

٢٤ - انظر - D. Neustadt , The plaque and its effects upon the mamluk army - JRAS, 1946, pt I - II , " Philipps , des letzten Grafen zu Katzenellenbogen, Pilgerreise nach Aegypten und Palastine im Jahre 1433 und 1434 - " Die Vorzeit , ein Taschenbuch für das Jahr 1821" Marburg , 1820 , S . 58 , 60 , 62 ; J . Sauvaget , La poste aux chevaux dans l'empire, des mamelouks , Paris , 1941 , p . 86

٢٥ - ابن تغرى بردى (حوادث) ص ١٠٨ - ١٠٩

٢٦ - نفس المصدر ص ١١٠ وانظر أيضاً (نجوم) ٧ (إصدار بوير) ص ٢١٩

وانظر أيضاً . A . Darrag , L'Égypte sous le règne de Barsbay . pp . 62 - 63 .

٢٧ - ابن إياس ٤ ص ١٠٣ .

٢٨ - قانون نامه ومصر ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

٢٩ - ابن تغريبدی (حوادث) ص ٨٨ - ٨٩ ، وصارت بولاق المرفأ الرئيسی للقاهرة منذ زمن المؤید (١٤٦١) " وصارت تلعب دوراً مشابهاً للفسطاط " .. انظر

A . Darrag , L'Égypte sous Le règne de Barsbay , ... p . 85 .

٣٠ - ابن تغريبدی (حوادث) ص ٤١٩ .

٣١ - نفس المصدر ص ٤٢٠ .

٣٢ - ابن إياس ٢ ص ٢٣٢ .

٣٣ - ابن إياس ٢ ص ٤٥ .

٣٤ - ابن إياس ٢ ص ٥٤ .

٣٥ - انظر ؛

В. В. Бартольд, *Новый источник по истории Тимуридов*, —

«Записки Института востоковедения АН СССР», т. V. М. — Л., 1935,

стр. 21—22; И. П. Петрушевский, *Движение сербедаров в Хорасане*, —

«Ученые записки Института востоковедения АН СССР», т. XIV, М., 1956, стр. 93 и сл.;

وانظر أيضاً ؛

И. П. Петрушевский, *Деревня и крестьяне Средне-*

векового Ближнего Востока в трудах ленинградских востоковедов, —

«Ученые записки Института востоковедения АН СССР», т. XXV, М.,

1960, стр. 212—216;

A . Poliak, Les révoltes populaires en Égypte à L'époque des mamelouks et leurs causes économiques, REI, VIII, 1934, p . 261, وأيضاً ؛

A. Poliak , L'arabisation de L' Orient sémitique -REI , XII 1938. p. وانظر أيضاً ؛

62, - V. Minorsky, Mushasha, - El, Ergänzungsband, Lieferung IV , 1937 ,S. 174 - 177

٣٦ - ابن تغريبدی (حوادث) ص ١٩٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، وابن تغريبدی (نجوم) ٧٠ (إصدار بوير) ص ٤٩٤ .

٣٧ - ابن إياس ٤ ص ٢٥٥ ، وابن تغريبدی (حوادث) ص ٥٤٩ .

٣٨ - ابن إياس ٢ ص ١٣٩ .

٣٩ - ابن إياس ٢ ص ٨٨ .

الفصل الثامن

البدو والعبيد

الفصل الثامن

البدو والعبيد

يتكون قسم رئيسى من سكان مصر ، من قبائل العرب البدويين الرعاة الرحل ، وهجرتهم إلى مصر ، إما من الصحراء العربية أو الصحراء الليبية لم تتوقف على مدى الأزمان الغابرة^(١) وقد أبقي البدو على تنظيمهم القبلى ، القائم على أصل القبيلة والمعتمد على التفاوت فى درجاتها ، وكانت عملية تجنسهم وتأقلمهم مع الأهالى الأصليين ، العاملين بالفلاحة على امتداد وادى نهر النيل ، تتم ببطء وغالبا كان البدو يخلّون بالعلاقات المساواة بينهم وبين الفلاحين ، فيهاجمون قراهم ويفسدون محاصيلهم وطالما سعت الحكومات إلى القضاء على مثل هذه الأوضاع ، وحاولت جاهدة بالأساليب الإجبارية أحيانا أن تحول هذه القبائل المحاربة إلى سكان حضريين ففي ١٢٦٣ - ١٢٦٤م أرسل الظاهر بيبرس إلى قبائل الخفارة والسلايم فى مصر العليا من يناشدتهم العمل بالزراعة^(٢) .

وكما قدمنا سابقاً ، فإن البدو كونوا فرقا من الخيالة فى جيش مصر ، وفى عهد صلاح الدين كانت فرق قبيلة واحدة وهى الجزام - يبلغ عددها سبعة آلاف رجل ، وكان هناك الكثير من فرسان قبيلة القنانات التى أتت من فلسطين الجنوبية بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان فى ١١٥٣ م ، واستوطنت دمياط وضواحيها^(٣) وفى عهد الصالح أيوب اضطر بدو الفيوم فى ظروف حرجة إلى تقديم أربعمئة* فارس ، كان بينهم ١٦٧ فارسا من بنى عجلان ، ٣٣ فارسا من بنى سمالوس ، ٢٠٠ فارس من بنى كلاب^(٤) .

وشيوخ البدو كانوا أصحاب نفوذ واسع إلى أبلغ الحدود ، فهم يحملون لقب الأمير ، وكان البدو العاملون فى الجيش يمنحون الإقطاعات التى تقع عادة فى

*والذى هو مقرر على عربان البلاد بالفيوم إذا رسم بخروجهم فى الخدمة لما يعرض من المهام أربعمئة فارس ، النصف من ذلك باسم بنى عجلان وبنى سمالوس ، مائتا فارس تفصيله؛ بنو عجلان خاصة من عشرة أسهم مائة وستة وستون . وثلاث بنو سمالوس عن سهمين ثلاثة وثلاثون فارساً والنصف الثانى باسم بنى كلاب النابلسى ص ١٧٧ - ١٧٨

أطراف البلاد وهذا الوضع ظل معمولاً به في عهدي السلالتين المملوكيتين^(٥) ومن المعروف أن عدد إقطاعات البدو تزايد في عهد السلطان الشركسي الأول : الظاهر برقوق ، إذا إن فرق البدو قامت بدور فعال عندما كان يصارع من أجل السلطة^(٦) وصار البدو والمتحولون إلى الاشتغال بالزراعة يدفعون نفس الضرائب التي يدفعها أهالي مصر الأصليين المشتغلين بالزراعة^(٧) ويقول ابن مماتي ، إنه يوجد في أقاليم مصر الشرقية والغربية أراض ، تقوم بفلاحتها القبائل البدوية المحاربة ، وعلى الأرجح ، فإنه يقصد تلك القبائل التي تحضرت ، وتحولت إلى الزراعة وصارت مجبرة على دفع الخراج بمقدار ما تحوز من مساحات الأرض وليس بمقدار ما تعطيه هذه الأرض من إنتاج^(٨) .

وكان البدو المالكون للإقطاعات شائهم في ذلك شأن كل المقطعين ، مجبرين على دفع قسط من ريعهم للحكومة ، ففي ١١٧٢م بلغ العشر المدفوع من بدو الجزام مليون دينار^(٩) .

أما البدو الرحل الذين لم ينضموا إلى الجيش ، فكانوا مجبرين على دفع مبلغ محدد يسمى الزكاة^(١٠) ، وعلى كل ، فإن وضع البدو بصورة عامة كان أقل قسوة من وضع الفلاحين .

فالمقريزي يشير مرة واحدة إلى مساهمة البدو في تشييد التحصينات الدفاعية^(١١) ، أما عملهم في السخرة ، فلم يتناوله أحد من المؤرخين .

وبالرغم من ذلك ، كان البدو هم القوة الأساسية في الهبة الشعبية الواسعة النطاق في ذلك العهد والمعروفة بانتفاضة ١٢٥٣ م ، وهذه الانتفاضة ، بدأت في أسبوط بين البدو الذين كانوا يعملون لدى الأيوبيين وكان على رأسها الأمير حسن الدين شيخ قبيلة صليب المنحدرة من عرب الشمال ، والتي استقرت في مصر العليا في بداية القرن الثالث عشر^(١٢) ويقول المقريزي إن البدو قد رفضوا العمل لدى المماليك ؛ لأنهم اعتبروهم « عبيداً سابقين » وصاروا يضعون العراقيل في وجوه جباة الضرائب المماليك ، ويقيمون العلاقات مع الناصر يوسف الأيوبي حاكم دمشق في ذلك الوقت ، حاثين إياه على الهجوم على مصر^(١٣) ومن الممكن الزعم هنا بأن السبب الرئيسي لهذه الهبة يكمن في تكثيف استغلال البدو بسبب تغير السلالة الحاكمة .

وانضم البدو في البحيرة والجيزة والفيوم إلى فرقة الأمير : حسن الدين ، بل إن بدوا من أقاليم مصر الأخرى انضموا إلى هذه الانتفاضة ، ووفقا لما يقرره المقرئ : بلغ عدد فرسان البدو ١٢٠٠٠ فارساً ، أما المشاة فكان عددهم لا يقدر ، لكن ابن عبد الظاهر يقدر عدد الفرسان والمشاة (١٣٠٠٠) مشيراً إلى أنه قد عرف هذا من السلطان : المعز أيك نفسه (١٤) وطبقاً لما يرويه المقرئ ، فإن السلطان وجه إلى

المتمردين خمسة آلاف مقاتل على رأسهم الأمير : أقطاي ، لكن ابن عبد الظاهر يقرر أن عدد المماليك كان لا يزيد على ألفي رجل فقط وكانوا تحت قيادة السلطان نفسه (١٥) .

وانهزم البدو في مصر العليا واستولى المماليك على الأسرى والمواشي واتجهوا بعد ذلك إلى الشمال حيث هزموا بدو الغربية والمنوفية ، أما الأمير حسن الدين نفسه فأوقعه المماليك في قبضتهم بالحيلة والغدر عند بلبيس مقر قيادة السلطان : المعز أيك وأعطاه السلطان وعداً بالعفو عنه وعن أنصاره المستسلمين ومنحه إقطاعاً بالرغم من أنه أعدم ٢٦٠٠ من أنصاره ، وأما عن حسن الدين نفسه فهناك روايات عن مقتله بيد السلطان نفسه ، ورواية أخرى تقول إنه ألقى به في السجن ، بقلعه الإسكندرية (١٦) .

وحالما حطم السلطان : المعز أيك هبة البدو ، أمر بزيادة الضرائب المقررة عليهم ، وبزيادة المخصصات الإضافية التي يقدمها البدو إلى موظفي السلطان . لقد صاروا (البدو-المؤلفة) أذلاء* وصار وضعهم ينحدر من سيئ إلى أسوأ فتقلص عددهم (١٧) ورغم ذلك ، فإن هناك هبتين واسعتين ، قام بهما بدو مصر العليا في بداية القرن الرابع عشر ، وكانتا على ما يبدو نتيجة لسياسة التطويق الضرائبي ، كانت الهبة الأولى في ١٣٠١ - ١٣٠٢ م - واشترك فيها البدو سواء كانوا رحلاً أم مقيمين (١٨) .

يقول ابن دويدار - مؤرخ العهد المملوكي الأول - إن البدو قد استولوا على كل

★ وأمر المعز بزيادة القطيعة على العرب وبزيادة القود (ما يأخذه السلطان من خيل وإبل وحيوان - المترجم) المأخوذ منهم ومعاملتهم بالعسف والقهر ، فذلوا وقلوا حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال في وقتنا - المقرئ سلوك ١ ح ٢ ص ٢٨٨

مصر العليا ، ولم يسمحوا للأمراء والمحاربين بإمكانية تحصيل مداخيلهم من إقطاعاتهم التى يحوزونها ^(١٩) ولهزيمة هذه الهبة ، اشتركت قوات كبيرة من الممالك برئاسة ، أربعة وعشرين أميراً من الأمراء المائة ، وكانت الخطة المعدة لهزيمة هذه الهبة محكمة للغاية ، فالممالك توجهوا ناحية الجنوب على طرق مختلفة ، وظهروا فجأة فى الصعيد من الغرب والشرق دون توقع ، كان ذهابهم من الجيزة وأطفيح ، ونتيجة لهذه المعارك ، قتل عشرة آلاف شخص من متمردي البدو ، ووقعت النساء فى السبى ، وتم الاستيلاء على أعداد هائلة من قطعان الماشية ، وما يزيد على أربعة آلاف حصان ، وما يزيد على مائة ألف من الأغنام والجمال ، وفى رواية أخرى ما بين ١٢٦٠٠ إلى ٣٢٠٠٠ رأساً من الأغنام والجمال ^(٢٠) .

وكانت الهبة الثانية للبدو فى ١٢١٣ - ١٢١٤ م وانتهزت أيضاً على يد الممالك ، وتم تقييد الكثير من البدو بالسلاسل وسوقهم إلى القاهرة ، حيث ألقى بهم فى السجون ، وفيما بعد تم استخدامهم فى إقامة السدود .

وما يستحق الانتباه هنا ، هو أن ما نعرفه عن هذه الهبة البدوية ، جاء من أحد المشتركين فيها ، ويسمى مقدار * بن شماس ، الذى تحول إلى جانب الممالك وصار يمتلك ثروة كبيرة ، ومعروف أن السلطان قد عفا عنه وأعطاه كمية من النقود والحبوب وأقام ابن شماس هذا هو وأهل بيته فى إقليم يزرع بالرى فى (النحريرية) على قناة الاسكندرية حيث اشتغل بالزراعة ^(٢١) .

فى ١٣٥٣ م . نشبت هبة أخرى فى صعيد مصر ، قامت بها قبيلة عرك بقيادة الشيخ ابن أحذب ، وفيما يبدو ، فإن الفلاحين اشتركوا فى هذه الهبة ، ولكن فرق الممالك حطمت العصاة واستولت على عدد كبير من الأسرى ، وعدد من المواشى ، وتيسر لبعض البدو الهروب خارج الحدود المصرية فى بلاد الزنج وصار محرماً على * وقبض على مقدار بن شماس وكان قد عظم ماله حتى بلغ عدد جواريه أربعمائى جارية وعدد أولاده ثمانون .. وقُتل عدد كبير من العربان ، وعاد فحبسه السلطان مقدار مدة ثم أخرج عنه ، وأنعم عليه بمال وغلل ، وكتب برد أهله وأولاده وعبيده إليه وأنزله بالنحريرية التى أنشأها على خليج الإسكندرية فأقام مقدار هناك وأنشأ البيوت والسواقي والدوايب وعمر تلك الجهات وبقي عقبه من بعده بها . المقرئى . سلوك ٢ ص ١٢٩

الفلاحين أن يركبوا الخيل وأن يحملوا الأسلحة " أما البدو فكان عليهم أن يعملوا إجبارياً بالفلاحة (٢٢) .

ولم تتوقف هبات البدو بالرغم من ذلك طوال الأزمنة التالية ولكن هذه الهبات لم تحظ باهتمام المؤرخين كمثيالاتها ؛ حيث لا نملك إلا القليل من معطيات بعض المؤرخين.

ففى سنة ١٣٧٩م . ، استولى بدو يبلغ عددهم خمسة آلاف رجل على مدينة البحيرة الرئيسية (دمنهوور) وبذل المماليك جهوداً حربية كبيرة ، كى يستعيدوها مرة أخرى. (٢٣) وفى بداية حكم المماليك الشراكسة فى ١٣٨٩م . حدثت اضطرابات واسعة فى صعيد مصر ، قام بها بدو الصعيد بقيادة قبيلة الخفارة المنوه عنها سابقاً. (٢٤) وفى ١٣٩٦ استولت الخفارة أيضاً مع قبيلة بنى أحمد على مدينة أسوان لبعض الوقت (٢٥) وفى ١٤٣٨ - ١٤٣٩ تظهر مرة أخرى هبات قبيلة الخفارة (٢٦) ويتحدث ابن إياس* عن هبات عرب البحيرة واستيلائهم على الحبوب فى ١٤٠١ - ١٤٠٢ و ١٤٦٨م . (٢٧) ويشير ابن تغريدى إلى هبات بدو قبيلة لبيد فى البحيرة فى ١٤٦١ ، ١٤٦٢م . (٢٨) وتشير أيضاً كتابات المؤرخين لانتفاضات البدو فى الصعيد فى سنوات ١٤٤٨ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦٧ ، وفى ١٤٧١ - ١٤٧٢ تظهر مرة أخرى انتفاضات البدو فى الشرقية وفى ١٤٧٥م (٢٩) تظهر فى الجيزة والشرقية ، وفى الصعيد فى ١٤٨٧م تظهر أيضاً انتفاضات لم تستطع المماليك المرسله لإخمادها من قبل السلطان لفترات طويلة (٣٠)

★ ويقول ابن إياس .. وأنكسر شيخهم ابن الأحب ، وصار الأمير شيخو يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول دكيك (!) حتى بنى من رؤوس العريان مساطب وموائد على شاطئ البحر ... ثم إن السلطان نادى فى القاهرة بأن الفلاح لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا . - طبعة دار الشعب ص ١٧٢ ح ٩٠ من سلسلة كتاب الشعب .

وردت عند ابن خلدون فى العبر ح ٤٥٠ كالاتى : وفى أثناء هذه الفتن كثر فساد العرب بالصعيد وميثهم وانتهبوا الزروع والأموال وتولى كبر ذلك الأحب ، وكثرت جموعه فخرج السلطان فى العساكر سنة أربع وخمسين ، فهزم العرب واستلحم جموعهم وامتلات أيدي العساكر بغنائمهم .. وأسر جماعة منهم فقتلوا ، وهرب الأحب حتى استأمن بعد رجوع السلطان فأمنه ، على أن يمتنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح ويقبلوا على الفلاحة والله أعلم .

أن تقضى عليها .

فى سنة ١٤٩٨ م قامت قبائل ماران وجويلى فى البحيرة والغربية وبهبات ضد انتزاع الخراج منهم مرة أخرى ،

ويخبرنا ابن اياس أن السلطان المظاهر قنصوه توجه لإخضاع هولاء البدو وقتل الكثير من أهالى البحيرة على أيدي فرق المماليك من جراء ذلك ^(٣١) وشبيه بهذه الهبات والتمردات ما كان يحدث فى سوريا ^(٣٢) . وهبات البدو وتمرداتهم وانتفاضاتهم لم تتوقف حتى بدايات القرن السادس عشر ^(٣٣) فبعض من قبائل البدو عرضوا مساعداتهم على الغزاة الأتراك ، وسلموا للسلطان سليم الأول ، طومان ^(٣٤) . باى آخر سلاطين المماليك الشراكسة .



وكان وجود العبودية ملمحاً مميزاً فى البنية الاجتماعية فى مصر ، فى العهد الأيوبي والملوكي شأنها فى ذلك شأن البلاد الأخرى فى بلاد المشرق فى العصور الوسطى . وكان المصدر الرئيسى لهؤلاء العبيد حتى نهاية القرن الثالث عشر هو الحروب الصليبية ؛ حيث كان العبيد يجلبون من سوريا ويؤخذون بمثابة غنائم مباشرة من المعارك الحربية أو يتم شراؤهم من الأسواق . فمعروف أنه ، على سبيل المثال ، تم بيع الأسرى المسيحيين بعد معركة حطين فى دمشق نظير ثلاثة دنانير للعبد وأحياناً كان الأسير يباع بزواج من الصنادل ^(٣٥) وبعد الاستيلاء على القدس تحول إلى العبودية ستة عشر ألف أسير ، ووزع صلاح الدين الكثير منهم على أمرائه المحاربين ^(٣٦) وفى ١١٩٧ م حملت المراكب العائدة من قليقة ٥٥٠ أسيراً ^(٣٧) . ويتحدث أبو شامة عن معركة مع الصليبيين فى غزة وعسقلان ١٢٤٤ م فيقول إنه - بعد المعركة - تم جلب كل الأسرى إلى القاهرة ^(٣٨) . والكثير من الصليبيين ظل أسيراً فى مصر بعد معركة المنصورة وتم جلب ١٢٥٠ أسيراً إلى مصر نتيجة لإحدى الحملات التى توجهت إلى أنطاكية واستولت عليها تماماً ^(٣٩) . ويحكى العيني وهو أحد مؤرخى العصر المملوكي المتأخر - عن العهد المملوكي فيقول إنه بعد الاستيلاء على عاصمة الإمارة وخاصة مدينة أنطاكية باع التجار المسلمون والمحاربون العبد بمبلغ هزيل جداً ^(٤٠) . ويقول هذا المؤرخ ويتطابق معه المقرئى - إن السلطان : " المظاهر بيبرس قد وزع على جيشه عددا من الأسرى العبيد ^(٤١) ومن الطبيعى أن يتناقص تدفق العبيد على مصر ، بعد إجلاء الصليبيين ، وتمكن بعض العبيد من الهرب من سوريا إلى أرمينيا الصغرى ، نتيجة للغزو المغولى ، ولكن عددهم كان قليلاً جداً ^(٤٢) .

وبعد الاستيلاء على جزيرة قبرص في ١٤٢٦ م وقع في الأسر كثير من القبرصيين ، وتم بيعهم كعبيد في أسواق القاهرة ^(٤٤)

وعلى امتداد هذه الفترة الخاضعة للدراسة ، كان العبيد يجلبون من الدول المجاورة في أفريقيا وفي مقدمتها النوبة ، ومنذ الغزو العربي كان القياصرة النوبيون الذين أعلنوا خضوعهم إلى مصر قد أخذوا على عاتقهم أن يرسلوا ٣٦٥ عبداً في كل عام لحكام مصر ، وبشرط أن يكونوا من الرجال والنسوة الأصحاء ^(٤٥) . لكن هذا التعهد لم يكن ينفذ دائماً بانتظام ، لأن بعض الحكام النوبيين أعلنوا استقلالهم وتعدوا على الحدود المصرية في ذلك الوقت . وكان السلاطين المصريون في مثل هذه الحالات يرسلون فرقاً حربية إلى النوبة ، وقد سبق الكلام عن حملة طوران شاه في ١١٧٣ م التي كان أحد أهدافها ، إعادة تبعية النوبة إلى مصر ، ولم يكتف طوران شاه بتحقيق هدفه ، ولكنه جلب من المدينة النوبية "أبريم" ٧٠٠ فرداً كان من بينهم الأطفال والنساء ، وحولهم جميعاً إلى عبيد ^(٤٦) . وتحققت حملات مشابهة إلى النوبة في عهدي:الظاهر بيبرس وقلالون ^(٤٧) :

وقائمة " المكوس التي تم إلغاؤها في عهد السلطان : الناصر محمد أي في ١٣١٥ - ١٣١٦ م . بالرغم من عدم دقتها تم التنويه فيها عن الضريبة التي كان يجب دفعها عن كل عبد أو أمة - ينزل في أي قصر ، أو في أي خان بمجرد هبوطه من المراكب النوبية ^(٤٨) .

وعلى الأرجح ، فإن العبيد الذين كانوا يصلون إلى مصر من النوبة ، لم يكونوا فقط تنفيذاً للمعاهدة المصرية النوبية أو كانوا يجلبون كغنائم حرب ، بل إنهم كانوا يصلون إلى مصر أيضاً عن طريق التجارة - خاصة تجار العبيد وهذا هو ما يقصده المقرئ في قوله عن دفع ضريبة محددة عن كل عبد ومن الممكن أن يكون الحديث الذي جرى عند ابن الفرات في أخباره عن ١٣٩٠ م وقوله إن السلطان الظاهر برقوق وجه إلى مصر العليا عدداً من الأمراء بهدف إحضار العبيد والخيول ؛ كان متعلقاً بالصفقات التجارية مع النوبيين ^(٤٩) وتم جلب الممالك العبيد أيضاً من غرب أفريقيا ، ففي أخبار ابن تغريبردي عن ١٤٥٤ م نجده يقول على سبيل المثال « ووصلت

إلى القاهرة قافلة من المغرب ، كان بها * عدد من البضائع تضمنت العبيد والخيول وأشياء أخرى كثيرة ، كى تباع للمصريين عن طيب خاطر^(٥٠) وهناك حقائق جديدة بالذكر تتعلق بالتنويه بالعبيد ، حيث نجد مؤلفى العهد المملوكى الأخير يستخدمون لفظ العبيد للدلالة على العبيد السود^(٥١) .

وهنا من الممكن القول ، بأن الدول الإفريقية ظلت تقوم بالدور الرئيسى - كمصدر لتوريد العبيد إلى مصر من القرن الرابع عشر حتى القرن الخامس عشر .

أما عن وجود العبودية التعاهدية** فى العهدين الأيوبي والمملوكى فلا توجد فى مصادرنا أية معلومات عنها - وفيما يبدو ، فإن هذا الشكل من العبودية كان غير شائع فى مصر شأنها فى ذلك شأن الدول المجاورة ؛ ولذا ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الظروف التى تمنع تماماً اقتناء المسيحيين خاصة القبط منهم للمسلمين كعبيد^(٥٢) .

كان البدو أحياناً يتحولون إلى عبيد . هذا ما نجده عند ابن إياس وهو يتحدث عن مصر العليا فى ١٤٨٧ م ، بعد هزيمة قبائل البدو المتمردين المعروفين بالأحمديين (بنى أحمد) فيقول إن جميع العصاة قد هلكوا تقريباً ، لكن نساءهم وأطفالهم ؛ تم أسرهم ونقلوا إلى القاهرة حيث بيعوا كعبيد سود زنجيين^(٥٣) .

وقد نوهنا سابقاً بمجموعة من الفلاحين حولها السلطان : المؤيد شيخ إلى عبيد^(٥٤) . وفيما يبدو فإن عدد العبيد ذى الأصل المحلى ، كان قليل الأهمية على امتداد الفترة محل البحث حيث كان أغلب العبيد يأتون من خارج البلاد .

والطبيب عبد اللطيف البغدادي ، هو الوحيد الذى يكتب عن فترة المجاعة المهلكة التى امتدت من ١٢٠٠ إلى ١٢٠٢ م حيث يقول عن هذه الحوادث بصفته شاهد عيان لقد كان الناس البؤساء يسعون لإنقاذ أنفسهم وأولادهم بعرض أنفسهم للبيع بكامل

* قدم إلى القاهرة ركب المغاربة وصحبتهم تقدمه هائلة من صاحب الغرب فأنزلهم السلطان بالميدان من تحت القلعة وكانوا جميعاً كثيرين للغاية ومعهم من أنواع المتجر كالرقيق والخيول والأقمشة وغير ذلك أشياء كثيرة ونفق سوقهم على المصريين وباعوا أحسن بيع ، ابن ، تغريبدى ، حوادث ص ٢١٤ .

** العبودية نظير الدين — المترجم .

رغبتهم ، فلقد توسلت إلى إحدى الأمهات أن تشتري ابنتها * وكثير من هؤلاء العبيد تم نقلهم الى العراق وخراسان والبلاد الأخرى (٥٥) .

وكان العبيد عادة يشتغلون كخدم في قصر السلطان أو في قصور الأمراء والتجار (٥٦) وعند رؤساء القبائل البدوية ؛ وهكذا استطاع البدوي الثرى - المنوه عنه سابقا مقداد بن شماس أن يمتلك أربعمئة أمة (٥٧) وكان العبيد، المتقنون لفنون الغناء ، والرقص يثمنون بسعر خاص . ولم يكن عددهم بالقليل حيث يقول المقرئى إن عرس بنت السلطان : الناصر محمد التي كانت تتزوج من ابن أحد الأمراء - كانت تغنى به عشرون فرقة تتكون من عبيد السلطان وعبيد الأمراء . (٥٨)

وفي زمن بناء القلعة في عهد صلاح الدين - كانت هناك أعمال غاية في القسوة (مثل قطع الرخام، وصقل المرمر ، وتسوية الأحجار الكبيرة ، وحفر الخنادق ... الخ) وكان الذين يقومون بها فقط ، هم كما يقول ابن جبير** « الأسرى الرومانيون الذين كان عددهم لا يعد ولا يحصى ، ويختتم (٥٩) ابن جبير كلامه بقوله : وممنوع أن يستخدم في مثل هذه الأعمال ، العمال الآخرون " وهؤلاء العبيد هم الذين استخدموا فيما بعد ، في بناء الحصون الدفاعية في عكا عشية حصارها (٦٠) واستخدم صلاح الدين أيضا الأسرى في تحصين القدس (٦١) وتم استخدامهم بعد ذلك في أربعينيات القرن الثالث عشر في بناء مدرسة في القاهرة ، وإقامة قصر في جزيرة الروضة. (٦٢) وساهم ما لا يقل عن ثلاثمئة من الأسرى في بناء مستشفى القاهرة في عهد السلطان قلاوون بين (١٢٨١ - ١٢٨٥ م (٦٣) .

واستخدم العمل العبودي أيضاً في بناء الاقتصاد الزراعي ، فمعروف أنه في زمن

* وسألتني امرأة أن اشتري ابنتها كانت جميلة دون البلوغ، بخمسة دراهم فعرفتني أن ذلك حرام ، فقالت خذها هدية ، وكثير ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيلهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك ، البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٦٧ طبعة سلامة موسى .

** والمسخرون في هذا البنيان (قلعة صلاح الدين - المترجم) والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحقق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول تقرا في الصخر عجايبا ... هم من الأسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتن في ذلك البنيان أحد سواهم . رحلة ابن جبير ص ٥١ .

الحملة الصليبية الثالثة ، وعندما قُتل الامبراطور الألماني : فردريك الأول باريباروسه ، وصارت قواته المنهوكة تكابد الهزيمة على الأراضي السورية وقع عدد كبير من هذه القوات في الأسر وبيعوا كعبيد في أسواق حلب . حيث يخبرنا المؤرخ الحلبي للقرن الثالث عشر : كامل الدين ، فيقول "لا يوجد في هذه الأقاليم فلاح ، ليس تحت تصرفه ثلاثة أو أربعة من الأسرى الألمانين" (٦٤) .

والملاحظة غير المباشرة للمقريزي تؤكد الافتراض بأن هؤلاء العبيد من الأسرى هم الذين كانوا يعملون ، في هذه الفترة في اسطبلات السلاطين وأمرائهم (٦٥) وكما أشرنا فإنه في بداية الأربعينيات من القرن الرابع عشر تم بناء حظيرة كبيرة جداً بالقرب من القاهرة ، كانت تابعة للسلطان : الناصر محمد شخصياً ، حيث استورد لها الأغنام الأصلية والثيران البلقاء والأوز والطيور والبهاائم المختلفة التي صارت تجلب إليها من جميع أقاليم مصر ومن النوبة واليمن ومن البلاد الأخرى . وبعد موت السلطان تبين أن عدد النعاج من النوع الجيد في هذه الحظيرة بلغ ٣٠ ألف رأس ، ذلك خلاف إنتاجها الذي لا يحصى ولا يعد "وقلده" * في ذلك باقى الأمراء ، حيث صار لكل أمير حظيرته ومرعاه بكل أقاليم مصر العليا والسفلى (٦٦) ويكمل المقريزي : أن كل القائمين بالعمل على رعاية هذه الحيوانات كانوا من العبيد الأسرى المسيحيين (٦٧) وكان العبيد يقومون بالعمل في ضياع السلطان علاوة على الأعمال الأخرى (٦٨) ويعطينا ابن إياس إمكانية الافتراض بأن عمل العبيد استخدم أيضاً في مزارع قصب السكر المملوكة لأعيان ووجهاء البلاد (٦٩) .

وكانت أوضاع العبيد القاسية سبباً في محاولاتهم المتكررة في الهرب ويؤكد المقريزي هذا بقوله « كان هناك رجل يدعى "ابن البطونى" ** تخصص في قنص

* وعن السلطان الناصر أيضاً بجمع الأغنام وأقام لها خولة ، وكان يبعث لها في كل سنة الأمير: أفيجا في عدة من الممالك السلطانية ليكتشف المراحات من قوص الى الجيزة ويأخذ منها ما يتميز من الأغنام ، وعمل لها السلطان حوشاً بقلعة الجبل وأقام لها خولة نصارى (من الأسرى) وعننى أيضاً بالوز وأقام لها عدة من الخدام والجواري وجعل لها جاير بحوش الغنم ، فبلغت عدة الأغنام التي تركها بعد موته نحو الثلاثين ألف سوى أتباعها ، فاقتدى الأمراء به وصارت لهم أغنام عظيمة جداً في عامة أرض مصر قبلها وبحورها ، المقريزي سلوك ٢ ح ٢ ص ٢١٥

** وابن البطونى ، كان هذا الرجل يأخذ على رد العبيد والجواري الأبقين ضريبة ، ويقوم من تحت يده رجالاً على الطرقات لرد الهاربين المقريزي سلوك ٢ ح ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

العبيد الهاربين - فى بداية القرن الرابع عشر وكان تحت إمرة هذا الرجل أناس يطلقهم فى الشوارع (القاهرة - المؤلفة) بهدف استرجاع العبيد الهاربين^(٧٠) وكان مالكو العبيد مجبرين على دفع ضريبة خاصة إلى الخزانة ، تم إلغاؤها فقط فى الإصلاح الضرائبى الذى كان فى عهد السلطان الناصر محمد .

وعن مقاومة العبيد ، يقرر المقرئى حقيقة اشتراكهم فى هبة^(٧١) البدو ١٢٥٣م . وساهم العبيد السود العاملين فى قصر السلطان مع الموظفين الآخرين فى القصر فى هبة القاهرة ١٢٦٠م . بهدف إسقاط الحكومة السنية وتخصيص إقطاع من الأرض لكل المتمردين ؛ وكان الشيعة الذى يسمى قرنى على رأس هذه الهبة واستطاعت قوات السلطان القبض على جميع العصاة وإعدام الكثيرين منهم^(٧٢) .

وفى منتصف القرن الخامس عشر ؛ اشتعلت فى إقليم الجيزة ، حيث مراعى السلطان ومزارع قصبه ، أوسع هبات* العبيد السود انتشاراً ، فقيما يبدو كان

★ وردت هذه الهبة عند السخاوى فى كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك كالاتى :

وقعت فى هذه السنة حادثة غريبة جداً ، وهى أن جماعة كثيرين من العبيد اجتمعوا أيام الربيع فى بر الجيزة ونصبوا منهم سلطاناً ضربوا له الخيمة وفرشوها بالبسط ووضعوا فيها دكة إلى غير ذلك مما يجعل للملوك فى الحركات والسكنات ووسطوا جماعة ممن خالفهم من العبيد ، وولى سلطانهم واحداً منهم مملكة الشام وآخر مملكة حلب واتفق أن عبداً للملوك من ممالك السلطان هرب وخرج سيده فى طلبه ، فدل عليه . فلما وصل إليهم استأذن له فى الدخول على قاعدة الرؤساء فأذن له ودخل فرأى هبة مهولة بحيث خاف ، فلما مثل بين يدي ذلك العبد قال له ما الذى تطلب أيها الملوك ، قال أطلب عبداً لى هنا ودخل فى عسكركم فقال لمن هو واقف فى خدمته احضروا لهذا عبده فأحضره له وهو فى الحديد فقال له أهذا عبدك قال نعم قال فوسطوه قطعتين فتزايد خوف سيده واستأذن فى الرواح فقال له ذلك السلطان كم ثمن عبدك قال اشتريته بخمسة وعشرين ديناراً فرفع عند ذلك طرف مقعد جلوسه ؛ فاذا كوم ذهب فعد له القدر الذى عينه وقال له ؛ خذ هذا القدر فاشتر لك به عبداً بدله فلما قبضها طلب أن يرسل معه من يوصله إلى موضع مأمنه فوجه معه شخصاً فأوصله إلى الخيام المنصوبة لأجل الربيع ثم فارقه ، وقدم ذلك الملوك فطلع إلى السلطان وأخبر بذلك فقال : أهل يشوشون على أحد من الرعية فقال لا ، فقال خلهم يقتل بعضهم بعضاً ، ورأى أن فعلهم ذلك على وجه المزاح واستهون أمرهم . قلت ولولا ما فيه من القتل لكان أمراً سهلاً مع ما عندى من التوقف فى أمر سيد العبد ، لكن وهكذا حكى العيني وقال : إنه شئ ما اتفق مثله قط ولا سمع ملك بمثله قط وسكت صـ ١٢٦ . المترجم

المتوردون يهدفون إلى الاستيلاء على السلطة في كل من مصر وسوريا ، ويخبرنا
السخاوى ، معاصر هذه الهبة في كتابه تحت ١٤٤٦ م بالآتي : حدث شئ في غاية
الغربة هذا العام ، إذا إن عددا كبيرا من العبيد تجمع في الربيع في إقليم الجيزة
واختاروا من بينهم سلطانا سموه الشاطر .. وهذا السلطان عين واحداً من العبيد
آمرا على دمشق وآخر لحلب « وهؤلاء الثائرون امتلكوا ، فيما يبدو ، القدرة على تنظيم
أنفسهم؛ حيث نجد السخاوى يعد ذلك يعدد قواتهم . (٧٣)

هوامش الفصل الثامن

- ١ - تستخدم المصادر مصطلح عرب للدلالة على القبائل الغربية البدوية الآتية من الشواطئ المستعربة شأنها شأن القبائل الشرقية .
- ٢ - ابن عبد الظاهر ص ٢٢٢ ، والمقرئى (سلوك) ح ٢ ص ٥٢٠ ووصف قبيلة الخفارة كان بمناسبة الحديث عن الظاهر برقوق .
- ٣ - المقرئى سلوك ١ ح ص ٤٧ ، ٧٥ ، وانظر أيضاً "Extraits des historiens arabes" p . 449
- ٤ - النابلسى ص ١٧٧ - ١٧٨
- ٥ - انظر على سبيل المثال : القلقشندي ٣ ص ٤٥٧ ، ١٢ ص ١١٢ - ١٣٥ ، ١٣ ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٩٨ - ١٩٩ ، وابن خلدون ٥ ص ٥٠٣ ، وابن دقماق ٥ ص ٢٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ .
- ٦ - ابن الفرات ٩ ح ١ ص ٢٢٣ .
- 7 - A. Poliak, les révoltes populaires en Egypte ... ,P. 258
- وقانون نامة ومصر ص ١٠٨ .
- ٨ - ابن مماتى ص ١٥ .
- ٩ - المقرئى (سلوك) ١ ح ١ ص ٤٧ ، وعن وظائف البدو عند الماليك انظر: ابن دويدار ص ١١٤ - ١١٧ وابن خلدون ٥ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .
- ١٠ - أحياناً ترد هذه الأتوة فى المصادر بمصطلح : عداد أو قطعة .
- ١١ - المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ٤٨ - ٤٩ .
- ١٢ - ابن خلدون ٥ ص ٣٧٥ والقلقشندي ٤ ص ٦٨
- ١٣ - المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٣٨٧
- ١٤ - ابن عبد الظاهر ص ٨٠ - ٨١ والمقرئى سلوك ١ ح ٢ ص ٣٨٧ .
- ١٥ - « ص ٨١ » « » « » « » « ص ٣٨٧ .
- ١٦ - « ص ٨١ » « » « » « » « ص ٣٨٨ والقلقشندي ٤ ص ٦٨ ، وابن خلدون ٥ ص ٣٧٥ .
- ١٧ - المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٣٨٨ ، وعن الضرائب من البدو انظر النويرى ٨ ص ٢٠١ .
- ١٨ - المقرئى (سلوك) ١ ح ٣ ص ٩٢٠
- ١٩ - ابن دويدار ص ٦٣ .
- ٢٠ - المقرئى (سلوك) ١ ح ٣ ص ٩٢١ - ٩٢٢ ، وأنونم ص ١٠٧ ، وابن دويدار ص ٦٣ - ٦٤ ، وابن خلدون ٥ ص ٤١٥ ، وابن إياس ١ ص ١٥٨ - ١٥٩

- ٢١ - المقرئى (سلوك) ٢ ج ١ ص ١٢٩ ، وابن خلدون ٥ ص ٤٢٧ .
- ٢٢ - ابن خلدون ٥ ص ٤٥٠ ، وابن إياس ١ ص ٢٠٠ ، وبولياك
A . N . Poliak, les révoltes populaires en Egypte ,..., P. 259 .
- ٢٣ - ابن إياس ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠
- ٢٤ - ابن الفرات ٩ ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ ، وإقامة البنى فى مصر فى
ذلك العهد مكرس لها مبحث خاص لدى المقرئى : (El. Makrizi's Abhandlung uber die
in Aegypten eingewanderten arabischen Stamme , hrsg , und abers von
F.Wustenfeld, , Gottingen , 1817)
وغياب أسماء كثير من القبائل العربية فى هذا المبحث ، تغطيه المؤلفات المبكرة ، وبشكل خاص
النايلسى الذى يستدل منه على عمليات التجنس المتواصلة
(انظر " geographical review" M. Awad, the assimilation of nomads in Egypt -
New York , vol 44 , 1954 , No 2 , pp 240 - 252 .
- ٢٥ - ابن الفرات ٩ ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ .
- ٢٦ - ابن تغرى بدى (نجوم) ٧ ص ٥٦ - ٥٧ ، ٧٣ ، ٨١ - ٨٤
- ٢٧ - ابن إياس ١ ص ٣٤٨ ، ج ٢ ص ٩٦ .
- ٢٨ - ابن تغرى بدى نجوم ٧ (اصدار بوير) ص ٦٥٤ ، ٧١١ .
- ٢٩ - ابن إياس ٢ ص ٨١ ، ١١٢ ، وابن تغرى بدى نجوم ٧ (اصدار بوير) ص ٥٤٦ ، ٧٥٣
- ٧٥٧ ، والسخاوى ص ١٩٩ .
- ٣٠ - ابن إياس ٢ ص ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٥٦ ، ٢٤٣ .
- ٣١ - نفس المصدر ص ٣٤٦ .
- ٣٢ - نفس المصدر ص ٣٦٦ ، وعن البنى السوريين انظر :
A.S. Tritton, . The tribes of Syria in the fourteenth and fifteenth centuries.
BSOAS,XII,1948 , pt 3 - 4 .
- ٣٣ - ابن إياس ٢ ص ٣١٢ ، ٤ ص ٥١ ، ٨٦ ، ٩٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
- ٤٣ - ابن إياس ٣ ص ١١٤
- ٣٥ - أبو شامة ٢ ص ٨٢ .
- ٣٦ - ابن الأثير ١٠ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ ، وأيضاً ابن خلدون ص ٣١٠ ، وعماد الدين ص ٥٦٥
٦٠ - ٦١ ، ٢٢٨ - ٢٣٠ ، ٤٤٥ .

38 . R H C , V , P, 195

وعن نزول قبائل من سوريا إلى القاهرة انظر : ابن تغريدي (نجوم) ٦ ص ٣٢٤ .

٣٩ - ابن تغريدي (نجوم) ٦ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

٤٠ - ابن عبد الظاهر ص ١٥١ ، وأبو الفدا ٣ ص ٢٢٣ ، والمقرئى سلوك ، ح ٢ ص ٤٧٢ .

41-RHC, II , ptI, p.234

42 - Ibid.,P . 234

والمقرئى سلوك ١ ح ٢ ص ٥٤٨ وانظر أيضاً ابن إياس ١ ص ١١٠ .

٤٣ - أنونم (بالروسية) ص ١١٤ ، ١١٧ وأبو الفدا ٤ ص ٣٧ ، ٤٩ ، ٧٨ ، ١١٩ .

وابن تغريدي (نجوم) ٨ ص ١٦٧ .

٤٤ - على سبيل المثال انظر المقرئى (خطط) ٣ ص ١٤٩ S . Lane- Poole, A history of Egypt in the Middle Ages , London, 1936 , pp. 336 - 337 .

45 - Ma,coudi, les prairies d'or, texte et trad. par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, t .III, Paris , 1864, P. 39 .

٤٦ - أبو صالح ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، وابن خلون ٥ ص ٢٨٧ .

٤٧ - المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٦٢٢ - ٦٢٣ ، ح ٣ ص ٧٢٧ ، وابن إياس ١ ص

١٠٩ ، ١١٨ - ١١٩ ، وابن تغريدي (نجوم) ٧ ص ١٩٠ ، ٣٢٤ .

٤٨ - المقرئى (سلوك) ٢ ح ٢ ص ١٥٢ .

٤٩ - ابن الفرات ٩ ح ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

٥٠ - ابن تغريدي (حوادث) ص ٢١٤ .

٥١ - انظر على سبيل المثال : المقرئى (سلوك) ١ ح ٣ ص ٦٩٠ ، ٢ ح ٢ ص ٤٠٩ ،

٤٢٣ ، ٤٨٢ ، وابن إياس ٢ ص ١٨ ، ٢١ ، ١٠٦ ، ١٦٨ ، ٢٧٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ح ٤ ص ٧٥ ،

٧٦ ، ٨٥ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٥٨ ، ١٩٨ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٤٦٩ .

٥٢ - ابن إياس ٤ ص ٢٩٧ ، وابن خلون ٥ ص ٤١٦ .

٥٣ - ابن إياس ٢ ص ٢٤٣ .

٥٤ - انظر بدايات الفصل السابع فى هذا الكتاب .

٥٥ - عبد اللطيف ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

٥٦ - وعن وضع هذا النوع من العبيد هناك مقالة هامة مكرسة لذلك ... انظر .

S. D . Goitein , Slaves and slavegirls in the Cairo Geniza records " Arabica " , 1962, IX fasc. 1

٥٧ - المقرئى (سلوك) ٢ ح ١ ص ١٢٩ .

- ٥٨ - نفس المصدر ص ٢٤٩ .
- ٥٩ - ابن جبير ص ٥٥ .
- 60 " Extraits des historiens arabes" P. 246 .
- وأيضاً عماد الدين ص ١١٧ - ١١٩ .
- ٦١ - عماد الدين ص ٣٩٩ - ٤٠١ .
- 62 - " Extraits des historiens arabes" P. 441. -
- ٦٢ - المقرئ (خط) ص ٢٦١ .
- 64 - " Extraits des historiens arabes" P. 280 .
- ٦٥ - المقرئ (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٣٢ .
- ٦٦ - المقرئ (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٣١ - ٥٣٢ ، والمقرئ (خط) ٣ ص ٣٧٢ .
- ٦٧ - المقرئ (سلوك) ١ ح ٢ ص ٥٣١ .
- ٦٨ - المقرئ (سلوك) ٢ ح ٢ ص ٤٧٣ .
- ٦٩ - ابن إياس ١ ص ١٥٦ ، ١٦٩ ، ١٩٨ .
- ٧٠ - المقرئ (سلوك) ٢ ح ٢ ص ٥٣٧ - ٥٣٨ .
- ٧١ - المقرئ (سلوك) ١ ح ٢ ص ٢٨٧ .
- ٧٢ - المقرئ (سلوك) ١ ح ٢ ص ٤٤٠ ، وانظر .
- A. Poliak, Les révoltes populaires en Egypte..... P. 255 .
- ٧٣ - السخاوي ص ١٢٦ - ١٢٧ ، وبولياك (المصدر أعلاه) ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
- وهنا يقدم حقائق عن مساهمة العبيد في معارك الشوارع بين أسيادهم المالك في القاهرة في منتصف القرن الخامس عشر .

الفصل التاسع

الحياة المدنية

الفصل التاسع

الحياة المدنية

حدثت تغيرات جوهرية فى التركيب الاجتماعى للمدينة المصرية فى العهد الأيوبي والملوكى ، وهى تبدو واضحة بالمقارنة بالعصر الفاطمى خاصة ، عندما كان دور الحكومة بارزاً فى التجارة والورش ، والحرف وخاصة فرعها الرئيسى : النسيج. ^(١)

فناصر خسرو يكتب عن الورش التابعة للخليفة ، المخصصة لإنتاج ما يسمى بالمقصب (الملون والأبيض) ذى الاثمان الغالية ، وكذلك عن الأقمشة المطرزة بالذهب (البوكلامون) ذات الجودة العالية ، ويقول كان حق التصرف فى منتجات هذه الورش يخص الخليفة وحده ^(٢) ويتحدث ناصر خسرو أيضاً عن الأجور المرتفعة للمشتغلين بهذه الورش ، غير غافل عن الإقرار بتبعيتهم للخليفة بشكل ما ^(٣)، وكان هناك تقسيم للعمل فى هذه الورش بين الحرفيين المختلفين ، مما يعنى أن هذه الورش - من الناحية التقنية - كانت من طراز المانيفاكتورا : وعن هذا يخبرنا المقرئى حيث يقول إن هذه الورش كان بها شخص مختص بتفصيل الأقمشة بينما الآخرون يقومون بخياطة هذه الأقمشة المفصلة ^(٤).

هذا لا يعنى بآى حال من الأحوال ، وجود أشكال للاستغلال الرأسمالى المبكر فى المدينة المصرية فى القرن الحادى * عشر ، فهذه المانيفاكتورا ، من حيث الوضع الاقتصادى الاجتماعى كانت ظاهرة عرضية بلا أية آفاق تاريخية ؛ إذ إن الشروط الضرورية لتطورها وهى قبل كل شئ ، السوق الملائمة لقوة العمل ، كانت غائبة .

وبالرغم من وجود عدد من الدكاكين تخص السلطان ، على سبيل المثال - فى مدينة الفيوم ، كذلك عدد من الورش التابعة للسلطان فى العاصمة ، كانت تنتج الأسلحة والنسيج والمقاييس والموازين فى العهد الأيوبي ، إلا أن دور الحكومة فى الاقتصاد المنزلى وفى الحرف تقلص فى هذا العهد بشكل محسوس ^(٥).

* أى فى عصر الخلافة الفاطمية - المترجم .

فى ارتباط بما تقدم ، تأتى أهمية لبعض الأرقام من كتاب القاضى الفاضل ، التى يثبت بها أن دخل الديوان السلطانى فى ١١٩١ م كان أكثر من ٣٥٤٤٥٤ ديناراً بينما كان فى ١١٩٢ م (٣٥٤٠٤٤)^(٦) ومادامت مداخيل الممتلكات الزراعية فى عهد صلاح الدين ، معروفة ، فإن الحديث هنا يدور عن الدخول ذات الطبيعة المدينية ، أو عن إيرادات بعض الأوقاف ، وهذا هو ما نستطيع أن نوافق عليه فى حقيقة الأمر^(٧) .

— ومع أن تحديد مدى نقصان نصيب السلطان غير ممكن ، لأن المعطيات المشابهة فى العهد الفاطمى غير موجودة وكانت جملتها بالمقارنة مع المعطيات المشابهة عن عهد صلاح الدين قليلة جداً^(٨) كان هناك قسم من الحرفيين والتجار يشتغلون فى المشروعات الدينية ، وكانت الأوقاف شأنها شأن الملكية الخاصة تفتتح الدكاكين والخانات والأسواق^(٩) ، ومصادرنا لا تتضمن أية معلومات عن استخدام العمل العبيدى فى الإنتاج الحرفى باستثناء أعمال البناء .

وتطور العلاقات الاجتماعية فى المدينة المصرية فى عهد الأيوبيين ، كان يوازى التطور القانونى للحرف الحرة ، فإلغاء النظام الفاطمى بتنظيمه الحكومى القاسى لكافة فروع الاقتصاد ، مهد السبيل لنهوض النشاط العملى للمنتج المباشر لا فى الريف فحسب بل فى المدينة أيضاً .

وينوه عبد اللطيف البغدادى فى « وصفه لمصر » بالبنائين الذين استدعوا لبناء القصور والخانات ، وبالخبازين والجزارين والحرفيين المنتجين : للحصر وأدوات الخياطة والأحذية وغيرها واعتبرهم بحق حرفيين أحراراً^(١٠) .

وظلت حرفة النسيج هى النوع الرئيسى بين الحرف ، وأبو صالح يتباهى بالأقمشة الشفافة المسماة بالتنيس والأقمشة الملونة المسماة بالدبيك ، والورق الذى كان ينتج فى الفيوم وفى دمياط^(١١) . ويحدثنا المقرئى أيضاً عن مدينة القاهرة فى زمن الأيوبيين فيعدد الحرف الآتية : المنتجين للأقمشة الكتانية والصوفية والورق ، والأوانى الفخارية ، والفؤوس ، ودبغ الجلود ، وإعداد المواد الغذائية (كالسكر والملح والبوظة والخل والزيت المستخرج من السمسم) ، كذلك يحكى عن الحرف المتعلقة بإنتاج المعدات الحربية التى حققت تطوراً كبيراً مثل صناعة الدروع الحربية وبناء الحصون وغيرها من الصناعات

التي كانت تصاحب الجيوش في * حملاتها^(١٢) ويحدثنا أبو شامة وابن جبير عن ازدهار هذه الحرف في المدن السورية^(١٣) والإقطاعيون الذين يعيشون في المدن^(١٤) كانوا هم المستهلك الأساس لهذه المنتجات الحرفية .

وتزايد الطلب على هذه المنتجات الحرفية من جانب الإقطاعيين ، أدى إلى إدخال أشكال إنتاجية جديدة ، خاصة في النسيج ، ففي القرن الثاني عشر ، تم اعتماد أسلوب الطبع في تخطيط الأقمشة وتزيينها وتوشيتها بدلا من الأسلوب ** الجوبولوني^(١٥) المعقد ، وشمل صلاح الدين برعايته حرفيي المدينة ففي ١١٧١ - ١١٧٢ م) - منع تحصيل (الضرائب غير القانونية) في مصر ، وكانت تقدر في ذلك الوقت بمائتي ألف دينار كانت تجبى من التجار والحرفيين ، وعفا عن الضرائب المتأخرة عليهم في السنوات الماضية^(١٦) .

وحدث ما يشبه هذا أيضاً في مناطق أخرى في الدولة الأيوبية حيث يخبرنا ابن جبير بالآتي " إن *** السلطان قد لمس المتاعب من العوائد المقررة وغيرها سواء كانت على كل ما يباع ويشترى في مصر أو الأقاليم الأخرى ، أو كانت على مياه النيل المستخدمة للشرب ، لذا فإنه قد ألغى كل هذه الأوضاع اللعينة وساد في عهده السلام والعدل^(١٧) .

وفي عهد العزيز ابن صلاح الدين أعيدت بعض الضرائب الشهرية (القمرية) مرة أخرى ، وفي عهد الكامل تمت جباية الضرائب من غير المسلمين مرات عديدة ، بحجة حاجة القوات المرابطة لصد اقتحام الصليبيين لمصر^(١٨) .

وبشكل عام ، كانت السياسة الضرائبية في عهد الأيوبيين تجاه الحرفيين والتجار معتدلة جداً .

* أنظر هوامش المترجم في هذا الفصل فيما بعد .

** الجويلان هو نسج الصور أو الخطوط على النسيج وهو أكثر صعوبة من الطبع على النسيج . - المترجم .

*** ونظر السلطان إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل ، حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس - فضلاً - عما سواه فمحا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن . ابن جبير ، ص ٢١

وتتعدد المعلومات التجارية الخارجية الواسعة لمصر ، في العصور الوسطى ، بشكل واضح ووافى عديد من المؤلفات وخاصة في كتاب مؤرخ التجارة اللبنانية : وحيدة ، وتظهر هذه المؤلفات والكتابات بوضوح ، أن مصر في عهد الأيوبيين كانت مركزاً لتجارة الترانزيت .. من الجنوب الشرقي لآسيا ، حيث ترد التوابل (القرنفل- جوز الطيب ، - الفلفل - والقرفة) كان هذا الطريق التجاري من الشرق يمر عبر الخليج الفارسي ، ثم بعد الغزو السلجوقي ، صار على الأغلب يمر على عدن والبحر الأحمر ، حيث تفرغ البضائع في ميناء عيذاب على الساحل الأفريقي ثم تشحن مرة أخرى عبر النيل إلى موانئ البحر المتوسط حيث حقق التجار الأوربيون في موانئ البحر المتوسط أرباحاً مذهلة ، خاصة في ميناء الإسكندرية (١٩) .

وظلت الحكومات الأيوبية محتكرة لتجارة بعض السلع مثل (حجر الشب - والنطرون) (٢٠) وكانت في نفس الوقت تقوم بتشجيع أنشطة التجار ليس فقط المحليين منهم ، بل والأجانب أيضاً ، وكان تدفق البضائع الهندية ملحوظاً فابن جبير يشير إلى مدينة قفط ، وكانت واحدة من مراكز هذه التجارة " * أعداد هائلة من الواصلين والراطين والحجاج والتجار من اليمن والهند والحبشة (٢١) وكان الدور البارز في تجارة هذه التوابل تقوم به مجموعة من التجار المعروفين بالكارمية (٢٢) . على جزء من اليمن حتى مصر .

وتوقف في عهد صلاح الدين ابتزاز أمراء المدن المقدسة للتجار والحجاج من الزاهبين إلى الحجاز ، وعن ذلك يقول ابن جبير " إن ** السلطان صلاح الدين قد قضى على هذا الابتزاز اللعين وعوضهم بدلا منه بمكيات محددة من المواد الغذائية .. التي كانت تسمى إمداد المدينة ومكة بالمؤونة (٢٣) .

* هذه المدينة حافلة بالأسواق ، متسعة المرافق - كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة (ابن جبير ص ٤٠) .
** ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وأثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا .. إزالته رسم المكس المضروب وظيفته على الحجاج مدة دولة العبيديين فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيادتها عننا مجحفاً و ، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ، فمحي هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها .. وتكفل بتوصيل ذلك إلى الحجاز لأن الرسم المذكور باسم ميرة مكة والمدينة . ابن جبير ، ص ٣٠ .

والملفات القديمة تدخل مدينة عيزاب ضمن المدن التجارية لمصر العليا (٢٤).

وكان الجوخ والخشب والمعادن يأتون إلى مصر من أوروبا (٢٥).

وبالرغم أن السلاطين المصاربيين كانوا يؤمنون برسالتهم المقدسة في القضاء على الصليبيين إلا أنهم كانوا يستقبلون بترحاب بالغ مواطني هؤلاء الصليبيين الأوربيين الذين يجلبون الخشب اللازم لبناء السفن والقطران والقار والمعادن المختلفة والأسلحة وغير ذلك (٢٦) ويصرف النظر عن نداءات البابا الروماني بوقف التجارة مع غير المؤمنين ، فإن العلاقات التجارية مع أوروبا ظلت تتسع أكثر فأكثر، فمن المعروف أنه في بداية الحملات الصليبية ، كان يفد إلى الإسكندرية تجار من فينيسيا (البندقية) وجنوه وأمالفا وصقلية ، وفي القرن الثاني عشر أقام الأيوبيون علاقات تجارية مع روسيا والدانمرك وفلندا وبيزا وناربون ومارسليا وكاتالونيا وإنجلترا عن طريق ناربون (٢٧).

وحتى العمليات الحربية نفسها لم تؤد إلى تقلص العلاقات التجارية ، فبعد أن استولى الصليبيون على عكا في ١١٦٤ م وحتى نهاية القرن الثاني عشر ظلت مدينة عكا أكثر الموانئ انتعاشا على السواحل السورية (٢٨) ويؤكد ابن جبير أن مدينة صور صارت أقل أهمية بكثير وأقل ازدهاما بالناس من ميناء عكا (٢٩) وينص كلماته " القوافل الذهبية * من مصر إلى دمشق عبر المناطق الصليبية دون انقطاع ، لم تكن تتعرض للاضطهاد أكثر مما تتعرض له قوافل المسلمين الآتية من دمشق إلى عكا ، ولا يتم توقيف أحد من التجار المسيحيين أو اضطهاده بأي صورة كانت (٣٠). »

وكانت الرسوم التجارية في عهد صلاح الدين تجبى بانتظام من التجار الأوروبيين ، وكان تقدير الرسوم يتغير وفقا لنوع البضاعة ، فكانت الرسوم عن الخشب والجوخ بكل أنواعه ١٠٪ أما السبائك الذهبية فرسومها ٦٪ ورسوم السبائك

★ واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ابن جبير ص ٢٦٠ .

الفضية والنقود ٤٪ ، أما الفراء الفاخر والأحجار الكريمة التي كانت تأتي مع تجار جنوه فلم تفرض عليها أية رسوم (٣١).

وشمل صلاح الدين برعايته الخاصة التجار الفينيقيين أيضاً ، إذا إنهم كانوا أثناء الحملة الصليبية الرابعة ، قد تصدوا للصليبيين ومنعوهم من الهجوم على مصر (٣٢)

ووفقاً لما يقوله القاضي الفاضل فإن الرسوم التي تم جبايتها من التجار الأجانب في الإسكندرية في ١١٩١م بلغت ٢٨٦٣٣ ديناراً (٣٣).

ومهد هذا التطور الهائل في حجم التجارة الخارجية السبيل لإقامة علاقات ودية بين السلطان : الكامل وفردريك الثاني جوجنشتاوفن ، بل إن خلفاء فردريك الثاني وهما ما نفرد وكونراد ظلا يواصلان سياسية سلفهما (٣٤).

كانت الدخول الآتية من رسوم تجارة مرور التوابل وأيضاً الضرائب والرسوم التجارية الأخرى المجبة من الحرفيين تمثل المصدر الثاني لقوة الحكومة الإقطاعية المصرية إلى جانب الدخول الآتية من الزراعة في عهد صلاح الدين وخلفائه.

وفي عهد المماليك ، كما في عهد الأيوبيين ، كان هناك قسم من الحرفيين يشتغلون في الورش السلطانية أو في ورش الأوقاف التابعة للهيئات الدينية (٣٥).

ولم تتضمن مصادرها للأسف أية إشارات إضافية عما نوه عنه المقرئ سابقاً أكثر من مرة : بزعمه أن انتقال أمراء الحلقة المحاربين إلى الاشتغال بالتجارة والحرف أدى إلى بعض التطور في الورش الحرفية الخاصة التابعة للماليك (٣٦).

وفي عهد المماليك الأوائل حدث تطور هائل إلى أبعد الحدود في الحرف الحرة مرتبطاً بنمو في تقسيم العمل .

فالحياة الحرفية والتجارية في القاهرة ، أعطت للأوروبيين انطباعاً كبيراً ، حتى وهي في مرحلة تدهورها أثناء القرن الخامس عشر ، فقد كتب التاجر الروسي الرحالة : فاسيلي ، المتجول عبر مصر وسوريا في ١٤٦٥ - ١٤٦٦ م عن مدينة القاهرة : مدينة مصر عظيمة جداً ، ففيها أربعة عشر ألف شارع ، وفي شوارعها ثمانية عشر ألف قصر وكل شوارعها عامرة بالتجارة بصورة عظيمة جداً (٣٧).

وتزايد عدد الأسواق المتخصصة بالمقارنة مع العهد الأيوبي ، فطبقاً لما يقوله المقرئى كانت هناك الأسواق ★ التالية : المغربيين ، الاسكافية ، الروائع - الحدادين - صانعي الأقفال - صانعي المهاميز والألجمة - صانعي الإبر - صانعي الخوذات الحربية - صانعي الشمع - السروجية - المبيضين - صانعي الزجاج - الصناديقية - دابغى الجلود - صانعي الجوخ - صانعي الطواقي - صانعي الفخار^(٣٨)

« أما الحرفيون المشتغلون بإعداد الفراء وبيعه فقد تركزوا فى سوق كبيرة للفراء ، الذى انتشر ارتداؤه بين★★ المماليك ، وبرز الاهتمام بإقتناء أنواع الفراء المختلفة مثل فراء السمور والبهر والتعلب والسنباب والمقرئى يقول : إن أثمان هذا الفراء لم تكن ثابتة فقد تضاعفت وتزايدت لأن الناس من رجال الدولة من الأمراء والمماليك استعملوها بصورة واسعة^(٣٩) وازدادت كذلك الأسواق المتخصصة فى بيع المواد الغذائية حيث كان عدد كبير منها موجوداً فى باب الفتوح (باب النصر) .

وعنها يقول المقرئى " يتوجه اليها الناس من كل نواحي البلاد المختلفة لاقتناء لحوم الخراف والثيران والماعز ، ولاقتناء أنواع الخضر المختلفة^(٤٠) ، وينوه المقرئى مرة ثانية بالأسواق التى تبيع اللحوم والطيور والخضر وأيضاً بالأسواق التى تبيع النعاج والحلوى والقطائر^(٤١) ..

★ عدد المقرئى أسماء كثير من الأسواق منها سوق القصبية ، وهو أعظم أسواق مصر ويحتوى على اثنى عشر حانوتا ، وسوق الفتوح (معمور من الجانبين بحوانيت اللحامين والخضرين والفحامين والشرابية وسوق خان الرواسين وسوق حارة برجوان وبين القصرين والقفصات) (لبيع المصوغات) وأسواق الجميين (الألجمة) والجوخيين الشرابشيين (يباع فيها الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء والوزراء وغيرهم وسوق الطويين (لبيع الحلوى) وسوق المهاميزين (لبيع المهاميز) وسوق السلاح (لبيع القسي والنشاب وغير ذلك) وسوق الدجاجين (الدجاج والعصافير وسوق الشماعين) والكتبيين والحريين والبزازين (ثياب الكتان) وغير ذلك كثير - المترجم : انظر المقرئى خطط ح ٢ ص ٤٥٩ - ٤٨٢ .

★★ سوق الفرائيين : وكان قديماً يعرف بسوق الخروفيين ، ثم سكن فيه صناع الفراء وتجاره فعرف بهم وصار به من أنواع الفراء ما يجلب أثمانها وتتضاعف قيمتها لكثرة استعمال رجال الدولة من الأمراء والمماليك لبس السمور والنوشق والقماقم والسنباب ، بعد أن كان ذلك فى الدولة التركية من أعز الأشياء التى لا يستطيع أحد أن يلبسها - المقرئى خطط ح ٢ ص ٤٧٥ - ٤٧٦ .

وتطور الحرف الحرة فى العهد الأيوبي المملوكى المبكر ؛ مهد السبيل أمام الاستقرار النسبى لنظام نقدى ، فقد كان إصدار النقود قبل هذه الفترة قليلا للغاية ، ولكن صك النقود النحاسية (الفلوس) فى الفترة التالية تضاعف ، إذ إن أثمان سلع الضرورات الأولية تميز بثبات كبير فى هذه الفترة (٤٢) . .

وكان تطور الحرف الحرة تحت سيطرة الإقطاع فى المدينة المصرية ممكنا ، ولكن إلى حد معين ؛ فسكان المدن المشتغلين بهذه الحرف ، كانوا محاصرين بالإدارة السلطانية التى تستطيع أن تنقل الحرفيين من حى إلى آخر كما تشاء ، وحتى من مدينة إلى أخرى ، مجبرة إياهم على تنفيذ أعمال محددة وهكذا تم جمع كل الحرفيين فى القاهرة ، طبقا لأوامر السلطان قلاوون ، لبناء مستشفى (٤٣) بل إنه جلب المساحين من دمشق وحلب وحتى من المدن العراقية (٤٤) وذلك لشق قناة فى بولاق تم فيها استخدام العمل المأجور للحرفيين المتخصصين بنفس الشروط وفى نفس الوقت (تم استخدام الأسرى والمسجونين والعبيد والأهالى المجلوبين من أقاليم مصر الأخرى) بأسلوب قائم على الإجبار اللا إقتصادى ، والذي يحمل الطبيعة الإقطاعية بكل وضوح (٤٥) ..

وأحيانا كان موظفوا السلطان يمنعون إنتاج بعض أنواع المنتجات الحرفية ، فمثلا فى ١٣٤٩ - ١٣٥٠ م أمر الوزير منجق صانعى الأحذية فى القاهرة ألا يقوموا بصناعة نوع معين من « التوفلى » راغبا فى إزاحة المنافسة عن الورشة التابعة للسلطان التى تنتج هذا النوع من الأحذية (٤٦) . .

ومصادرنا لم تعطنا القدرة على الافتراض - مثل بعض الباحثين (٤٧) . - بوجود ورش ذات أهمية كبيرة يمتلكها الأهالى من الحرفيين فى مصر فى العهدين الأيوبي والمملوكى ، شبيهة بالورش التى كانت فى أوروبا الغربية ، التى تقوم على التنظيم والإدارة الذاتية .

ولكن يبدو أنه كانت هناك وحدات للحرفيين غاية فى البساطة فى أماكن سكنهم يقوم عليها رؤساء يسمون شيوخ الحرفة ، ليس من سلطتهم الإشراف على ترتيب النشاط الإنتاجى (٤٨) . ولكن هؤلاء الشيوخ المنوه عنهم سابقاً يعتبرون مندوبين عن

الحكومة فى الإشراف العام على الحرف المدينية والتجارية ، فقد كان بعضهم يتم تعيينه من قبل الحكومة ، شأنهم فى ذلك شأن المحتسبين ومساعدتهم الذين كان لهم الحق فى الإشراف على المدن الهامة (٤٩) .

وابتداء من الغزو المغولى لبغداد ، بدأ دور مصر كمركز لتجارة الترانزيت بين آسيا وأفريقيا وأوروبا يزداد أهمية ، فقد وطدت مصر فى عهد المماليك الأوائل علاقاتها التجارية الخارجية ، على سبيل المثال ، مع كل من أراجون وبيزنطة ، وأقامت علاقات جديدة خاصة مع قبيلة القرن الذهبى (٥٠)

وبشكل خاص كان انتعاش العلاقات التجارية مع الفينيسييين سببا فى إزاحة تجار جنوة من أسواق مصر ابتداء من القرن الرابع عشر ، وصار التجار الفينيسيون يصدرون إلى مصر من موانئهم على البحر الأسود الجلود والفراء والشمع من روسيا ، وأيضا العبيد والبضائع الأخرى (٥١)

ومن وسط أفريقيا والمغرب كانوا يجلبون الوبر والصوف والعاج والصمغ العربى ، علاوة على العبيد السود أما الحرير والمسك الصينى فكان يرد من الصين ، وظلت التجارة الرئيسية هى تجارة التوابل الواردة من الهند ، وكان القائمون بها هم من يعرفون بالكارمية * الذى بلغ نشاطهم التجارى أوج ازدهاره خاصة فى عهد السلاطين الأتراك .

وكانت أماكن إقامتهم الرئيسية توجد فى قوص والقاهرة ، وتحت أيديهم أسطول كبير وثرواتهم صارت فى ذلك الوقت ملكا لهم (٥٢) ، لذلك فإنهم قاموا بالأعمال الربوية وكان كل نشاطهم التجارى تحت إشراف وإدارة خاصة تسمى « ديوان المتجر » (٥٣) والكارمية أحيانا كانوا يقومون للمماليك بمثابة سفراء لهم فى اليمن (٥٤) .

وفيما يبدو ، كان الأمراء المماليك الكبار مشاركين لهم فى تجارة الترانزيت (٥٥) .

* وتسميهم المصادر التاريخية بتجار الكارم انظر فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم من سلسلة تاريخ المصريين الهيئة المصرية العامة للكتاب - المترجم .

وما حدث في بداية القرن الخامس عشر أدى إلى خسائر غير قليلة في مدن المماليك .

وواصل وجود المحلات والأسواق نقصانه على الدوام ؛ وذلك بسبب الصراع القائم بين السلطان : الناصر فرج والأمراء المتمردين ، الذي امتد من ١٤٠١ إلى ١٤٠٥ م وانتهي بمقتل السلطان (٥٦) .

أما دمشق فصارت مدينة مخرّبة تماماً بعد غزو تيمور ، وعرف بذلك كثير من الخياطين وصانعي الأسلحة والبنائين والحرفيين الآخرين الفارين إلى سمرقند ، ولكنهم رغم ذلك لم يستطيعوا العودة لاستعادة مكانتهم السابقة (٥٧) . وقام قراصنة أوروبا الغربية في ١٤٠٣ م بنهب مدينة الإسكندرية ، وفي السنوات التالية تحقق لهم الهجوم المدمر على الموانئ السورية .

وقام البدو أيضاً بغاراتهم على المدن الجنوبية (٥٨) وفي ذلك الوقت ، حدث تطور هام في الملكية الشخصية للأرض الزراعية ، وأدى إلى تقلص حاد في مداخل الخزّانة من العوائد الآتية من السكان المشتغلين بالزراعة ، مما جعل المدينة هي المصدر الرئيسي للإيرادات الحكومية .

وصارت السياسة الضرائب لسلاطين المماليك الشراكسة تجاه سكان المدن قاسية للغاية إذا ما قورنت بالعهد الأيوبي أو بعصور المماليك الأوائل ، فبالنسبة للمماليك الأوائل ، خاصة في عهد السلاطين : لاجين وقلان وبيبرس ، كان المعروف أنه تم إلغاء عدد من المكوس ، وأن السلطان الناصر محمد قد سن إصلاحاً ضريبياً عظيم الأهمية ، بلغ من الشمول قدراً يجعله لا يقارن إلا بالإصلاح الضريبي الذي أقامه صلاح الدين (٥٩) .

ومن المعروف أيضاً أن إلغاء " المكوس الوحيد " ، الذي يستحق الاعتبار في عصر المماليك الأواخر كان في أثناء حكم السلطان : الظاهر برقوق في ١٣٩٠ م ، عند توليه العرش للمرة الثانية ، غير أن السلطان الناصر فرج سرعان ما أعاد هذه المكوس الملغاه وزاد في قيمتها في ١٤٠٠ م . (٦٠) ثم بحجة إمداد الفرق المحاربة في سوريا ضد تيمور ، وظل الوضع هكذا طوال حياة المقريني ، أي منذ نهاية القرن الرابع عشر

حتى منتصف القرن الخامس عشر .

وكانت هناك صعوبات عديدة في مواجهة أى مشروع مدينى ، تكمن في التطويق الضرائبى الكامل ، وصار الوضع فيما بعد يتطور من سئى إلى أسوأ .

وكانت الضرورة الدائمة لتقوية الحملات الحربية في مواجهة تهديدات الغزو المغولى سبباً في نمو واتساع هذا التطويق الضرائبى ففي ١٤٨٦ م . ، أمر السلطان ، قايتباى بإحضار التجار الأغنياء من أسواق القاهرة ، وبرغم احتجاجهم - أجبرهم على دفع ١٢٠٠٠ دينار لإمداد القوات المحاربة .

وفى ١٤٩٢ م تم جباية الضرائب في مدينة القاهرة من الحمامات والطواحين والمخابز وأملك الوقف وغير ذلك مقدماً عن مواعدها بشهرين .

وفى نفس السنة ، تم جباية الضرائب في دمشق مقدماً بخمسة شهور ، من كافة العقارات المدينية ، ولحق التطويق الضرائبى المستشفيات التابعة للأوقاف في مدينتى الإسكندرية ودمياط ، وفى ١٤٩٦ م ثم فرض ضريبة موحدة في كل البلاد ، تجبى كل خمسة شهور ، علاوة على ضرورة جمع مبلغ محدد من كل مسيحى أو يهودى أو تاجر أوردوبى (٦١) .

وفى ١٤٩٨ م تم جباية الضرائب عدة مرات من الحرفيين والتجار ، وكان ذلك في عهد السلطان : الناصر محمد (٦٢) أما في عهد الأشرف جنبلط في ١٥٠١ م فتم مصادرة مبالغ نقدية من اليهود والمسيحيين والتجار للمرة الثانية (٦٣) وفى ١٥٠٤ - ١٥٠٥ م تم جباية الضرائب المستحقة على الأملاك المدينية لثمانية شهور مرة واحدة مقدماً ، طبقاً لأوامر السلطان : قنصوه الغورى (٦٤) وفى ١٥١٤ م تم جباية ٢٠ ديناراً من كل السكان في مدن : دمشق وحلب وحماه وصفد وطرابلس بحجة حاجة الجيوش المحاربة (٦٥) وفى السنة التالية تم جباية الضرائب ذاتها لنفس الغرض ... إلخ (٦٦)

والسكان غير المسلمين في المدن ... - علاوة على ما يعانونه من القيود القاسية المتبعة إزاءهم ؛ طبقاً لإعلان المراسيم الخاصة بهم ، والمخالفة تماماً لما يدعى وصية عمر " تجاه غير المسلمين ، كان القابضون على زمام الأمور يقومون بفرض ابتزازات إضافية عليهم (٦٧) مما أدى إلى احتجاج سفراء الدول الأجنبية واحتجاج نجاشى

الحبشة المسيحية ، ولكن تلك الاحتجاجات لم تؤد إلى أى نتائج إيجابية (٦٨) وازدادت حالة السكان المدنيين الكادحين بؤساً بسبب الفظاعات التى ارتكبها المماليك الجلب * ومن الممكن أن نقدم هناو احدى من الأمثلة العديدة التى رواها ابن إياس ، وكان قريب العهد بالسلطان : قنصوه الغورى " أعلن ** السلطان بأنه لا يوجد كائن من كان ، سواء كان من الرعية أو التجار ، يستطيع أن يتجاسر على توجيه إساءة لأحد المماليك السلطانية ، فلو أن أحدا منهم لمس لجام حصان أحد المماليك العابرين فسوف تقطع يده وبعد هذا الإعلان ، ظهر المماليك فى أسواق القاهرة يخطفون حاجاتهم ولا يستطيع أحد أن يمنعهم ... وصار الناس بعد ذلك فى غاية الكرب والكآبة (٦٩).

وكل هذه الظروف ، إلى جانب انتشار تزييف النقود : أدت إلى الخراب الاقتصادى (٧٠) فى القرن الخامس عشر ، وصدام الشرائح الدنيا فى المجتمع المدنى يمتلى الإدارة الحكومية صار أكثر حدة ففى سنة ١٤٤٩ - ١٤٥٠ م ، وعلى سبيل المثال : قام سكان القاهرة بضرب موظفى السلطان بالحجارة ، وعلى رأسهم المحتسب نفسه ؛ وكان ذلك بسبب غلاء أسعار الخبز ، ويذكر ابن إياس أن الناس قد انتزعوا من هذا المحتسب خاتمه الغالى الثمن وشاله الفاخر (٧١) . وفى ١٤٨١ م قتل سكان حلب قائد قلعة المدينة وقاضياها (٧٢) . وفى عام ١٤٨٩ م . قام فقراء مدينة القاهرة بالهجوم على القاضى : أحمد شهاب الدين ، الذى أعطى للسلطان قايتباى فتوى بحقه فى جباية الضرائب على الملكية المدنية قبل موعدها بشهرين ، واضطر هذا القاضى إلى الهروب إلى مكة وبقي فيها هناك طالما لم يهدأ الناس (٧٣) . وفى ١٥٠٦ م قام سكان دمشق بطرد نائب السلطان من المدينة (٧٤) . وفى نفس السنة وقعت اضطرابات فى كارك موجهة ضد حاكم المدينة (٧٥) وفى ١٥١٥ م . صار ينتزع من عابرى الطريق فى سوريا باستخدام القوات ابتزازات جديدة (٧٦) .

* ويسمى ابن إياس : المماليك الجلبان - المترجم .

** ثم إن السلطان أشهر النادرة فى القاهرة بأن لا سوقيا ولا تاجرا يبهدل ممالك السلطان ولا يمسك لأحد منهم لجام فرسه ، ومن فعل ذلك قطعت يده ، ولا يقل حياه عليهم .. وصارت المماليك بعد ذلك يدخلون إلى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد أن يمنعهم من ذلك ، وصار الناس معهم من بعد ذلك فى غاية الضنك والقهر ، ابن إياس ح ٤ الهيئة المصرية ص ٤٦٥

وسعت الحكومة المصرية إلى وضع النموذج الفاطمي بعلامحه الرئيسية في التجارة الداخلية والخارجية موضع التنفيذ ، وقام السلطان : الناصر محمد بمحاولة فاشلة لتغيير التجارة الحرة في السكر^(٧٧) . وفي ١٤٢٣ م . تم إعلان احتكار السلطان بارسيباي لزراعة قصب السكر وبيع السكر ، ولكن - تحت تأثير الممالك مالكي المزارع - تم إلغاء هي الاحتكار في ١٤٢٧ م غير أنه أعيد مرة ثانية في ١٤٢٩ في كل من مصر وسورية ، وظل معمولاً به حتى نهاية السلالة المملوكية^(٧٨) .

وفي ١٤٢٨ م أدت سياسة احتكار التوابل إلى تدمير قوة الكارمية ، وقامت الحكومات باستدعاء سفن الأسطول الفينيسي للتظاهر بالقرب من الإسكندرية واستدعاء سفن الأسطول الأسباني للتظاهر أمام الشواطئ السورية ، غير أن تجارة التوابل ظلت تمارس بشكل استثنائي بواسطة السلطان ، وياع السلطان إينال - على سبيل المثال - باكو الفلفل بمائة دوكات ، أما خليفته : المؤيد شهاب الدين أحمد فباعه بخمسة وثمانين دوكات في ١٤٦٢ م وفي ١٤٨٠ باعه السلطان قايتباي بمائة دوكات بينما كان ثمنه في السوق ٥٠ دوكا وتم القبض على التجار الأوروبيين الذي رفضوا شراء التوابل وألقى بهم في السجن ، أو تم احتجازهم في منازلهم ولم يسمح لهم بمغادرتها ، أو الإفراج عنهم إلا بعد موافقتهم على شروط السلطان^(٧٩) .

ومنذ تم اكتشاف الطريق البحري حول أفريقيا ، صار التجار الفينيسيون - المشترون الرئيسيون للتوابل - يتوجهون نحوه ومنه إلى لشبونة ، وفي كل عام يرسلون إلى مصر سفناً أقل^(٨٠) وبذا أدت سياسة السلاطين المالك الأواخر إلى إضعاف العلاقات التجارية مع بلاد الشرق والغرب - ويكتب ابن إياس عن ١٥١٦ م ، ما يلي وصار حسين* حاكم جده يجمع الرسوم من التجار الهنود مما دفعهم إلى الامتناع عن الذهاب إلى هذا الميناء ، وسرعان ما تحول إلى الخراب وصار من الصعب على التجار

* وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند ، المثل عشرة أمثال فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وأل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأرز ، وأخرب البندر وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج . ابن إياس ، ج ٥ ص ٩٠ .

أن يأتوا ببضائعهم إلى مصر من بلاد الفرنج مثل الكتان والخشب والجلود ، فتدهورت أحوال الإسكندرية ودمياط والموانئ الأخرى ووصلت إلى الكساد ، إذ إن التجار الفرنج رفضوا أن يمروا على هذه الموانئ بسبب القيود العديدة (٨١) .

وأمام حالة الخراب الاقتصادي ، والغضب الشعبى المتزايد ، قام جيش تركيا العثمانية بهزيمة الشيخ إسماعيل حليف مصر فى سوريا ، وعبر الحدود السورية متقدماً إلى مصر ، حيث جرت المعركة الحاسمة ، - كما ذكرنا سابقاً - فى مرج دابق شمالي حلب فى ٢٤ أغسطس ١٥١٦ م ، وفى أثناء هذه المعركة ، انتقل اثنان من زعماء المماليك وهما خيربك جانبرد الغزالى إلى جانب الترك ، بكامل قواتهما ، وقاتلا مع الترك بفرقتيهما من المماليك الجلب والقرانيص ، وبذاعم الخلاف فى صفوف المماليك ؛ علاوة على التفوق المؤكد - للجيش التركى - فى معداته العسكرية وخاصة مدفعية الميدان ؛ ولهذا تحقق للعثمانيين هزيمة الجيش المصرى هزيمة ساحقة ، وتم قتل السلطان ؛ وأسر الخليفة العباسى المتوكل الثالث ، وتقرر نهائياً مصير المماليك الشراكسة .

وعلى هذا النحو يتضح أن القضاء على الملكية الحكومية للأرض ، وإقرار شكل أكثر تقدماً للملكية الإقطاعية للأرض - وهو الإقطاع - كان هو المحتوى الأساسى لتاريخ مصر الداخلى فى عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل .

وتغيير شكل ملكية الأرض أدى إلى ظهور طبقة قوية من الأستقراطية الحربية الزراعية مهدت السبيل إلى تخفيض معدل استغلال الفلاحين وتطوير القوى المنتجة للبلاد .

ومحاولات السلاطين المصريين لإعادة الملكية الحكومية للأرض ، بمعنى استغلال الفلاحين مباشرة بواسطة الإدارات الحكومية ، لم يتحقق لها النجاح .

وتوطيد طبقة الإقطاعيين وتزايد استهلاكاتها وحاجاتها ، كان الدافع فى ذلك العهد - إلى تطور الحرف والتجارة المدينين .

غير أن التطور الواسع فى العلاقات التجارية النقدية ، كان سبباً فى تكثيف استغلال الفلاحين ، فنظام الاسترقاق الإقطاعى ابتداء من القرن الخامس عشر مارس

أقصى الأشكال ، وملاك الأراضي والإقطاعيين قاوموا بكافة الأساليب ، منذ ذلك الحين الإجراءات الحكومية لتحسين علاقاتهم مع الفلاحين ، كل هذا أدى إلى إنهاك الاقتصاد الفلاحى وتشديد القيود الضرائبية على أهالى المدن ، وهذا بدوره أدى إلى جانب سياسة الاحتكار الحكومى ، إلى تدهور الحياة المدنية .

والأزمة الاقتصادية المرافقة لتزايد الصراعات بين الإقطاعيين أدت إلى تسريع الصراع الطبقي المتمثل بشكل خاص فى الهبات الفلاحية ، مما مهد السبيل لتركيا العثمانية لغزو مصر .

غير أن عملية تعميق العلاقات الإقطاعية إلى أبعد الحدود استمرت فى عهد السيادة التركية العثمانية ، والدليل على ذلك يتمثل فى قانون نامه ومصر ، والذي هو عبارة عن مجموعة من القوانين التركية وضعت ١٥٣٢ م .

ومفهوم الإقطاع كأرقى أشكال ملكية الأرض تطورا فى ذلك العهد ، لم يطبقه الأتراك العثمانيون ، بل ظلوا محتفظين بأقصى ما بلغت ظروف التطور المصرى فى النصف الأول من القرن السادس عشر .

هوامش الفصل التاسع

١ - لقد أحصيت في هذه المدينة التي تسمى القاهرة ، مالا يقل عن عشرة آلاف من المحلات ، التي تخص كلها السلطان ، والكثير من هذه المحلات يسلم في كل شهر عشرة دنانير مغربية ولا يوجد بينهما ما يدفع أقل من دينارين ، فالعنابر المتراسة بجوار بعضها من الحمامات والمباني العامة الأخرى لا يمكن عدها . وهي كلها ملكية خاصة للسلطان ، إذ أنه لا يمكن لأي شخص أن يمتلك مبنى أو عقارا ثابتا مالم يكن قد قام بتشييده بنفسه .

وانظر سمعت أن لدى السلطان في القاهرة ومصر ثمانية آلاف منزل : وهي تسلم له في كل شهر ما عليها من أداء واجب » (ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٠٧ وانظر أيضاً :

Б. Н. Заходер, *История Восточного Средневековья* :

تاريخ العصور الوسطى : (الخلافة والشرق الأوسط) بالروسية إصدار ١٩٤٤ ص ٦٦ - ٦٧ .

٢ - « أما تلك الأقمشة التي يتم نسجها في الورش السلطانية ، فلا تباع ولا تهدي لأحد » ناصر خسرو : سفر نامه ص ٩٥ .

٣ - والمقصب والبوكلامون وهي الأقمشة التي تحاك للسلطان ، فإن الخزانة هي التي كانت تقوم بدفع القيمة الكاملة لأولئك الناس الذين يعملون برغبتهم عند السلطان ، وهذا لم يكن له نظير في البلاد الأخرى ، حيث الديوان والسلطان يجبرون الحرفيين على الأعمال الصعبة (نفس المصدر السابق ص ٩٧) .

٤ - المقرئزي (خطط) ٢ ص ٢٦١ .

٥ - النابلسي ص ٢٨ ، وابن ممتي ص ١٩ ، والمقرئزي (خطط) ٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

٦ - المقرئزي (خطط) ١ ص ١٤١ .

٧ - ابن جبير ص ٤٣ .

٨ - انظر الفصل الخامس من الكتاب (قائمة الدخول) .

٩ - ابن ممتي ص ١٤ - ١٥ .

١٠ - عبد اللطيف ص ١٩٩ ، ٢٦٥ ، ٣٧٠ ، ٤٠٩ .

١١ - أبو صالح ص ٦٦ ، والنابلسي ص ٢٦ ، ٢٠ .

١٢ - المقرئزي (سلوك) ١ ح ٣ ص ٨٩٧ ، وابن تغريبدی (نجوم) ٧ ص ١٥٤

وانظر G . Wiet, V . Elisséeff , Ph . Wolff , L'évolution des techniques dans le monde musulman au Moyen Age . - << Cahiers d ' histoire mondiale >> . Neuchâtel , vol . 6, 1960 No.1 , p . 42 -

١٣ - أبو شامة ٢ ص ١٣ ، وابن جبير ص ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٣٦ .

١٤ - عن الرعاية الكاملة من جانب الإقطاع للورش المدينية والتجارة ، نستشهد بالنقطة التالية من ابن خلكان حيث يكتب عن الأمير الكردي المعروف ، أبو المنصور جهار كاس : >> وشيد هو في القاهرة أسواقاً كبيرة مسقوفة منتشرة في البلد ، والتي يقال عنها إنه لم ير لها نظير في أى بلد آخر في ارتفاعها وجمالها ومتانة بنيانها (٢ ص ٧١ ، وانظر أيضاً المقرئى سلوك ١ ح ١ ص ١٢٩) .

١٥ - انظر C. B. Peacock, *Некоторые вопросы изучения средневеко-*

вых египетских тканей, — «Сообщения государственного Эрмитажа», XIII, Л., 1958, стр. 62;

أيضاً .. لنفس . المؤلف . *О росте производительности тру-*

да в текстильном производстве Египта конца XII—XV вв. (по мате-

риалам техники украшения тканей). Доклад на XXV Междунаро-
дом конгрессе востоковедов, М., 1960.

١٦ - أبوشامة ١ ص ٧ ، ١٧٤ ، وابن إياس ١ ص ٧٠

١٧ - ابن جبير ص ٦٢ : أوامر عن إلغاء أو تخفيض « الضرائب غير القانونية »

التي كان يتم جمعها من المدن السورية بعد إخضاعها مباشرة ، وأيضاً فإن ، حكام الجزيرة بعدما صاروا تابعين لإصلاح الدين قد قللوا من تحصيل الابتزازات المباشرة من الأهالي ، وشبيه بهذه الأوامر أيضاً صدر في مكة ١١٧٨ / ١١٧٩ م (انظر أبوشامة ١ ص ٢٣٦ ، ٢ ص ٤٧ ، ٦٩ ، والمقرئى (سلوك) ١ ح ١ ص ٩١ ، والمقرئى (خطط) ٣ ص ٣٧٩)

١٨ - المقرئى (سلوك) ١ ح ١ ص ٨٥

<< Extraits des historiens arabes >> pp . 401 - 402

١٩ - " وماركو بولو " وصف هذا الطريق وصفاً جيداً ، ففي البداية يقول عن عدن « من مدن وبلاد كثيرة تأتي إليها السفن محملة بالبضائع من الهند ، وكثير من التجار يأتون إلى هنا ومراكبهم الكبيرة مليئة بالبضائع إلى حد فائق ، فيقومون بنقل البضائع منها إلى مراكب صغيرة تستطيع أن تصل إلى الشواطئ الأفريقية بعد سبعة أيام ، ومن هناك يتم تحصيل هذه البضائع على الجمال لكي تصل إلى النهر في حدود ثلاثين يوماً (نهر النيل - المؤلف) وهناك يتسلم التجار الفلفل والتوابل والبضائع الأخرى ؛ وغير طريق الإسكندرية لا يوجد - (كتاب ماركو بولو طبعة ١٩٥٦ ص ٢٠٧ بالروسية)

٢٠ - انظر على سبيل المثال ؛ ابن معاتى ص ٢٤ .

٢١ - ابن جبير ص ٧٢ ، ٧٦ .

٢٢ - انظر E. Ashtor , The karimi merchants - JRAS 1956 ,

pt 1 - 2; S.Goitein . New light on the beginnings of the karimi merchants - JE-

SHO . vol . 1 , 1958 , pt 2 .

٢٣ - ابن جبیر ص ٦١ - ٦٢ ، والمقریزی خطط ٢ ص ٣٧٩ « ويصل التاجر ثم يتوجه في الطريق ... ويتاجر برا وبحراً وعلى متن مراكبه سرا وجهراً ، ولا يجوز أحد أن يعتدي عليه أو على ممتلكاته أو يقوم بتفتيش الخبأ لديه أو يسأله عما ينقل أو يفرغ ، أو يستوقفه في الطريق .. » هكذا يقول أبو شامة (١ ص ٢٠٥ وانظر أيضاً ص ١٠٨ .

٢٤ - ابن جبیر ص ٧٠ - ٧١ ، ٧٨ .

٢٥ - ابن ممتی ص ٢٣ .

٢٦ - انظر W . Heyd , Histoire du commerce du Levant au moyen age , t . I , Leipzig , 1923 , p . 386 .

27 . Ibid . , pp . 420 - 422 .

٢٨ - ابن جبیر ص ٣٥٥ .

٢٩ - ابن جبیر ص ٣٥٧ .

٣٠ - ابن جبیر ص ٣٣٥ .

31 - W . Heyd , Histoire du commerce du levant ... , t . I , p . 418 .

٣٢ - ومعروف أن الفينييسيين كانوا قد منحوا امتيازات ، في وضع فندقين تحت تصرفهم بالإسكندرية ، ملحق بهما مخازن لبضائعهم والعاملون به يقومون بخدمتهم .

والفينييسيين أنفسهم الحق في تحديد ساعات فتح وإغلاق منازلهم ، ومسموح لهم أيضاً أن يقيموا الكنائس ، والحصانات والأفران ، وأمور جالييتهم تدار بقنصل له ثلاثة من المساعدين ، وأفرادها معفيون من الجزية مهما طال إقامتهم بمصر .

وفي حالة موت أحد من الرعايا الفينييسيين فإن ممتلكاته تنتقل إلى القنصلية .. انظر

٣٣ - المقریزی (خطط) ١ ص ١٧٦ ، .. Libid , pp . 419 - 420 .

٣٤ - انظر W . Heyd , Histoire du commerce du Levant .. t.I,p . 417 .

٣٥ - ابن الفرات ٨ ص ٩ ، وأنونم ص ١٧١ .

٣٦ - وعلى ما يبدو ، فإن دور المالك في امتلاك المنازل كان ضئيلاً ، فقد كانت أغلب الشوارع والحدائق والميادين تسمى بأسماء أمراء المالك وموظفيهم الكبار برغم أنهم لا يملكون منازل هناك ، وسكان المنازل كانوا يسكنون بالأجر ، فالمقریزی يكتب عن أحد الأمراء قيقول : أنه كان يمتلك منزلاً به أربع مائة حجرة ، يتسلم عن كل حجرة منها درهمين شهرياً . (المقریزی خطط) ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

37 - «Хожение гостя Василья (1465—1466 гг.)», — «Православный палестинский сборник», т. II, вып. III, СПб., 1884, стр. 8. --

٣٨ - المقریزی (خطط) ٢ ص ١٩٨ - ٢٠٢ ، ٢٤٢ ، ٢ ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٧١ .

- ٣٩ - المقریزی (خطط) ٣ ص ١٦٨ .
- ٤٠ - المقریزی (خطط) ١ ص ١٥٤ .
- ٤١ - المقریزی (خطط) ١ ص ١٧٤ ، ٢ ص ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٣ ص ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٤ ص ٨٠ ، ٢٩٤ .
- ٤٢ - وعن وضع النظام النقدي المصري والأسعار في العصور الوسطى ، هناك مقالة هامة مكرسة لذلك لارين كريستس ، أستور (انظر قائمة المراجع) .
- ٤٣ - المقریزی (خطط ٤ ص ٢٦١ .
- ٤٤ - المقریزی (خطط) ٣ ص ٢٧١ .
- ٤٥ - المقریزی (خطط) ٢ ص ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٦ ، ٣٧٢ ، ٤ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ٤٣٦ .
- ٤٦ - المقریزی (خطط) ٤ ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- ٤٧ - ويرينر ينسب الطوائف الحرفية للفترة الأيوبية خاصة انظر
W . M. Brinner , The significance of the harafish and their << sultan >> - JE-SHO , vol . 6 , 1963, pt2 , pp . 214 - 215 .
- ٤٨ - وكان ما نوه عنه ابن الفرات في ١٣٨٨ - ١٣٨٩ يعني بكافة الاحتمالات رؤساء هذه الوحدات حيث يقول : رؤساء المعدين للمصاييح والحرف الكثيرة الأخرى (٩ ح ١ ص ٢٦ ، ٤٦ ، ح ٢ ص ٢٢٨) ، وعن الوحدات الإقليمية السورية المشابهة في التنظيم الحرفي
انظر << Arabica >> - N.S. Elisséeff , Corporation de Damas sous Nur aldin , 1956, t . III. fasc . I .
- ٤٩ - المقریزی (خطط) ٢ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ، وعن وظيفة المحتسب في المدن السورية انظر :
N . A. Ziadeh Town administration in Syria under the early Mamluks,- <<proceedings of the twenty - second congress of orientalistes >> IV Leiden , 1957 . pp . 222 - 224 .

٥٠ - انظر على سبيل المثال

A . S. Atiya , Egypt and Aragon . Embassies and diplomatic correspondence between 1300 and 1330 , Leipzig , 1938 . , P.Dolger. Der Vertrag des Sultans Qalauun von Agypten mit dem kaiser Michael VIII . Palaiologos (1281) << Serta monacen sia >> , Leiden 1952 .

وأمين على الخولى : العلاقات بين النيل والفرات من القرن ١٢ : القرن ١٥ ومصادرنا لاتعطى إمكانية تحديد نسبة التصدير والاستيراد، غير أنه من المهم أن نشير إلى ميل نظام المدفوعات بين

- أوربا والشرق لصالح الشرق بشكل كامل في ذلك الوقت . انظر: Ф. И. Михалевский, *Очерки истории денег и денежного хозяйства*, т. I, М., 1948, стр. 131).
- قصة تاريخ النقود والاقتصاد النقدي إصدار ١٩٤٨ ص ١٣١ (بالروسية) .
- ٥١ - انظر , A . Darrag , L'Égypte sous le règne de Barsbay .., p . 319 .
- ٥٢ - انظر W. Fischel, The spice trade in mamluk Egypt , JESHO , vol . I . 1958 , pt II , p . 169
- ٥٣ - المقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٩٥٥ ، ٢ ح ١ ص ٢٢ ، ٢٤٩ ، ٢ ح ٢ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .
- ٥٤ - انظر المرجع (٥٢) ص ١٧٢ .
- ٥٥ - المقرئى (سلوك) ١ ح ٣ ص ٨٤٤ ، وابن تفريردى (نجوم) ٧ ص ٢٢٧ ، ٣٨٥ ، ٨ ص ٧٩ ، وارتفاع الأسعار التصفى فى بيع السلع الأوروبية نظير مبالغ كبيرة محلية كان ينفذ طبقاً لأوامر الإدارات السلطانية ، وكانت هذه الظاهرة نادرة فى عهد المماليك الأوائل .
- وفى المصادر نجد مصطلح « طرح » الذى يعنى العقاب فى مثل هذه الأعمال الاستبدادية ، وهكذا فبسبب طرح اللحم والبول والسكر من رؤساء الملكيات الخاصة للناصر محمد تم إعدام الأمير ناشوف - المقرئى (سلوك) ٢ ح ٢ ص ٣٦٠ - ٣٦١ ، ٤٠٩ ، ٤٤٤ ، ٤٦١ ، ٤٨٨ ، أنونم ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .
- ٥٦ - المقرئى (خطط) ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٨ ، ٣٠٢ ، ٣٢٠ .
- ٥٧ - ابن عرب شاه عجائب المقنود فى أخبار تيمور .. القاهرة ١٨٨٧ ص ١١٤ ، ١١٥ .
- ٥٨ - المقرئى (خطط) ص ٢٢١ (وللأسف لا يوجد رقم المجلد ..)
- ٥٩ - المقرئى (خطط) - ٦٢ وابن عبد الظاهر ص ١٩٣ ، ٢١٨ ، والمقرئى (سلوك) ١ ح ٢ ص ٤٩٩ ، ٢ ح ٢ ص ٣٨٤ ، وأبو الفدا ٤ ص ٧٨ ، وابن خلدون ٥ ص ٣٩٤ وابن إياس ١ ص ٩٦ ، ١٢٠ - ١٢١ ، ١٢٨ .
- ٦٠ - ابن تفريردى (نجوم) ١٢ ص ١١٠ - ١١٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ .
- ٦١ - ابن إياس ٢ ص ٢٤٥ - ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ .
- ٦٢ - ابن إياس ٢ ص ٢٤٣ .
- ٦٣ - ابن إياس ٢ ص ٣٧٣ .
- ٦٤ - ابن إياس ٤ ص ٧٣ .
- ٦٥ - ابن إياس ٤ ص ٤٠٨ .
- ٦٦ - ابن إياس ١ ص ٣١٩ ، ٢ - ١٧٣ ، ٢٥٧ ، ٣ ص ١٣ ، ٦٠ ، ٤ ص ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤٤

- ٢٤٨ ... الخ ، وابن تغريبردى (حوادث) ص ٣٢٩ ، ٣٠٠ ، ٤٠٩ .
- ٦٧ - واضطهادات مشابهة تحتل أماكن في ١٣٥١ - ١٣٥٢ ، ١٣٥٤ ، ١٣٦٥ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٤٥ - ١٤٤٧ ، ١٤٥٠ - ١٤٥١ ، ١٤٦١ - ١٤٦٣ ، ١٤٨٣ .
- انظر على سبيل المثال : ابن تغريبردى (حوادث) ص ٢٧٤ وابن تغريبردى (نجوم) ٧ (إصدار بوير) ص ١٨٦ ، ٧٢١ ، وابن إياس ٤ ص ٢٩٧ ، والسخاوى ص ٧٢ - ٧٣ ، ١٢٣ - ١٢٤ وأيضاً . M . A. Darrag , L'Égypte sous le règne de Barsbay ... pp . 140 - 145 , M . Perlmann , Notes on anti - christian propaganda in the Manluk empire , pp . 851 , 861 ; R . Gottheil , Dhimmis and Moslems in Egypt , (S . I) , (S . a .) , pp . 366 - 368 .
- ٦٨ - انظر على سبيل المثال : A. Atiya , The crusade in the later Middle Ages , London , 1938 pp . 275 - 277 .

٦٩ - ابن إياس ٤ ص ٤٦٥ .

٧٠ - ابن إياس ٤ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، والمقرئى يكتب أنه لما جاءت بداية القرن الخامس عشر سرعان ما تزايد إصدار " الفلوس " ولقد كان دخل ابن البلد (أبناء المدن) حوالى ثلاثمائة درهم فى الشهر ، مما يعنى عشرة دراهم فى اليوم ، وقد كان يستطيع أن يشتري بدرهمين ثلاثة أرطال من لهم الضأن وبدرهم ما يلزمهم لإعداد الطعام ، وبهذه الصورة كان من الممكن أن تاكل الأسرة كلها بأربعة دراهم . أما فى الزمن الحالى - يلاحظ المقرئى - فالمواطن لا يحصل فى اليوم إلا على عشرة " فلوس " وفى هذا الوقت فإن ثلاثة أرطال من اللحم صارت تساوى سبعة وعشرين " فلوسا " وما يلزمها للإعداد يساوى عشرة " فلوس " ، وفى مثل هذه الأحوال فإن ابن البلد لا يضمن غذاء أسرته ، بصرف النظر عن الملابس وعلف الحيوان وغير ذلك (إغاثة الأمة ص ٨٦) والسخاوى

- ٧١ - ابن إياس ٢ ص ٣١ ، ٣٢ .
- ٧٢ - ابن إياس ٢ ص ٢٠٢ .
- ٧٣ - ابن إياس ٢ ص ٢٥٨ .
- ٧٤ - ابن إياس ٤ ص ٨٨ .
- ٧٥ - ابن إياس ٤ ص ٩٤ .
- ٧٦ - ابن إياس ٤ ص ٤٤٨ .
- ٧٧ - المقرئى خطط ١ ص ٣٢٩ ، ٣ ص ١٧٣ ، وانظر .

A . Darrag , l'Égypte sous le règne de Barsbay ... p . 66 ;

٧٨ - انظر << Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete >> , XXVII, Leipzig , 1912 . S. 75 . M . Sobernheim , Das Zuckemonopol unter Sultan Bars bai

٧٩ - انظر

W . Heyd, Histoire du commerce du Levant ... t . II , p. 492 ; L . Sobhy , Ein Brief des Mamluken - Sultans Qaitbey an dem Dogen Von venedig aus dem Jahre 1478 - << Der Islam >> Bd XXXII , H. 3, Berlin , 1957 , S . 325 - 329 .

٨٠ - انظر P. Reinaud, Traités de commerce entre la république de Venise et
les derniers sultans mameloucs d' Égypte, - JA , t . IV , 1829 p . 23

٨١ - ابن إياس ٢ ص ٦٠ .

مختارات من

كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار

لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ

عن الفاطميين الأواخر*

ولما مات العاضد لدين الله في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسائة ، احتاط الطواشي قراقوش على أهل العاضد وأولاده - فكانت عدة الأشراف في القصور مائة وثلاثين ، والأطفال خمسة وسبعين - وجعلهم في مكان أفرد لهم خارج القصر وجمع عمومته وعشيرته بالقصر واحترز عليهم ، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا وليكون ذلك أسرع لانقراضهم .

وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنقائس ، وكانت عظيمة الوصف ، واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد ، فأطلق من كان حراً ، ووهب واستخدم باقيهم ، وأطلق البيع في كل جديد وعتيق ، فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين .

وأخلى القصور من سكانها ، وأغلق أبوابها ، ثم ملكها أمراءه ، وضرب الألواح على ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع ، وأقطع خواصه منها ، وباع بعضها ثم قسم القصور : فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب بن شادي في قصر الولوة على الخليج ، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية ، فكان الرجل إذا استحسن داراً أخرج منها سكانها ونزل بها .

قال القاضي الفاضل ، وفي ثالث عشرينه (يعني ربيع الآخر سنة سبع وستين) (١٥ ديسمبر ١١٧١م . المؤلف) كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقليل إن الموجود فيه مائه صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر ، وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش . وأخلت أمكنة من القصر الغربي ، سكن بها الأمير موسك ، والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيره من الغز^(١) وملئت المناظر المصونة عن الناظر ، والمتنزهات التي لم يخطر ابتذالها في خاطر فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الأرض ومورثها . وقال ابن عبد الظاهر عن القصر لما أخذه صلاح الدين وأخرج من به :

كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ، وليس فيهم فحل إلا الخليفة ، وأهله وأولاده .

فلم يزالوا في الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان ، إلى أن انتقل الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل .

* المقرئ خط : ج ٢ ص ٢٨٤

١ - يعتقد المقرئ أن الغز هم من الأمراء الكرديين والأتراك ، أقرباء لصلاح الدين . المؤلف

فنقل معه ولد العاضد وأخوته وأولاد عمه واعتقلهم بالقلعة ، وبها مات العاضد واستمر البقية حتى انقرضت الدولة الأيوبية .

وملك الأتراك إلى أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

عن الأسطول*

فلما كان زوال الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، اعتنى أيضاً بأمر الأسطول وأفرد له ديواناً عرف بديوان الأسطول وعين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها ... وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشنان وطنيدى .

وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب ، فأقام فى مباشرته وعمالته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، وتقرر ديوان الأسطول الذى ينفق فى رجاله نصف وربع دينار ، بعد ما كان نصف وثمان دينار .

فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، استمر الحال فى الأسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام ، وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة .

فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقُبض عليهم من الطرقات وقيدوا فى السلاسل نهاراً ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم شئ قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شئ كما يفعل بالأسرى من العدو فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال ، وإذا قيل للرجل فى مصر " يا أسطولى غضب غضباً شديداً . بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم " المجاهدون فى سبيل الله ، والغزاة فى أعداء الله " ويتبرك بدعائهم الناس .

عن المحتسب**

قال ابن الطويرا^(١) : وأما الحسبة فإن من تسند إليه لا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية ، وله استخدام الخواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع (أعمال الدولة)^(٢) ككتاب الحكم ، وله الجلوس بجامعة القاهرة ومصر يوماً بعد يوم

★ ج ٢ - ص ١٢ ، ١٣

★★ ج ٢ ص ٢٢٧ و ٢٢٨

١ - مورخ مصرى ، عاش على الأرجح فى منتصف القرن الثانى عشر - المؤلف :

أنظر : A.R. Guest, Alist of writers books and other outhoritis mentioned by El Ma-qrizi in his Khitat JRAS. 1902 p.117

(٢) يعنى جميع أقاليمها

ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعاش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزأه ، وكذلك الطباخون ، ويتتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقة فيها ، ويلتزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر من وسق السلامة ، وكذلك مع الحمالين على البهائم .

ويأمر السقائين بتغطية الروايا بالأكسية - ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلو كل دلو أربعون رطلاً - وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهي رزق ، وينذرون معلمى المكاتب ألا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا فى مقتل وكذلك معلمو العوم بتحذيرهم من التخريب بأولاد الناس ، ويقفون على من يكون سيئ المعاملة فينبهونه بالروع والأدب ، وينظرون المكاييل والموازين والمحتسب النظر فى دار العيار ، ويخلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر (انتهى) - يقصد ما قاله بن الطوير . (المترجم)

وكان للعيار مكان يعرف بدار العيار ، تعير فيه الموازين بأسرها وجميع الصنج وكان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطاني فيما تحتاج إليه .. الأصناف كالنحاس والحديد والخشب والزجاج وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين ونحوهم .

ويحضر المحتسب أو نائبه إلى هذه الدار ليغيرا المعمول فيها بحضوره ، فإن صح ذلك أمضاه ، وإلا أمر بإعادة عمله حتى يصح .

وكان بهذه الدار أمثلة يصحح بها العيار ، فلا تباع الصنج والموازين والاكيال إلا بهذه الدار ، ويحضر جميع الباعة إلى هذه الدار باستدعاء المحتسب لهم ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، فتعير فى وقت قليل ، فإن وجد فيها الناقص استهلك ، وأخذ من صاحبه لهذه الدار ، وألزم بشراء نظيره مما هو محرز بهذه الدار والقيام بثمنه ثم سومح الناس وصار يلزم من يظهر فى ميزانه أو صنجه خلل بإصلاح ما فيها من فساد فقط والقيام بأجرته فقط .

وما زالت هذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية ، فلما استولى صلاح الدين على السلطنة ، أقر هذه الدار وجعلها وقفا على سور القاهرة مع ما كان جاريا فى أوقاف السور من الرباع والنواحي الجارية فى ديوان الأشوار ، وما زالت هذه الدار باقية .

عن السلطان بيبرس*

"بيبرس" الملك الظاهر ركن الدين البندقدارى : أحد المماليك البحرية الذين اختص بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب وأسكنهم قلعة الروضة .

كان أولا من ممالك الأمير علاء الدين ايدكين البندقدارى ، فلما سخط عليه الملك الصالح أخذ ممالكه - ومنهم الأمير بيبرس هذا - وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمئة (١) وقدمه على طائفة من الجمدارية (٢) .

ومازال يترقى فى الخدم إلى أن قتل المعز أيك التركمانى ، الفارس أقطاي الجمدار ، فى شعبان سنة اثنين وخمسين وستمئة ، وكانت البحرية قد انحازت إليه فركبوا فى نحو السبعمئة ، فلما ألقيت اليهم رأس أقطاي تفرقوا ، واتفقوا على الخروج إلى الشام - وكانت أعيانهم يومئذ بيبرس البندقدارى ، قلاوون الألفى ، وسنقر الأشقر ، وبيبرى ، ورامق وتنكز - فساروا إلى الملك الناصر صاحب الشام .

ولم يزل بيبرس ببلاد الشام إلى أن قتل المعز أيك (٣) ، وقام من بعده ابنه المنصور على وقبض عليه نائبه الأمير سيف الدين قطز ، وجلس على تخت المملكة ، وتلقب بالملك المظفر ، فقدم عليه بيبرس ، فأمره المظفر قطز .

ولما خرج قطز إلى ملاقاته التتار ، وكان من نصرتهم عليهم ما كان ، رحل إلى دمشق ، فوشى إليه بأن الأمير بيبرس قد تنكر له وتغير عليه وأنه عازم على القيام بالحرب فأسرع قطز بالخروج من دمشق إلى جهة مصر ، وهو مضمر لبيبرس السوء ، وعلم بذلك خواصه ، فبلغ ذلك بيبرس ، فاستوحش من قطز ، وأخذ كل منهما يحترس من الآخر على نفسه ، ويختظر الفرصة ، فبادر بيبرس وواعد الأمير سيف الرشيدى والأمير سيف الدين بيدغان الركنى - والمعروف باسم الموت - والأمير سيف الدين بليان

* القريزى خطط : ج ٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٧

١ - يعنى فى ١٢٤٦ - ١٢٤٧ م .

٢ - الجمدارية نوع من المماليك مستخدم لخدمة السلطان (المؤلف) .

٣ - الحديث هنا بدور عن محاولة ممالك صالح نجم الدين أيوب بقيادة الأمير أكتاي أن يقتلوا السلطان المعز أيك ، وفشلت المؤامرة ، مما أجبرهم على الهرب إلى سوريا ، وعادوا من هناك بعد موت أيك وحاكم سوريا ناصر - وهو ناصر يوسف حفيد صلاح الدين الذى قد صارت تحت سلطته كل من حلب ودمشق فى نفس هذه السنة .

الهارونى والأمير بدر الدين أنص الأصبهاني فلما قربوا فى مسيرهم من القصر بين الصالحية والسعيدية عند القرين ، وانحرف قطز عن الدرب للصيد ، فلما قضى منه وطره وعاد - والأمير بيبرس يسايره هو وأصحابه ، طلب منه بيبرس امرأة من سبى القتار ، فأنعم عليه بها فتقدم ليقبل يده ، فكانت هذه إشارة بينه وبين أصحابه - فعندما رأوا بيبرس قد قبض على يد السلطان المظفر قطز بادر، الأمير بكتوت الجوكندار^(١) وضربه بسيف على عاتقه أبانه ، واختطفه الأمير أنص وألقاه عن فرسه إلى الأرض ، ورماه بهادر المغربى بسهم فقتل ، وذلك يوم السبت خامس عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمس وستمئة (٢٤ أكتوبر ١٢١٠ - المؤلفة) ومضوا إلى الدهليز للمشورة فوقع الاتفاق على يد الأمير بيبرس ، فتقدم إليه أقطاي المستعرب الجمدار المعروف بالأتاك - وبإيعه وحلف له ، ثم بقية الأمراء وتلقب بالملك الظاهر وذلك بمنزلة القصير ، فلما تمت البيعة وحلف الأمراء كلهم ، قال له الأمير أقطاي المستعرب : " يا خوند لا يتم لك أمر إلا بعد دخولك إلى القاهرة وطلوعك إلى القلعة " .

فركب من وقته ومعه الأمير قلاوون والأمير بلبان الرشيدى بيلبك الخازندار وجماعة .. يريدون قلعة الجبل، فلقبهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبي ، نائب الغيبة عن المظفر قطز ، وقد خرج لتلقيه ، فأخبروه بما جرى وحلفوه ، فتقدمهم إلى القلعة ، ووقف على بابها حتى وصلوا فى الليل ، فدخلوا إليها وكانت القاهرة قد زينت لقدم السلطان الملك المظفر قطز ، وفرح الناس بكسر التتار وعودة السلطان ، فما راعهم وقد طلع النهار، الا والمشاعلى ينادى: معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر

١ - الجوكندار هو الأمير الحامل للجوكان وهى عبارة عن ست خشبات بنهايات معقوفة ، للعب بالكرة وقذفها إلى أعلى كما نشاهد فى كرة " البولو " وهذه اللعبة كانت واسعة الانتشار فى العصور الوسطى فى الشرق الإسلامى بما فيه مصر انظر.

"تاريخ لعبة البولو"

مذكرات الفرع الشرقى لجمعية الآثار الروسية :

C TT 5 , X Iv 1801 cmp 108-113 :

وأنظر أيضاً D Ayalon , Notes of the furusiyya excercies and

games in the mamluk sultan - studies in Islamic history and civilization ed.u Heyd, Jerusalem, 1961 ,pp, 53 - 55 .

وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس فدخل على الناس من ذلك غم شديد ، ووجل عظيم خوفاً من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس .

ووصل إلى السلطان الإمام أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسي من بغداد في تاسع رجب (٩ يولية ١٢٦١ - المؤلفة) فتلقاه السلطان في عساكره .

وبالغ في إكرامه ، وأنزله بالقلعة وحضر سائر الأمراء والمقدمين ، والقضاة وأهل العلم والمشايخ بقاعة الأعمدة من القلعة بين يدي أبي العباس ، فتأدب السلطان الظاهر ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسي .

وحضر العريان الذين قدموا من العراق وخادم من طواشية بغداد وشهدوا بأن العباس أحمد ولد الخليفة الظاهر ابن الخليفة الناصر ، وشهد معهم بالاستفاضة الأمير جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر ، وعلم الدين بن رشيق ..

وبايعه الظاهر على كتاب الله وسنة نبيه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها ، فلما تمت البيعة ، قلد المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر أمر البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبايع الناس المستنصر على طبقاتهم وكتب إلى الأطراف بأخذ البيعة له وإقامة الخطبة باسمه على المقابر ونقشت السكة في ديار مصر باسمه واسم الملك الظاهر معا .

فلما كانت الجمعة سابع عشر رجب (١٧ يولية ١٢٦١ - المؤلفة) خطب الخليفة بالناس في جامع القلعة .

وركب السلطان في يوم الاثنين رابع شعبان (٤ يولية ١٢٦١ - المؤلفة) إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير ظاهر القاهرة ، وأفيضت عليه الخلع الخيفية ، وهي جبة سوداء ، وعمامة بنفسجية ، وطوق من ذهب - وقُلد سيف عربي ، وجلس مجلساً عاماً حضره الخليفة والوزير وسائر القضاة والأمراء والشهود ، وصعد القاضي ابن لقمان كاتب السر منبراً نصب له ، وقرأ تقليد السلطان المملكة وهو بخطه من إنشائه ، ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق ، ودخل من باب النصر وشق القاهرة ، وقد زينته له ، وحمل صاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان ، والأمراء مشاة بين يديه ، وكان يوماً مشهوداً .

وأخذ السلطان فى تجهيز الخليفة ليسير إلى بغداد ، فرتب له الطواشى بهاء الدين الصالحى شرايباً ، والأمير سابق الدين بوريا الصيرفى أتابكا

وعين له خزانة وسلاحاناه ، ومماليك عدتهم نحو الأربعين منهم سلا حدارية وجمدارية و... وإماما ومؤذناً وسائر أرباب الوظائف واستخدم له خمسمائة فارس ، وكتب لمن قدم معه من العراق بإقطاعات، وأذن له فى الركوب والحركة حيث اختار .

وحضر الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، أخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة ، وأخوهما المظفر فأكرمهم السلطان وأقرهم على ما بأيديهم ، وكتب لهم تقاليد وجهزم فى خدمة الخليفة .

وسار الخليفة فى مارس شوال والسلطان فى خدمته إلى دمشق . فنزل السلطان فى القلعة ونزل الخليفة فى القرية الناصرية بجبل الصالحية ، وبلغت نفقة السلطان على الخليفة ألف ألف وستين ألف دينار .

وخرج من دمشق فى الثالث عشر ذى القعدة (١٩ أكتوبر ١٢٦١ - المؤلفة) ومعه الأمير بلبان الرشيدى ، والأمير سنقر الرومى ، وطائفة من العسكر وأوصاهما السلطان أن يكونا فى خدمة الخليفة حتى يصل إلى الفرات ، فإذا عبر الفرات أقاما بمن معهما من العسكر بالبر الغربى من جهات حلب لانتظار ما يتجدد من أمر الخليفة بحيث إن احتاج لهم سارو إليه .

فسار إلى الرحبة ، وتركه أولاد صاحب الموصل وانصرفوا إلى بلادهم ، وسار إلى مشهد على ، فوجدوا الإمام الحاكم بأمر الله قد جمع سبعمائة فارس من التركمان ، وهو على عانة ، ففارقة التركمان وصار الحاكم إلى المستنصر طائعا له ، فأكرمه وأنزله معه وسار إلى عانة ورحلا إلى الحديثة ، وخرجا منها إلى هيت .

وكانت له حروب مع التتار فى ثالث محرم سنة ستين وستمائة ، قُتل فيها أكثر أصحابه وفر الحاكم وجماعة من الأجناد ، وفُقد المستنصر فلم يوقف له على خبر ، فحضر الحاكم إلى قلعة الجبل ، وبايعه السلطان والناس ، واستمر بديار مصر فى مناظر الكيش وهو جد الخلفاء الموجودين اليوم .

وفى سنة ست وستين (١٢٦٧ / ١٢٦٨ م - المؤلفه) قرر الظاهر بمصر أربعة قضاة وهم : شافعى ومالكى وحنفى وحنبل فاستمر الأمر على ذلك إلى اليوم ، وحدث غلاء شديد بمصر ، وعمدت الغلة ، فجمع السلطان الفقراء وعددهم ، وأخذ لنفسه خمسمائة فقير يمونهم ، ولابنه السعيد بركة خان خمسمائة فقير ، والنائب بيليك الخازندار ثلثمائة فقير ، وفرق الباقي على سائر الأمراء ورسم لكل إنسان فى اليوم برطلى خبز فلم ير بعد ذلك أحداً من الفقراء يسأل .

وفى ثالث شوال سنة اثنين وستين أركب السلطان ابنه السعيد بركة بشعار السلطنة ومشى قدماه ، وشق القاهرة والكل مشاة ، بين يديه من باب النصر حتى قلعة الجبل وزينت البلد .

وفى رتب السلطان لعب القبق بميدان العيد خارج باب النصر ، وختن الملك السعيد ومعه ألف وستمائة وخمسة وأربعون صبياً من أولاد الناس سوى أولاد الأمراء والأجناد ، وأمر لكل صغير منهم بكسوة على قدره ومائة درهم ورأس من الغنم ، فكان مهماً عظيماً ... وفى سنة أربع وستين افتتح قلعة صفد وجهاز العساكر إلى سيس وتقدمهم الأمير قلاوون الألفى ، فحصر مدينة ابناس وعدة قلاع .

وفى سنة خمس وستين أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر ، وفتح يافا والسقيف وأنطاكية .

وفى سنة ٦٧ (١٢٦٨ - ١٢٦٩ - المؤلفه) سار على غزاة إلى الكرك ومنها إلى المدينة النبوية وغسل الكعبة بماء الورد بيده ، ورجع إلى دمشق فأراق جميع الخمر ، وقدم إلى مصر فى سنة ثمان وستين .

وفى سنة إحدى وسبعين خرج من دمشق سائفاً إلى مصر .. فوصل إلى قلعة الجبل وعاد إلى دمشق وكانت مدة غيبته أحد عشر يوماً ، ولم يعلم بغيبته من فى دمشق حتى حضر ثم خرج سائفاً من دمشق يريد كبس التتار ، فخاض الفرات وقدامه قلاوون وبيسرى وأوقع بالتتار على حين غفلة ، وقتل منهم شيئاً كثيراً ، وساق خلفهم ببسرى إلى سروج وتسلم السلطان البيرة .

ووقع بمصر فى سنة اثنين وسبعين ويا : هلك به خلق كثير ...

وفى سنة أربع وسبعين تزوج السعيد ابن السلطان بابتة الأمير قلاوون ، وخرج
العسكر إلى بلاد النوبة فواقع ملكهم وقتل منهم كثيرا وفر باقيهم

وفى سنة خمسة وسبعين ، سار السلطان لحرب التتار، فواقعهم على الألبستين وقد
انضم إليهم الروم ، فانهزموا وقتل منهم كثير ، وتسلم السلطان قيسارية ، ونزل فيها
بدار السلطان ، ثم خرج إلى دمشق فوعك بها من إسهال وحمى ، مات منها يوم

الخميس تاسع عشر من محرم سنة ست وسبعين وستمائة وعمره من نحو سبع
وخمسين سنة ، ومدة ملكه سبع عشر سنة وشهران .

وكان ملكاً جليلاً عسوفاً عجولاً ، كثير المصادمات لرعيته ودواوينه ، سريع الحركة،
فارساً مقداماً ، وترك من الذكور ثلاثة : السعيد محمد بركة خان وملك بعده ،
وسلامش وملك أيضاً ، والمسعود وخضر، ومن البنات سبع بنات ، كان طويلاً مليح
الشكل .

وفتح الله على يديه مما كان مع الفرنج قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ، ويافا
والشقيف وأنطاكية وبقراض والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا ، وصافيتا
ومرقية وحلبا ، وناصف الفرنج على المرقب ويانياس وانطرسوس ، وأخذ من صاحب
سيس دريساك ودركوس وتلميش وكفردين ورعبان ومرزيان وكينوك وأدنة والمصيصة ..
وعمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام
وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الإسكندرية ومنار رشيد ، وردم فم بحر دمياط،
ووعر طريقه وعمر الثوانى وقلعة دمشق وقلعة الصببية وقلعة بعلبك وقلعة الصلت وقلعة
صرخد وقلعة عجلان وقلعة بصرى وقلعة شيزار وقلعة حمص .

وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية خارج القاهرة
وحفر خليج الإسكندرية القديم وياشره بنفسه وعمر هناك قرية سماها الظاهرية ،
وحفر بحر أشموم طناح على يد الأمير بلبان الرشيدى وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه
الخطبة ، وعمر بلد السعيدية من الشرقية بديار مصر وعمر القصر الأبلق بدمشق وغير
ذلك .

ولما مات كتم موته الأمير بدر الدين بيلىك الخازندار عن العسكر وجعله فى تابوت وعلقه ببیت من قلعة دمشق ، وأظهر أنه مريض ، ورتب الأطباء يحضرون على العامة ، وأخذ العساكر والخزائن ومعه محفة محمولة فى الموكب محترمة ، وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان ، وسار إلى أن وصل إلى قلعة الجبل بمصر ، وأشيع موته رحمه الله تعالى .

★ عن القوات المملوكية

اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معد لديوان الجيش ، وأدركت منه بقية إلى أثناء دولة الظاهر برقوق : وكان ناظر الجيش وسائر كتاب الجيش لا يبرحون فى أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش ، وكانت لهذا الديوان عوايد قد تغير أكثرها ، ونسب غالب رسومه .

وكانت جيوش الدولة التركية بديوان مصر على قسمين ، منهم من هو بحضرة السلطان ، ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها ، وسكان بادية كالعرب والترجمان وجندھا مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركماني ، وغالبهم من المماليك المتاعين ، وهم طبقات : أكابرهم من له إمرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس ، ومن هذا القبيل تكون أكابر النواب ، وربما زاد بعدهم بالعشرة فوارس والعشرين ، ثم أمراء الطبلخانة ، ومعظمهم من تكون له إمرة أربعين فارساً ، وقد يوحد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين ، ولا تكون الطبلخانة لأقل من أربعين ثم أمراء العشروات ممن تكون له إمرة عشرة ، وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ولا يعدون فى أمراء العشراوات ، ثم جند الحلقة ، وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان ، كما أن مناشير الأمراء من السلطان ، وأما أجناد الأجناد فمننا شيرهم من أمرائهم . وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الإقطاع ولأجناده الثلثان ، فلا يمكن للأمير ولا مباشره أن يشاركوا أحداً من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم . وكان الأمير لا يخرج أحداً من

★ والعنوان عند المقرئى ذكر جيوش الدولة التركية وزیها وعوايدھا ح ٣ ص ٥٢ - ٦٠ دار التحرير للطبع والنشر - القاهرة . المترجم .

من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى إخراجه ، فحينئذ يخرج نائب السلطان ، ويقيم عند الأمير عوضه ، وكان لكل أربعين جندياً من جند الحلقة مقدم عليهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر لقتال ، فكانت مواقف الأربعين مع مقدمهم ، وترتيبهم فى موقفهم إليه .

ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المئتين ، المقدمين من السلطان ، مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زاد على ذلك ، وأما غيرهم فدون ذلك يعبر أقلها إلى ثمانين ألف دينار وما حولها .

وأما الطبلخانة فمن ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار .

وأما العشروات فأعلاها سبعة آلاف دينار إلى ما دونها

وأما إقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف وخمسمائة دينار ، وهذا القدر وما حوله إقطاعات أعيان مقدمى الحلقة ثم بعد ذلك الأجناد بابات ، حتى يكون أدناهم مائتين وخمسين ديناراً .

وأما إقطاعات جند الأمراء فإنها على ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص .

وأما إقطاعات الشام فإنها لا تقارب هذا ، بل تكون على الثلثين من ذكرنا ، ما خلا نائب السلطنة بدمشق ، فإنه يقارب إقطاعه على إقطاعات أكابر أمراء مصر المقربين ، وجميع جند الأمراء تعرض بديوان الجيش ، ويثبت اسم الجندي وحليته ، ولا يستبدل أميره به غيره إلا بتنزيل من عوض به وعرضه .

وكانت للأمراء على السلطان فى كل سنة ملابس ، ينعم بها عليهم ، ولهم فى ذلك حظ وافر وينعم على أمر المئتين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ويميز خاصتهم على عامتهم ، وكان لجميع الأمراء من المئتين الطبلخانة والعشروات على السلطان والرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها ، والخبز ، والشعير لعليق الخيل ، والزيت ، ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة فى كل سنة ، وكذلك لجميع ممالك السلطان ، وذوى الوظائف من الجند .

وكانت العادة إذا نشأ لأحد الأمراء ولد أطلق له دنانير ولحم وخبز وعليق حتى

يتأهل للإقطاع فى جملة الحلقة ، ثم منهم من ينتقل إلى إمرة عشرة ، أو إلى إمرة طبلخانة بحسب الحظ .

واتفق للأميرين طرنتاي وكتبغا أن كلا منهما زوج ولده بابنة الآخر ، وعمل لذلك لهم العظيم - ثم سأل الأمير طرنتاي - الأمير بيلبك الأيدمرى والأمير طيبرس ، أن يسألا السلطان الملك المنصور قلاوون فى الإنعام على ولده وولد الأمير كتبغا بإقطاعيين فى الحلقة .

فقال لهما والله لو رأيتهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف ، أو كانا فى زحف قدامى؛ استقبح أن أعطى لهما أخبازاً فى الحلقة خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز ، ولم يجب سؤالهما هذا ، وهم من قد عرفت .

لكن كان الأمير العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله إذا مات الجندى أعطى إقطاعه لولده ، فإذا كان صغيراً رتب معه من يلى أمره حتى يكبر ، فكان أجناده يقولون : الإقطاعات أملاكنا ،، يرثها أولادنا الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها وبه اقندى كثير من ملوك مصر فى ذلك .

وللأمراء المقدمين حوائص ذهب فى وقت الركوب إلى الميدان ، ولكل أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى فى شهر رمضان ، ولسائرهم الأضحى : فى عيد الأضحى على مقادير رتبهم ، ولهم البرسيم لتربيع دوابهم ، ويكون فى تلك المدة بدل العليق المرتب لهم .

وكانت الخيول السلطانية تفرق على الأمراء مرتين فى كل سنة : مرة عندما يخرج السلطان إلى مرابط خيوله فى الربيع عند اكتمال تربيعها ، ومرة عند لعبه بالأكرة فى الميدان ، ولخاصة السلطان المقربين زيادة كثيرة من ذلك ، بحيث يصل إلى بعضهم السبعمائة فرس ، ويفرق السلطان أيضاً الخيول على المماليك السلطانية فى أوقات آخر ، وربما يعطى بعض مقدمى الحلقة ، ومن نفق له فرس من المماليك ، يحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق ، فيعطى بدله ، ولخاصة السلطان المقربين إنعام من الإنعامات ، كالعقارات ، والأبنية الضخمة التى ربما أنفق على بعضها زيادة عن مائة ألف دينار ووقع هذا فى الأيام الناصرية مرارا .

ولهم أيضاً كساوى القماش المنوع ، ولهم عند سفرهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأنزال . وكانت لهم آداب لا يخلون بها : منها أنهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالديوان أو القصر وقف كل أمير فى مكانه المعروف به ، ولا يجسر أحد منهم ولا من الممالك أن يحدث رفيقه فى الخدمة بكلمة واحدة ، ولا يلتفت إلى نحوه أيضاً ، ولا يجسر أحد منهم ولا من الممالك ، أن يجتمع بصاحبه فى نزهة ولا فى رمى النشاب ولا غير ذلك ، ومن بلغ السلطان عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض عليه .

واختلف زى الأمراء والعساكر فى الدولة التركية . وصار زيهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالأقبية التتارية والكلوات فوقها ، ثم القباء الاسلامى فوقها ، وعليه تشد المنطقة والسيف ويتميز الأمراء والمقدمون وأعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك ، وتكون أكمامها أكثر من القباء التحتانى ، بلا تفاوت كبير فى قصر الكم والطول ، وعلى رؤسهم كلهم كلوات صغار غالبها من الصوف الملطى الأحمر ، فوقها عمائم صغار ثم زادوا فى قدر الكلوات وما يلف فوقها فى أيام الأخير يلبغة الخاصكى ، القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسين وعرفت بالكلوات الطرخانية ، وصاروا يسمون تلك الصغيرة ناصرية .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق بالغوافى كبر الكلوات ، وعملوا فى شدتها عوجاً ، وقيل لها كلوات جركسية . وهم على ذلك إلى اليوم .

ومن زيهم لعب المهازى على الأخفاف ، ويعمل المنديل فى الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن ومعظم حوائص الممالك فضة ، وفيهم من كان يعملها من الذهب ، وربما عملت باليشم .

وكانت حوائص أمراء المثين الأكابر التى تخرج إليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاص ، يرصع ذهبها بالجواهر وكان معظم العسكر يلبس طرز ، ولا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس الطراز إلا من له إقطاع فى الحلقة . وأما من هو بالجامكية أو من أفراد الأمراء فلا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس طرازا .

وكانت العساكر من الأمراء وغيرهم تلبس المنوع من الكمخا والخطاى والكبخى والمخمل والإسكندرانى ، والشرب ، ومن النصافى والأصواف الملونة . ثم بطل لبس

الحرير في الظاهر برقوق ، واقتصروا إلى اليوم على لبس الصوف الملون في الشتاء ،
ولبس المصافى المصقول في الصيف .

وكانت العادة أن السلطان يتولى بنفسه استخدام الجند . فإذا وقف قدامه من
يطلب الإقطاع المحلول ، ووقع اختياره على أحد ، أمر ناظر الجيش بالكتابة له ، فيكتب
ورقة مختصرة تسمى « المئال » ، مضمونها حيز فلانا كذا ، ثم يكتب فوقه اسم
المستقر له ، ويتناولها السلطان ، فيكتب عليها بخطه « يكتب » ، ويعطيها الحاجب لمن
رسم له ، فيقبل الأرض ، ثم يعاد « المئال » إلى ديوان الجيش فيحفظها شاهداً
عندهم .

ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشرى ديوان الإقطاع ، وهم كتاب ديوان
الجيش ، فيرسمون علاماتهم عليها ، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات ، فيكتب
المنشور ويعلم عليه السلطان كما تقدم ذكره . ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان
الجيش ، بعد المقابلة على حجة أصله . وأما البلاد الشامية فليس للنائب بالمملكة مدخل
في تأمير أمير عوض أمير مات ، بل إذا مات أمير .. سواء كان كبيراً أو صغيراً طويع
السلطان بموته ، فأمره عوضه : إما من في حضرته ، ويخرجه إلى مكان الخدمة ، أو
ممن هو في مكان الخدمة ، أو ينقل من بلد آخر من يقع اختياره عليه .. وأما جند
الحلقة . فإنهم إذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه ، « وكتب المئال » على نحو من
ترتيب السلطان ثم كتب المربعة وجهازها مع البريد إلى حضرة السلطان فيقابل
عليها في ديوان الإقطاع ، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها ، فتكتب المربعة من
ديوان الإقطاع ثم يكتب عليها المنشور كما تقدم في الجند الذين بالحضرة ، وإن لم
يمضها السلطان أخرج الإقطاع لمن يريد . ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال
مدة الخدمة ، حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ، ثم إما يرتجع منهم أو يطلق لهم ،
على قدر حصول العناية بهم .

وإقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء ، ومنها ما
هو نقد على جهات يتناولها منها ، ولم يزل الحال على ذلك ، حتى رآك الملك الناصر
محمد بن قلاوون البلاد - فأبطل عدة جهات من المكوس ، وصارت الإقطاعات كلها بلاداً .

والذى استقر عليه الحال فى إقطاعات الديار المصرية - ممارتبة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى الروك الناصرى ، وهو عدة الجيوش المنصورة فى الديار المصرية - أربعة وعشرون ألف فارس .

النجمية ، وزينت البلد ابتهاجا بها .

وفيه ضربت النوب الثلاث بالباب الناصرى على الرسم النوى فى كل يوم .
فأما دمشق فالنوب المضروبة بها خمس على رسم قديم ، لأن الأتابكة لها قواعد ورسوم مستقرة بينهم فى ديارهم .

وفى حادى عشر ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة ، ولما بلغ باب زويلة نزع الخلع ، وأعادها إلى داره ، ثم شمر للعب الأكرة . ولم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب حتى انقضت أيامهم ، وقام من بعدهم مماليكهم الأتراك ، فجروا فى ذلك عادة ملوك بنى أيوب .

ذكر العوايد التى كانت بقصبة القاهرة*

اعلم أن قصبة القاهرة ما برحت محترمة ، بحيث إنه كان فى الدولة الفاطمية إذا قدم رسول مملك الروم ينزل من باب الفتوح ، ويقبل الأرض وهو ماش ، إلى أن يصل إلى النصر . وكذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة ، فإنه يخرج إلى باب الفتوح ، ويكشف رأسه ويستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمصير إلى القصر .

وكان لها عوايد : مثلها أن السلطان من ملوك بنى أيوب ، ومن قام بعدهم من ملوك الترك لابد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها راكباً والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر ، حتى يخرج من باب زويلة . فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العساكر .

* المقرئى خطط ج ٢ ص ٤٨٢ - ٤٨٣

ومنها أنه لا يمر بقصبة القاهرة حمل تبن ولا حمل حطب ، ولا يسوق أحد فرس بها ، ولا يمر بها سقاء إلا وروايته مغطاة .

ومن رسم أرباب الحوانيت أن يعدوا عند كل حانوت زيرا مملوء بالماء ، مخافة أن يحدث الحريق في مكان فيطفأ بسرعة ، ويلزم صاحب كل حانوت أن يعلق على حانوته قنديلا طول الليل يسرج إلى الصباح .

ويقام في القصبة قوم يكنسون الأتربة والأتربة ونحوها ، ويرشون كل يوم ، ويجعل في القصبة طول الليل عدة من الخفراء يطوفون بها لحراسة الحوانيت وغيرها ، ويتعاهد كل قليل بقطع ماعساه تربي من الأوساخ في الطرقات حتى لا تعلوا الشوارع.

وأول من ركب بخلع الخليفة في القاهرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف أيوب . قال القاضي الفاضل في متجددات سبع وستين وخمسمائة بتاسع من شهر رجب ، وصلت الخلع التي كانت نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من الخليفة ببغداد ، وهي جبة سوداء وطوق ذهب ، فلبسه نور الدين بدمشق إظهارا لشعارها ، وسيرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها .

وكانت انفذت له خلعة ذكر أنه استقصرها واستزراها واستصفرها دون قدره . واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وياتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك برأس الطابية . فلما كان العاشر منه ، خرج قاضي القضاة والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة - وهو من الأصحاب .

قائمة التقويم التاريخي

- الأيوبيين -

- مصر -

١١٦٩ - ١١٩٣	الناصر صلاح الدين يوسف
١١٩٣ - ١١٩٨	العزیز عماد الدين عثمان
١١٩٨ - ١٢٠٠	المنصور محمد أبو الفتح بن العزیز بن الناصر
١٢٠٠ - ١٢١٨	العالء سيف الدين أبو بكر *
١٢١٨ - ١٢٣٨	الکامل محمد بن أبى بكر بن أيوب *
١٢٣٨ - ١٢٤٠	العالء الثانى سيف الدين أبو بكر *
١٢٤٠ - ١٢٤٩	الصالح نجم الدين أيوب بن الکامل بن العادل *
١٢٤٩ - ١٢٥٠	المعظم توران شاه بن محمد بن أيوب أبى بكر *

، دمشق ،

١١٨٦ - ١١٩٦	العالء نور الدين على
١١٩٦ - ١٢١٨	العالء سيف الدين أبو بكر
١٢١٨ - ١٢٢٧	المعظم شرف الدين عيسى
١٢٢٧ - ١٢٢٨	الناصر صلاح الدين داود
١٢٢٨ - ١٢٣٧	الأشرف موسى
١٢٣٧ -	الصالح إسماعيل
١٢٣٧ -	الکامل محمد

* أسماء السلاطين الذين حكموا أيضاً فى دمشق

هذه القائمة موجودة بالكتاب : فقط روجعت على كتاب نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين لعبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى . تحقيق محمد كمال الدين عز الدين على . الناشر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ١٩٨٧ والمؤلفة أكتفت بكتابة الأسماء بإيجاز ولكن رأينا كتابة الأسماء بالکامل لمزيد من الإفادة - المترجم .

١٢٣٨ - ١٢٤٠	العادل الثاني سيف الدين أبو بكر
١٢٤٠ -	الصالح نجم الدين أيوب
١٢٤٠ - ١٢٤٥	الصالح اسماعيل (للمرة الثانية)
١٢٤٥ - ١٢٤٩	الصالح نجم الدين أيوب (للمرة الثانية)
١٢٤٩ - ١٢٥٠	المعظم توران شاه
١٢٥٠ - ١٢٦٠	الناصر صلاح الدين يوسف (الحلبي)

، حلب ،

١١٨٦ - ١٢١٦	الظاهر غياث الدين غازي
١٢١٦ - ١٢٣٦	العزیز غياث الدين محمد
١٢٣٦ - ١٢٦٠	الناصر صلاح الدين يوسف (كان سلطان دمشق)

، الجزيرة ،

١٢٠٠ - ١٢١٠	الأوحد نجم الدين أيوب
١٢١٠ - ١٢٣٠	الأشرف مظفر الدين موسى (دمشق)
١٢٣٠ - ١٢٤٥	المظفر غازي

، حلب ،

١١٧٨ - ١١٩١	المظفر الأول تقي الدين عمر
١١٩١ - ١٢٢٠	المنصور الأول محمد
١٢٢٠ - ١٢٢٩	الناصر قليج أرسلان
١٢٢٩ - ١٢٤٤	المظفر الثاني تقي الدين محمد
١٢٤٤ - ١٢٨٤	المنصور الثاني محمد نور الدين علي
١٢٨٤ - ١٢٩٨	المظفر الثالث محمود

، نواب المماليك ،

١٣٣١ - ١٣١٠	المؤيد أبو الفدا إسماعيل
١٣٤١ - ١٣٣١	الأفضل محمد

، حصص ،

١١٨٥ - ١١٧٨	محمد بن شيركوه
١٢٣٩ - ١١٨٥	المجاهد شيركوه
١٢٤٥ - ١٢٣٩	المنصور إبراهيم
١٢٦٢ - ١٢٤٥	الأشرف مظفر الدين موسى

، اليمن ،

١١٨١ - ١١٧٣	المعظم توران شاه بن أيوب
١١٩٦ - ١١٨١	سيف الإسلام توغداجن بن أيوب
١٢٠١ - ١١٩٦	معز الدين بن إسماعيل
١٢١٤ - ١٢٠١	الناصر أيوب
١٢١٥ - ١٢١٤	المظفر سليمان
١٢٢٨ - ١٢١٥	المسعود صالح الدين يوسف

، المماليك البحرية (أو التركية) ،

١٢٥٠ -	شجرة الدر (عصمت الدين أم خليل)
١٢٥٧ - ١٢٥٠	المعز عز الدين أيوب التركمانى
١٢٥٩ - ١٢٥٧	المنصور نور الدين على بن أيوب
١٢٦٠ - ١٢٥٩	المظفر سيف الدين قطز أبو الفتح التركى
١٢٧٧ - ١٢٦٠	الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقدارى
١٢٧٩ - ١٢٧٧	السعيد ناصر الدين بركة خان (بن الظاهر)

١٢٧٩ -	العادل بدر الدين سالامش (بن ببيرس)
١٢٧٩ - ١٢٩٠	المنصور سيف الدين قلاوون (أبو الفتح)
١٢٩٠ - ١٢٩٣	الأشرف صلاح الدين خليل (بن قلاوون)
١٢٩٣ - ١٢٩٤	الناصر سيف الدين محمد بن قلاوون (للمرة الأولى)
١٢٩٤ - ١٢٩٦	العادل زين الدين كتبغا (أبو الفتح)
١٢٩٦ - ١٢٩٩	المنصور حسام الدين لاجين (أبو الفتح)
١٢٩٩ - ١٣٠٩	الناصر سيف الدين محمد بن قلاوون (للمرة الثانية)
١٣٠٩ - ١٣١٠	المظفر ركن الدين ببيرس الجاشنكير المنصوري
١٣١٠ - ١٣٤١	الناصر سيف الدين محمد بن قلاوون (للمرة الثالثة)
١٣٤١ -	المنصور سيف الدين أبو بكر (بن قلاوون)
١٣٤١ - ١٣٤٢	الأشرف علاء الدين كجك (بن قلاوون)
١٣٤٢ -	الناصر شهاب الدين أحمد (بن قلاوون)
١٣٤٢ - ١٣٤٥	الصالح عماد الدين إسماعيل (بن قلاوون)
١٣٤٥ - ١٣٤٦	الكاظم سيف الدين شعبان (بن قلاوون)
١٣٤٦ - ١٣٤٧	المظفر سيف الدين حاجي (بن قلاوون)
١٣٤٧ - ١٣٥١	الناصر سيف الدين حسن بن محمد (بن قلاوون للمرة الأولى)
١٣٥١ - ١٣٥٤	الصالح صلاح الدين صالح بن محمد (بن قلاوون)
١٣٥٤ - ١٣٦١	الناصر سيف الدين حسن بن محمد (بن قلاوون للمرة الثانية)
١٣٦١ - ١٣٦٣	المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون
١٣٦٣ - ١٣٧٧	الأشرف ناصر الدين شعبان ... (بن قلاوون)
١٣٧٧ - ١٣٨١	المنصور علاء الدين علي ... (بن قلاوون)
١٣٨١ - ١٣٨٢	الصالح صلاح الدين حاجي ... (بن قلاوون)
١٣٨٢ - ١٣٨٩	الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق (من السلالة الشركسية)
١٣٨٩ - ١٣٩٠	الصالح صلاح الدين حاجي للمرة الثانية

المماليك البرجية أو الشراكسة

١٣٨٢ - ١٣٩٩	الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق *
١٣٩٩ - ١٤٠٥	الناصر سيف الدين فرج الظاهر برقوق (بن الظاهر برقوق)
١٤٠٥ - ١٤٠٦	المنصور عز الدين أبو العز بن الظاهر برقوق
١٤٠٦ - ١٤١٢	الناصر سيف الدين فرج للمرة الثانية
١٤١٢ -	العاقل المستعين بالله بن المتوكل بن المعتضد (خليفة عباسي)
١٤١٢ - ١٤٢١	المؤيد أبو النصر شيخ الحمودى
١٤٢١ -	المظفر شهاب الدين أحمد (بن المؤيد)
١٤٢١ -	الظاهر سيف الدين ططر الظاهرى
١٤٢١ - ١٤٢٢	الصالح ناصر الدين محمد أبو السعادات (بن الظاهر)
١٤٢٢ - ١٤٣٨	الأشرف سيف الدين أبو النصر بارسباى
١٤٣٨ -	العزیز جمال الدين يوسف (بن بارسباى)
١٤٣٨ - ١٤٥٣	الظاهر سيف الدين جقمق (أبو سعيد)
١٤٥٣ -	المنصور فخر الدين عثمان (بن الظاهر)
١٤٥٣ - ١٤٦١	الأشرف سيف الدين إينال (أبو النصر)
١٤٦١ -	المؤيد شهاب الدين أحمد (ابن إينال)
١٤٦١ - ١٤٦٧	الظاهر سيف الدين خوشقدم (المؤيدى)
١٤٦٧ -	الظاهر سيف الدين يلْبَاى (المؤيدى)
١٤٦٧ - ١٤٦٨	الظاهر تمر بغا
١٤٦٨ - ١٤٩٦	الأشرف سيف الدين قايتباى
١٤٩٦ - ١٤٩٨	الناصر محمد بن قايتباى
١٤٩٨ - ١٤٩٩	الظاهر قنصوة قايتباى (خال الناصر)
١٤٩٩ - ١٥٠١	الأشرف جان بلاط قايتباى (ابن الظاهر)
١٥٠١ - ١٥١٦	الأشرف قنصوه الغورى
١٥١٦ - ١٥١٧	الأشرف طومانباى

* لاحظ الانقطاع الذى حدث فى حكم المماليك الشراكسة من ١٣٨٩ - ١٣٩٠ م .

الخلفاء العباسيين في مصر

١٢٦١	المستنصر أحمد العباسي
١٢٦١ - ١٣٠٢	الحاكم بأمر الله أحمد العباسي (الأول)
١٣٠٢ - ١٣٤٠	المستكفي بالله أبو الربيع سليمان (الأول)
١٣٤٠ -	الواثق بالله إبراهيم (ابن الحاكم بأمر الله) (الأول)
١٣٤٠ - ١٣٥٢	الحاكم بأمر الله أحمد (ابن المستكفي) (الثاني)
١٣٥٢ - ١٣٦٢	المعتضد بالله أبو بكر (ابن المستكفي)
١٣٦٢ - ١٣٧٧	المتوكل على الله محمد (بن المعتضد) (الأول)
١٣٧٧ -	المستعصم بالله يحيى زكريا (للمرة الأولى)
١٣٧٧ - ١٣٨٣	المتوكل على الله محمد بن المعتضد (للمرة الثانية)
١٣٨٣ - ١٣٨٦	الواثق أبو الحفص عمر (الثاني)
١٣٨٦ - ١٣٨٩	المستعصم بالله يحيى زكريا (للمرة الثانية)
١٣٨٩ - ١٤٠٦	المتوكل على الله محمد بن المعتضد (للمرة الثالثة)
١٤٠٦ - ١٤١٤	المستعين بالله أبو الفضل
١٤١٤ - ١٤٤١	المعتضد بالله أبو الفتح داود (الثاني)
١٤٤١ - ١٤٥١	المستكفي بالله أبو الربيع سليمان (الثاني)
١٤٥١ - ١٤٥٥	القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة
١٤٥٥ - ١٤٧٩	المستنجد بالله أبو المحاسن يوسف
١٤٧٩ - ١٤٩٧	المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز (الثاني)
١٤٩٧ - ١٤٩٨	المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب
١٤٩٨ - ١٥١٦	المتوكل على الله محمد (الثالث)
١٥١٦ - ١٥٢١	المستمسك أبو الصبر يعقوب (للمرة الثانية)
١٥٢١ - ١٥٣٨	المتوكل على الله (الثالث) (للمرة الثانية)

БИБЛИОГРАФИЯ

Источники

[Abd-Allatif], *Relation de l'Égypte*, par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad... le tout traduit et enrichi de notes historiques et critiques par M. Silvestre de Sacy, Paris, 1810.

Abu Salih, *Churches and monasteries of Egypt and some neighbouring countries*, transl. by B. T. A. Evetts, Oxford, 1895.

Ascensus Barcoch. A latin biography of the Mamluk sultan Barquq of Egypt (d. 1399), written by B. de Mignanelli in 1416 ed. by W. Fischel, — «Arabica», 1959, t. VI, fasc. 1—2.

Beiträge zur Geschichte der Mamlukensultane in den Jahren 690—741 der Hîgra nach arabischen Handschriften hrsg. von K. V. Zetterstéen, Leiden, 1919.

Berchem Max van, *Le château de Baniâs et ses inscriptions*, — JA, t. XII, 1888.

Berchem Max van, *Épigraphie des Assassins de Syrie*, — JA, t. IX, 1897.

Berchem Max van, *Notes sur les Croisades*, — JA, t. XIX, 1902.

«Les Croisades d'après le dictionnaire géographique de Yâkoût, trad. par H. Derenbourg», — «Centenaire de l'école des langues orientales vivantes, 1795—1895», Paris, 1895.

«Décrets Mamelouks de Syrie», publ. par J. Sauvaget, — «Bulletin d'études orientales», t. II—III, Le Caire, 1932—1933.

«Extraits des historiens arabes, relatifs aux guerres des Croisades...», ed. par M. Reinaud, Paris, 1829.

[Ibn Abd al-Zahir], *Al-Rawd al-Zahir fi Sirat al-Malik al-Zahir*, by al-Qadi Muhi al-din b. Abd al-Zahir, — в кн.: S. F. Sadeque, *Baybars I of Egypt*, Dacca, 1956.

Ibn-el Athiri *Chronicon quod perfectissimum inscribitur...*, edidit Carolus Johannes Tornberg, vol. XI—XII, Lugduni Batavorum, 1851—1853.

Ibn-Batutah, *Voyage à travers l'Afrique septentrionale et l'Égypte au commencement du XIV siècle*, texte arabe accompagné d'une traduction par C. Defremery et B. R. Sanguinetti, t. I, Paris, 1853.

Ibn Challikanî vitae illustrium virorum, ed. F. Wüstenfeld, Cöttingae, 1835—1850.

[Ibn ad-Dawadar], *Die Chronik des Ibn ad-Dawadari*. Neunter Teil. Der Bericht über den Sultan al-Malik an-Nasir Muhammad Ibn Qalaun, hrsg. von H. R. Roemer, Kairo, 1960.

- [Ibn Doukmak], *Description de l'Égypte* par Ibn Doukmak., publ. par Vollers, Le Caire, 1893.
- Ibn al-Furat, *The history*, ed. by C. K. Zurayk and N. Izzedin, vol. VII—IX, Beirut, 1936—1942.
- [Ibn il Gīān.], *Kitāb il Tuhfa il santiya bi Asmā il bilād il Maṣṣriya* par Charaf il din Yahya ibn il Makarr ibn il Gīān, publ. par B. Moritz, Le Caire, 1898.
- [Ibn Iyas], *An account of the Ottoman conquest of Egypt in the year a. h. 922 (a. d. 1516)*, transl. from the 3-d vol. of the arabic chronicle of Muhammed ibn Ahmed ibn Iyas..., par W. Salmon, London, 1921.
- Ibn Iyas al-Hanafi, *Journal d'un bourgeois du Caire*, trad. et annoté par G. Wiet, t. I—II, Paris, 1955—1960.
- Ibn Jobair, *Voyages*, traduits et annotés par M. Gaudelroy-De-mombynes, pt. II—LII, Paris, 1949—1956.
- [Ibn Taghrī Birdī], Abu' l-Mahāsīn ibn Taghrī Birdī's *Annals entitled an-Nujum az-Zāhira fi Muluk Miṣr wal-Kahira* (vol. VII), ed. by W. Popper, — «University of California publications in semitic philology», vol. 7, Berkeley, 1926—1929.
- [Ibn Taghrī Birdī], Extracts from Abu' l-Mahāsīn ibn Taghrī Birdī's *Chronicle, entitled Hawādith al-Duhūr fi Maḡā' l-Ayyām wa-l-Shuhūr*, vol. I—III, ed. W. Popper, — «University of California publications in semitic philology», vol. 8, Berkeley, 1930—1932.
- [Ibn Taghrī Birdī], *History of Egypt 1382—1469 A. D.* (Part IV, 1422—1438 A. D.), transl. from the arabic annals of Abu' l-Mahāsīn ibn Taghrī Birdī by W. Popper, — «University of California publications in semitic philology», vol. 18, Berkeley — Los Angeles, 1958.
- Imad ed-din el-Katib el-Isfahani, *Conquête de la Syrie et de la Palestine par Salah ed-din*, publié... par C. de Landberg, texte arabe, vol I, Leyde, 1888.
- Les inscriptions de Saladin, ed. par G. Wiet, — «Syria», Paris, 1922, t. III.
- [Jean de Phanidjōt], *Un document copte du XIII^e siècle. Martyre de Jean de Phanidjōt*, publ. par E. Amélineau — JA, t. IX, 1887.
- [Kanunname Miṣr], *Des osmanischen Reichs Staatsverwaltung*, dargestellt von J. von Hammer, Bd II, Kanunname Miṣr, Wien, 1815.
- [Makrizi], *Chronicle of Ahmad ibn Ali al-Makrizi, entitled Kitāb al-Suluk il-marīfat duwal al-muluk*, ed. by M. Zlata, vol. I—II, Cairo, 1934—1942.
- [Makrizi], *Histoire d'Égypte* de Makrizi, trad... par E. Blochet, Paris, 1908.
- [Makrizi], *Histoire des sultans Mamlouks de l'Égypte*. Ecrite en arabe par Taki-ed-din-Ahmed-Makrizi, trad. en franc. et accompagnée des notes philologiques, historiques, géographiques par Quatremère, vol. I—II, Paris, 1837—1845.
- [Makrizi], *Le traité des famines de Makrizi*, trad. française de G. Wiet, — JESHO, V, 1962, pt I.
- [Maqrizi] *El-Maqrizi's Abhandlung über die in Aegypten eingewanderten arabischen Stämme*, hrsg. und übers. von F. Wüstenfeld, Göttingen, 1847.
- Maqrizi, *El-Mawāiz wa' l-Itibar fi Dhikr el-Khitat wa' l-Athār*, texte arabe édité par G. Wiet, Le Caire, 1911, vol. I, fasc. 1—2; 1913, vol. II, fasc. I.

«Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum», vol. I—III, publ. par Berchem, Max Van, Paris, 1903—1930.

«Quelques aspects de l'administration égyptienne médiévale vus par un de ses fonctionnaires», trad. par Cl. Cahen, — «Bulletin de la Faculté des lettres de Strasbourg», Strasbourg, 1948, № 4.

«Recueil des historiens des Croisades. Historiens orientaux», vol. I—V, Paris, 1872—1906.

«Scandal in the Egyptian treasury. A portion of the Luma'al quwanin of Uthman ibn Ibrahim al-Nabulusi», trad. by Ch. A. Owen, — «Journal of Near Eastern Studies», Chicago, vol. XIV, 1955, № 2.

«Traité de commerce entre la république de Venise et les derniers sultans mameloucs d'Égypte», traduits de l'italien et accompagnés d'éclaircissements par P. Reinaud, — JA, t. IV, 1829.

«Le voyage d'outremer (Égypte, Mont Sinaï, Palestine) de Jean Thénau gardien du couvent des cordeliers d'Angoulême suivi de la relation de l'ambassade de Domenico Trevisan, auprès du sultan d'Égypte (1512)», publié et annoté par Ch. Schefer, Paris, 1884.

«Zoubdat Kachf el-Mamalik, Tableau politique et administratif de l'Égypte, de la Syrie et du Hedjaz sous la domination des sultans Mamlouks du XIII^e au XV^e siècle par Khallid ed Dahrîy, texte arabe publié par P. Ravaisse, Paris, 1894.

ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. ج ١، القاهرة، ١٣٤٢/١٩٢٤.

أبو العباس أحمد القلقشندي. كتاب صبح الأعشى في كتابة الأنشا. القاهرة، ١٣٣٧—١٣٣١/١٩١٩—١٩١٣.

إسماعيل بن علي أبو الفداء. المختصر في تاريخ البشر. اسطنبول، ١٢٨٦.

بهاء الدين بن شداد. كتاب سيرة صلاح الدين. القاهرة، ١٣١٧.

تقي الدين أحمد بن علي المقرئ. كتاب الأغائة الامة بكشف الغمة أو تاريخ الدجاعات في مصر. القاهرة، ١٩٥٠.

تقي الدين أحمد بن علي المقرئ. كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار. القاهرة، ١٣٢٦—١٣٢٤.

جلال الدين السيوطي. كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة، القاهرة، ١٢٩٩.

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، القاهرة، ١٣٧٥—١٣٤٨/١٩٥٦—١٩٢٩.

شرف الدين أبو المكارم بن أبو سعيد بن معاني. كتاب قوانين الدواوين. القاهرة، ١٨٧١.

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة، ١٣٧٤—١٣٤٢/١٩٥٥—١٩٢٣.

عبد الرحمن بن اسمعيل ابو شامة. كتاب الروضتين في أخبار
الدولتين، القاهرة، ١٢٨٨—١٢٨٧.
عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. كتاب العبر. ج ٥، بولاق، ١٢٨٤.
محمد بن أحمد بن إياس الحنفى. كتاب تاريخ مصر المشهور
ببدائع الزهور في وقائع الدهور. ج ٣—١، بولاق، ١٣١٢—١٣١١
ج ٤، اسطنبول، ١٩٣١.
محمد بن عبد الرحمن السخاوى. كتاب التبر المسبوك في ذيل
السلوك. بولاق، ١٨٩٦.

Тизенгаузен В., Сборник материалов, относящихся к истории Золотой Орды, т. I, СПб., 1884.
Усама ибн Мункиз, Книга наиздания, пер. М. А. Салье, М., 1958.

Использованная литература

- Амин аль-Хали, Связи между Нилом и Волгой в XIII—XIV вв., М., 1962.
Банк А. В., Восточный сосуд с греческой надписью (К истории культурных взаимоотношений Византии и Египта в XIII—XIV вв.), — «Византийский временник», 1952, т. V.
Бартольд В., Халиф и султан, — «Мир ислама», СПб., т. I, 1912, № 2 и 3.
Беляев Е. А., Мусульманское сектанство, М., 1957.
Вернадский Г. В., Золотая Орда, Египет и Византия в их взаимоотношениях в царствование Михаила Палеолога (Сборник статей по археологии и византиноведению, издаваемый семинарием имени Н. П. Кондакова, Прага, 1927).
«Всемирная история», т. III, М., 1957.
Егоров Д. Н., Крестовые походы. Лекции, читанные на Московских женских Высших курсах в 1914/1915 г., ч. I—II, М., 1914—1916.
Заборов М. А., Крестовые походы, М., 1956.
Заходер В. Н., История Восточного Средневековья (Халифат и Ближний Восток), М., 1944.
«История стран зарубежного Востока в средние века», М., 1957.
Крачковский И. Ю., Избранные сочинения, т. IV, М.—Л., 1957.
Певзнер С. Б., Икта в Египте в конце XIII—XIV вв., — сб. «Памяти академика И. Ю. Крачковского», Л., 1958.
Певзнер С. Б., Китайские мотивы на памятниках художественного ремесла средневекового Египта, — «Труды Государственного Эрмитажа. Культура и искусство античного мира и Востока», т. II, Л., 1958.
Певзнер С. Б., Некоторые вопросы изучения средневековых египетских тканей, — «Сообщения Государственного Эрмитажа», XIII, Л., 1958.
Певзнер С. Б., О росте производительности труда в текстильном производстве Египта конца XII—XV вв. (по материалам техники украшения тканей). Доклад на XXV Международном конгрессе востоковедов, М., 1960.

- Семенова Л. А., *К истории мамлюкского города*, — сб. «О генезисе капитализма в странах Востока (XV—XIX вв.)», М., 1962.
- Стасюлевич М. М., *История Средних веков в ее писателях и исследованиях новейших ученых*, т. III, СПб., 1865.
- Тизенгаузен В. Ф., *Заметка о сношениях Египта с Сербией и Болгарией в XIV веке*, — «Записки Восточного отделения Русского археологического общества», т. IV, СПб., 1889, вып. 1—2.
- Успенский Ф., *Византийские историки о монголах и египетских мамлюках*, — «Византийский временник», т. XXIV, Л., 1926.
- Abbot N., *The monasteries of the Fayyum*, Chicago, 1937.
- Ali Bahgat, *Les manufactures d'étoffe en Egypte au moyen âge*, Le Caire, 1904.
- Amari, *Questions philosophiques adressées aux savants musulmans, par l'empereur Frédéric II*, — JA, t. I, 1853.
- Ashtor E., *Le coût de la vie dans l'Égypte médiévale*, — JESHO, vol. III, 1960, pt 1.
- Ashtor E., *Le coût de la vie dans la Syrie médiévale*, — «Arabica», 1961, t. VIII, fasc. 1.
- Ashtor E., *L'évolution des prix dans le Proche-Orient à la basse époque*, — JESHO, vol. IV, 1961, pt 1.
- Ashtor E., *The Karimi merchants*, — JRAS, 1956, pt 1—2.
- Ashtor E., *Matériaux pour l'histoire des prix dans l'Égypte médiévale*, — JESHO, vol. 6, 1963, pt 2.
- Ashtor E., *Some unpublished sources for the Bahri period*, — «Studies in Islamic history and civilization», ed. by U. Heyd, Jerusalem, 1961.
- Ashtor-Strauss E., *L'administration urbaine en Syrie médiévale*, — «Rivista degli Studi Orientali», Roma, 1956.
- Ashtor-Strauss E., *Quelques indications sur les revenus dans l'Orient musulman au haut moyen âge*, — JESHO, vol. II, 1959, pt 3.
- Atiya A. S., *Egypt and Aragon. Embassies and diplomatic correspondence between 1300 and 1330*, Leipzig, 1938.
- Ayalon D. (Neustadt), *The Circassians in the mamluk kingdom*, — JAOS, vol. 69, 1949, № 3.
- Ayalon D., *L'esclavage du mamelouk*, Jerusalem, 1951.
- Ayalon D., *Gunpowder and firearms in the mamluk kingdom*, London, 1956.
- Ayalon D., *Notes on the furusiyya exercises and games in the Mamluk sultanate*, — «Studies in Islamic history and civilization», ed. by U. Heyd, Jerusalem, 1961.
- Ayalon D., *Le régiment Bahriya dans l'armée mamelouke*, REI, 1952.
- Ayalon D., *Studies on the structure of the mamluk army*, — BSOAS, vol. XV, 1953, pt 2, 3; vol. XVI, pt 1.
- Ayalon D., *Studies on the transfer of the Abbasid caliphate from Bagdad to Cairo*, — «Arabica», 1960, t. VII, fasc. 1.
- Ayalon D., *The system of payment in mamluk military society*, JESHO, vol. I, 1957, pt 1.
- Becker C. H., *Islamstudien*, Bd I, Leipzig, 1924.
- Brinner W. M., *The significance of the harafish and their esultan*, — JESHO, vol. VI, 1963, pt 2.
- Björkman W., *Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im Islamischen Ägypten*, Hamburg, 1928.
- Butcher E. L., *The story of the church of Egypt*, London, 1897.

- Cahen Cl., *Contribution à l'étude des impôts dans l'Égypte médiévale*, — JESHO, vol. V, 1962, pt 3.
- Cahen Cl., *L'évolution de l'iqṭā' du IX^e au XIII^e siècle: contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales*, — Annales (Économies, Sociétés, Civilisations), 8^e année, Paris, 1953, № 1.
- Cahen Cl., *Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen Âge*, — «Arabica», 1958, t. V, 1959, t. VI.
- Cahen Cl., *Notes pour l'histoire de la Himaya* Mélanges Louis Massignon, I, Damas, 1956.
- Cahen Cl., *Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubide*, — «Arabica», 1956, t. III, fasc. 1.
- Cahen Cl., *Un traité financier inédit d'époque Fatimide-Ayyubide*, — JESHO, vol. V, 1962, pt 2.
- Davis E. J., *The invasion of Egypt in A. D. 1240 (A. H. 647) by Louis IX of France (St. Louis) and a history of the contemporary sultans of Egypt*, London, 1897.
- Defrémery C., *Nouvelles recherches sur les Ismaéliens ou Bathiliens de Syrie...*, — JA, t. III, 1854, t. V, 1855.
- Dölger F., *Der Vertrag des Sultans Qalaun von Aegypten mit dem Kaiser Michael VIII. Palaiologos (1281)*, — «Serta monacensia», Leiden, 1952.
- Ehrenkreutz A. S., *Contributions to the knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages*, — BSOAS, vol. XVI, 1954, pt 3.
- Ehrenkreutz A. S., *The crisis of dinar in the Egypt of Saladin*, — JAOS, vol. 76, 1956, pt 3.
- Ehrenkreutz A. S., *The place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea in the Middle Ages*, — JAOS, vol. 75, 1955, pt 1—2.
- Ehrenkreutz A. S., *The standard of fineness of gold coins circulating in Egypt at the time of the crusades*, — JAOS, vol. 74, 1954, pt 3.
- Ehrenkreutz A. S., *Studies in the monetary history of the Near East in the Middle Ages*, — JESHO, vol. II, 1959, pt 2.
- Ehrenkreutz A. S., *The technical manual on the Ayyubid mint in Cairo*, — BSOAS, vol. XV, 1953, pt 1.
- Elisséeff N. S., *Corporation de Damas sous Nur al-Din. Matériaux pour une topographie économique de Damas au XII^e siècle*, — «Arabica», 1956, t. III, fasc. 1.
- Fischel W., *The spice trade in mamluk Egypt*, — JESHO, vol. I, 1958, pt 2.
- Gaudefroy-Demombynes M., *La Syrie à l'époque des mamelouks d'après les auteurs arabes*, Paris, 1923.
- Gennep A. R. van, *Le ducat vénitien en Égypte; son influence sur la monnayage de l'or dans ce pays au commencement du XV^e siècle*, — «Revue numismatique», t. I, Paris, 1897.
- Gibb H. A. R., *The arabic sources for the life of Saladin*, — «Speculum», Cambridge (USA), vol. XXV, 1950, № 1.
- Gibb H. A. R., *Al-Barg al-Shami: The history of Saladin by the Katib Imad ad-Din al-Isfahani*, — «Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes», Vienne, t. LII, 1953, № 1—2.
- Gibb H. A. R., *Notes on the arabic materials for the history of the early Crusades*, — BSOS, vol. VII, 1935, pt 4.
- Gibb H. A. R., *Studies on the civilization of Islam*, London, 1962.

- Goitein S. D., *New light on the beginnings of the Karim merchants*, — JESHO, vol. I, 1958, pt 2.
- Gottheil R., *Dhimmis and moslems in Egypt*, [S. l.], [S. a.].
- Gottschalk H. L., *Al-Malik al-Kamil von Egypten und seine Zeit; eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Egyptens in der ersten Hälfte des 7/13 Jahrhunderts*, Wiesbaden, 1958.
- Guest A. R., *The Delta in the Middle Ages*, — JRAS, 1912.
- Guest A. R., *A list of writers, books and other authorities mentioned by el-Maqrizi in his Khitat*, — JRAS, 1902.
- Guyard S., *Un grand maître des assassins au temps de Saladin*, — JA, t. IX, 1877.
- Hanotaux G., *Histoire de la nation égyptienne*, vol. IV, Paris, 1931.
- Hartmann R., *Die Herrschaft von al-Karak*, — «Der Islam», Bd II, Berlin, 1911.
- Hartmann R., *Die Geographische Nachrichten über Palaestina und Syrien in Khall ez-Zahiris Zubda*, Kirchlein, 1907.
- Hartmann R., *Politische Geographie des Mamlukenreichs*, — ZDMG: Bd 70, 1916; Bd 71, 1917.
- Helbig A., *Al-Qadi al-Fadil, der Wezir Saladin's*, Berlin, 1909.
- Heyd. W., *Histoire du commerce du Levant au moyen âge*, t. I—II, Leipzig, 1923.
- Lane-Poole S., *A history of Egypt in the Middle Ages*, London, 1936.
- Lane-Poole S., *Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem*, New York—London, 1898.
- Laoust. H., *Le hanbalisme sous les Mamlouks Bahrides (658—784/1260—1382)*, — REI, t. XXVIII, 1960.
- Leverer C., *Die Verrechnung und Verwaltung von Steuern im islamischen Agypten*, — ZDMG, Bd 103 (28), 1953.
- Lewis B., *The Ismailites and the assassins*, — «A history of the Crusades», vol. I, Philadelphia, 1955.
- Lewis B., *Saladin and the assassins*, — BSOAS, vol. XV, 1953, pt 1.
- Lewis B., *The sources for the history of the Syrian assassins*, — «Speculum», vol. XXVII, Cambridge (USA), 1952, № 4.
- Maspero J. et Wiet G., *Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte, première série*, — «Mémoires de l'institut français d'archéologie orientale du Caire», t. 36, Le Caire, 1914.
- Minorsky V., *Studies in Caucasian history*, London, 1958.
- Mostafa M., *Beiträge zur Geschichte Agyptens zur Zeit der türkischen Eroberung*, — ZDMG, Bd 89, 1935.
- Muir W., *The mameluke or slave dynasty of Egypt, 1260—1517*, London, 1896.
- Neustadt D., *The plague and its effects upon the Mamluk army*, JRAS, pt 1—2, 1946.
- Niemeyer W., *Agypten zur Zeit der Mamluken*, Berlin, 1936.
- Perlmann M., *Notes on anti-christian propaganda in the Mamluk empire*, — BSOAS, vol. X, 1942, pt 4.
- Pollak A. N., *The Ayybid feudalism*, — JRAS, 1939, pt III.
- Pollak A. N., *Le caractère colonial de l'Etat mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'Or*, — REI, t. IX, 1935.
- Pollak A. N., *La féodalité islamique*, — REI, t. X, 1936.
- Pollak A. N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250—1900*, London, 1939.

- Poliak A. N., *The influence of Chingiz-Khūn's Yāsu upon the general organisation of the Mamluk state*, — BSOAS, vol. X, 1942, pt 4.
- Poliak A. N., *Les révoltes populaires en Egypte à l'époque des mamelouks et leurs causes économiques*, — REI, t. VIII, 1934.
- Poliak A. N., *Some notes on the feudal system of the Mamluks*, — JRAS, 1937, pt 1.
- Popper W., *The Cairo Nilometer. Studies in Ibn Taghri Birdi's chronicles of Egypt*, — «University of California publications in semitic philology», vol. 12, Berkeley—Los Angeles, 1951.
- Popper W., *Egypt and Syria under the Circassian sultans, 1882—1468 a. d. Systematic notes to Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt* — «University of California publications in semitic philology», vol. 15, Berkeley—Los Angeles, 1955.
- Quatremère E., *Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur contrées voisines*, t. I—II, Paris, 1811.
- Reinaud P., *Notice sur la vie de Saladin*, Paris, 1824.
- Salibi K. S., *The Banu Jamaa. A dynasty of Shafite jurists in the Mamluk period*, — «Studia islamica», Paris, t. IX, 1958.
- Salibi K. S., *The Buhturids of the Garb. Mediaeval lords of Beirut and of southern Lebanon*, — «Arabica», 1961, t. VIII, fasc. 1.
- Salibi K. S., *The maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk rule*, — «Arabica», 1957, t. IV, fasc. 3.
- Sauvaget J., *Noms et surnoms de mamelouks*, — JA, CCXXXVIII, 1950.
- Sauvaget J., *La poste aux chevaux dans l'empire des mamelouks*, Paris, 1941.
- Schacht J., *Über den Hellenismus in Bagdad und Cairo im 11 Jahrhundert*, — ZDMG, Bd 90, 1936.
- Schimmel A., *Einsetzungsurkunden mamlukischen Emire*, — «Die Welt des Orients», Stuttgart, 1949, H. 4.
- Schimmel A., *Kalif und Kadi in Spätmittelalterlichen Aegypten*, — «Die Welt des Islams», Berlin—Leipzig—Leide, Bd 24, 1943.
- Schregle G., *Die Sultanin von Agypten Sağarat ad-Durr in den arabischen Geschichtsschreibung und Literatur*, Wiesbaden, 1961.
- Severianus, *Les coptes dans l'Egypte musulmane*, — «Etudes méditerranéennes», Paris, 1959, N° 6.
- Silvestre de Sacy A. J., *Sur la nature et les révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte*, — «Bibliothèque des arabisants français», première série, Le Caire, 1923.
- Sobernheim M., *Das Zuckermonopol unter Sultan Barsbai*, — «Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete», Leipzig, XXVII, 1912.
- Sobhl L., *Geld und Kredit. Studien zur Wirtschaftsgeschichte Aegyptens im Mittelalter*, — JESHO, vol. II, 1959, pt 3.
- Sourdel-Thomine J., *Le peuplement de la région des «villes mortes» (Syrie du Nord) à l'époque Ayyubide*, — «Arabica», 1954, t. I, fasc. 2.
- Stern S. M., *Petitions from the Ayyubid period*, — BSOAS, vol. XXVII, 1964, pt 1.
- Strauss E., *L'inquisition dans l'Etat mamlouk*, — «Rivista degli Studi Orientali», vol. XXV, Roma, 1950.
- Strauss E., *Prix et salaires à l'époque Mamlouke*, — REI, année 1949, 1950.
- Tibawi A. L., *Origin and character of al-madrasah*, — BSOAS, vol. XXV, 1961, pt 2.

- Weil G., *Geschichte der Chalifen*, vol. 4—5, Stuttgart, 1860—1862.
- Wiet G., *La grande peste noire en Syrie et en Egypte*, — «Études d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal», t. I, Paris, 1962.
- Wiet G., Elisseeff V., Wolff Ph., *L'évolution des techniques dans le monde musulman au Moyen Âge*, — «Cahiers d'histoire mondiale», Neuchâtel, vol. 6, 1960, № 1.
- Wilken F., *Über die venetianischen Consuln zu Alexandrien im 15-ten und 16-ten Jahrhundert*, Berlin, 1832.
- Ziadeh N. A., *Town administration in Syria under the early Mamluks*, — «Proceedings of the twenty-second congress of orientologists», IV, Leiden, 1957.
- Ziadeh N. A., *Urban life in Syria under the early Mamluks*, Beirut 1953.
- سعيد عبد الفتاح عاشور. مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩.
- على ابراهيم حسن. دراسات في تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٤٨.
- على بيومي. قيامة الدولة الايوبية في مصر. القاهرة، ١٩٥٢.
- فاروق انيس جرار. اسطول صلاح الدين الايوبي. «الابحاث»، بيروت، ١٩٦٠، ج ١٣، جزء ١.
- محمد سرور. دولة بني قلاوون في مصر. القاهرة، ١٩٤٧.
- نظير حسان سعداوي. جيش مصر في ايام صلاح الدين. القاهرة، ١٩٥٩.

دليل قائمة مراجع المترجم ★

- ١ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .. دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٢ .
- ٢ - ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . محمد بن أحمد بن إياس الحنفى . الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٤ وطبعة دار الشعب القاهرة ١٩٦١ .
- ٣ - ابن تغرى بدى : (نجوم) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بدى مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ .
- ٤ - ابن تغرى بدى : (حوادث) حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور . المؤلف السابق إصدار بيروت ١٩٣٠ .
- ٥ - ابن جبير : رحلات ابن جبير .
- ٦ - ابن خلدون : العبر - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون القاهرة بولاق ١٣٤٤ هـ .
- ٧ - ابن شداد : سيرة صلاح الدين - بهاء الدين بن شداد مكتبة ومطبعة محمد على صبيح . القاهرة ١٣٤٦ هـ .
- ٨ - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر - القاضى محى الدين بن عبد الظاهر القاهرة ١٣٤٦ هـ .
- ٩ - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات المطبعة الأمريكية ؟ - بيروت ١٩٦٧ .
- ١٠ - ابن ممتى : قوانين الدواوين . شرف الدين أبو المكارم بن أبوسعيد بن ممتى مطبعة مصر ١٩٤٣ .
- ١١ - ابن منقذ : الاعتبار . أسامة بن منقذ مطبعة برنستون - الولايات المتحدة ١٣٣٠ هـ .

✳ أثرتنا استخدام المختصرات أعلاه فى هوامشنا كيلا نثقل على القارئ بأسماء الكتب الطويلة وكذا أسماء المؤلفين . وفى هذا الدليل يوضع أمام كل مختصر إسم الكتاب بالكامل وإسم المؤلف والطبعة وذلك منعاً للتكرار .

- ١٢ - أبو شامة : الروضين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة ، ح ١ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ ، ح ٢ المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢ .
- ١٣ - البغدادي : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بدار مصر - عبد اللطيف البغدادي . مطبعة وادي النيل ١٢٨٦ هـ .
- ١٤ - السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، محمد بن عبد الرحمن السخاوي . المطبعة الأميرية بولاق ١٨٩٦ .
- ١٥ - الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، خليل الظاهري . باريس المطبعة الجمهورية .
- ١٦ - المقرئزي خطط : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تقى الدين بن أحمد بن علي المقرئزي . دار التحرير للطبع والنشر .
- ١٧ - المقرئزي سلوك : السلوك لمعرفة دول الملوك تقى الدين بن أحمد بن علي المقرئزي ، تحقيق محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٤٢ طبعة ثانية .
- ١٨ - المقرئزي إغاثته : إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر تقى الدين بن أحمد بن علي المقرئزي - القاهرة ١٩٥٠ .
- ١٩ - النابلسي . تاريخ الفيوم . أبو عثمان النابلسي الصفدي القاهرة ١٨٩٩ .

20 - Churches and Monasteries and some Neighbouring contries .
Attributed to Abu salieh Armenian .

Translated from original arabic . B . T . A EVE TTS , M . A

فهرس

الصفحة

١ - تقديم للمترجم	٥
٢ - مقدمة الكتاب	٩
٣ - الفصل الأول :-	
الحـود والتنظيم الإدارى	٢٧
٤ - الفصل الثانى :-	
الملكية الإقطاعية المدينية فى العهد الأيوبى	٤١
٥ - الفصل الثالث :-	
الملكية الإقطاعية المدينية فى عهد الممالىك الأوائل	٧٣
٦ - الفصل الرابع :-	
أراضى الوقف فى العهد الأيوبى وفى عهد الممالىك الأوائل	٩٧
٧ - الفصل الخامس :-	
الفلاحون فى العهد الأيوبى وفى عهد الممالىك الأوائل	١٢٣
٨ - الفصل السادس :-	
الملكية الإقطاعية فى عهد الممالىك الأواخر	١٥٥
٩ - الفصل السابع :-	
الفلاحون فى عهد الممالىك الأواخر	١٩٥
١٠ - الفصل الثامن :-	
البدو والعبيد	٢١٣
١١ - الفصل التاسع :-	
الحياة المدينية	٢٣١
١٢ - مختارات من كتاب المواعظ والاعتبار للمقرئزى	٢٥٧
١٣ - دليل الخلفاء والسلاطين	٢٧٥
١٤ - مراجع الكتاب	٢٨١
١٥ - دليل قائمة مراجع المترجم	٢٩١

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مانغو باتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
القرآن المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوفا	ت : أحمد العظمى
ثريا هي غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إقبتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس قريش	ت : مصطفى ماهر
التقنيات البيئية	أندرو س. جردى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد مختصم وعبد الجليل الأركى وصر على
مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : فداء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونستون وإيرين فرانك	ت : أحمد محمود
نبأ الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب غلوب
التطيل النفسى والأدب	جان بيلمان ثويل	ت : حسن المودن
العركات الفنية	إلوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيع عفيفى
أثنية السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القلقسى / حسين الشيخ / منية كوزان / عبد الوهاب طوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر الانسانى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج مليريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة والف خوخة	هنري بيرنجى	ت : ماجدة العناني
منكرات رجاله عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم النسوتى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : متى أبر سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الدين
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مانغو باتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سولفاجيه – كود كاين	ت : عبد الستار الطرجى / عبد الوهاب طوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والمداثة	بول - ب - ميكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحبيّة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيرة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد العداثة	أكن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والصد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	أن سكستون	ت : محمد عبد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عطف أحمد / إبراهيم قتي / محمود مآجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
الذهب المزئج	أوكافير بات	ت : المهدي أخروفي
بعد هذا (مسياف	الدوس هكسلي	ت : مارلين تانوس
التراث المغفور	روبرت ج دشا - جون ف أ قلين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بايلو فيرودا	ت : محمود السيد علي
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المظم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرائسوا نوما	ت : ماهر جويجاتي
الإسلام في اليابان	د - ت - نوريس	ت : عبد الوهاب طوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمان الملوذ ويوسف الأنطكي
مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داويو بينارويا وخ ، م بيناليستي	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسي التعميمي	بيتر - ن - توناليس وستيفن - ج - روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ - ف - التجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقي للمسرح	ج - ماكل والتون	ت : محسن مصيلحي
ما وراء العلم	جون بولكجهوم	ت : علي يوسف علي
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
معصيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحيرة	كلاروس مونيث	ت : السيد السيد سليم
التصميم والشكل	جواناز ايتن	ت : صبري محمد عبد الفتى
موسومة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميت	ت : مراجعة وإشراف : محمد الجرمي
لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير اليقاعى ،
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المظم مجاهد
برتواند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض ،
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتواند راسل	ت : رمسيس عوض ،
خمسة مسرحيات إنجليزية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسا	ت : المهدي أخريف
تناش العجز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف المصباح
العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وفريدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	لوخينير تشالاج روبريجت	ت : عبد الحميد قلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرسم	داريو في	ت : حصين محمود
الميلسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چيز . پ . توميكز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . صيمينولا	ت : حصن بيومى
فن التراجم والصير الذاتية	أنثويه موروا	ت . أحمد بروجيش
چاك لاكان وإغراء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
ثلاث دراسات عن الشعر الاندلسى	مجموعة من الكتاب	ت : محمود على مكى
العولمة والنظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	روناك دويرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	يورييس أوسيتسكى	ت : سعيد القانصى وناسر حلاوى
مصاغة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى سليمان

(نحت الطبع)

تاريخ النقد الادبى الحديث (٣)	طول اليل
المختار من نقد ت . س . إليوت	نون والقلم
منصور الملاج	الحب الأول
الهم الإنسانى والابتزاز الصبى	أورا ماهوجولى
الجماليات المتخيلة	عالم القلياذيون بين الجمال والعتق
مختارات فو تفريد بن	حروب المياه
تاريخ السينما العالمية	ثلاث وثلاث ووردة
مسرح ميغيل دى أونامونو	الأدب الاندلسى
مختارات من المسرح الإسباني	الأدب المقاتل
صورة القداس فى الشعر الأمريكى المعاصر	راية التمرد
الابتلاء بالتقرب	السياسة والتسامح

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٣٨٠ / ١٩٩٨



САЛАХ АД-ДИН И МАМЛЮКИ В ЕГИПТЕ

Л. А. СЕМЕНОВА

هذا الكتاب يقدم دراسة عن الحياة الاقتصادية الاجتماعية في مصر ابتداء من ١١٧١م ، أى بداية حكم صلاح الدين ، إلى الغزو العثماني في ١٥١٧م .
وهذه الدراسة تنطلق أساساً من المفهوم الديالكتيكي للتاريخ في دراسته للمشكلات الاقتصادية الاجتماعية كمراحل طبيعية في تطور الإنسانية .

وهي تركز على كتابات الكثيرين من مؤرخي هذه الفترة كالمقرئى وابن إياس ، وابن تغر بردى وأبو شامة وعبد اللطيف البغدادي وابن الأثير ... إلخ ، وهي تتجادل مع عدد من المستشرقين والباحثين أمثال : سلفستر دى ساسى ، وبيكر ، وبولياك ، وكلود كهن ... إلخ ، حول مفاهيم الإقطاع ، وأشكال توزيع الإقطاع ، والعلاقات المتنوعة في المجتمع سواء كانت عسكرية أو سياسية ، دينية أو أخلاقية ، اجتماعية أو اقتصادية ... إلخ .